الحرية

11

كنت نائبا لرئيس المخابرات



عبد الفتاح أبو الفضل



يصدر أول كل شهر عن
دار الحرية
للصحافة والطباعة والنشر
٤١ شارع شريف - القاهرة
تليفون : ٧٤٧٠٠٠ - برقيا : الحرية
المراسلات : ص.ب ١٣٧ محمد فريد - القاهرة

العدد الحادى عشر
شعبان - رمضان ١٤٠٦
أبريل - مايو ١٩٨٦

كنت نائبا لرئيس المخابرات

الطبعـــة الأولى
أبريل ١٩٨٦ م

كنت نائبا
لرئيس المخابرات

عبد الفتاح أبو الفضل

، ، الآراء الـواردة بهذا الكتـاب لا تعبر بالضرورة عن اتجـاه « دار الحرية » وإنما تعبر عن وجهة نظر كاتبها ، ،

إلى رمز مصر
إلى أمي التى أوصلتنى
.. وإلى زوجتى
التى شاركتنى كفاح السنين

" قد يعتبر البعض هذه المذكرات دفاعا عن فترة ما ، وقد يعتبرها البعض الآخر هجوماً على فترة ما ، وقد يستخدمها البعض لأغراض أخرى فى أنفسهم ، إلا أن أحداث هذه المذكرات تؤكد حقيقة سامية هى : إن العمل المنظم فى ظل الحرية والعدل هو طريق الجميع لحياة أفضل "

هــذه المذكــرات .. لمـاذا ؟

عند ظهر يوم ٧ يونيو سنة ١٩٦٧ ، ثالث أيـام العدوان الاسـرائيلى ، وصلت إلى بور سعيد لأتولى قيادة المقاومة الشعبية هناك بعد انسحاب عشوائى للجيش المصرى من سيناء ودون أى اشتباك جدى مع الجيش الأسرائيلى .

ومنذ بدء العدوان فى ٥ يونيو عاصرت حالة الفوضى التى أصابت الجيش المصرى سواء وأنا على الطريق من القاهرة أو فى مركز قيادة القوات المسلحة فى الاسماعيلية أو عندما شاهدت المعدات المحترقة والرجال القتلى ، والمصابين على الطريق بين القنطرة والاسماعيلية ، نتيجة تضارب أوامر قيادة الجيش بالانسحاب ثم بالعودة من وإلى سيناء .

وصلت إلى بور سعيد وأنا فى غاية الإحباط وتوجهت مباشرة إلى مقر قوات الحرس الوطنى التى كانت تحت قيادة الزميل العقيد جمال السيد ابراهيم وكانت تمثل قوات المقاومة الوحيدة هناك . كانت قواته خليطاً من الرجال من مختلف الاعمار والمهن ، فمنهم كبار الموظفين والعمال والطلبة والتجار وعمال البحر ، فضلاً عن عدد من شباب اليونانيين ، وكان القائد ورجاله فى حالة معنوية مرتفعة وكانت علامات التصميم على الصمود ، وعدم الاستكانة للهزيمة واضحة على وجوههم التى كانت تعبر عن الاستهانة بالحياة فى سبيل الدفاع عن بلدتهم بور سعيد .

أعـادت هذه المعنويات المرتفعة الثقة إلى نفسى وأزالت عنى تمامـاً حالة الاحبـاط التى انتابتنى وأنـا فى الطريق إليهم .

توليت قيادة الحرس الوطنى ، وبعد مدة تمكنا من تكوين مقاومة شـعبية بعد أن حصـلنا على السـلاح والذخـائر .

وعندما وقفت وحاربت قوات المقـاومة الشـعبية والحرس الوطنى وخلفها فصـيلة صـغيرة من قوات الصـاعقة فى معركة رأس العش أثبتت هذه الفئـات من الشـعب المصـرى قدرتها على الصـمود وتحقيق النصـر .

وفى صـباح اليوم التـالى لمعركة رأس العش الليـلية خرج الشـعب البور سـعيدى بأكمـله يحتفل بالنصـر ملتفـاً حول المقاتـلين من رجال المقـاومة وجنود وضـباط الصـاعقة المصـرية وقامت السـيدات بغسـل المدرعات لإزالة غبار المعركة إمعانـاً فى تكريـم أبنائهن المقاتـلين .

فى هذه اللحـظة بالـذات راودتنى فكرة تسـجيل ذكرياتى ومشـاهداتى كشـخص عاصـر منذ الطفولة كثيراً من الأحداث السياسـية .

وبعد عودتى من بور سـعيد بأيـام ، بعد النصـر فى معركة رأس العش كنت أزور شـقيقتى وكان أولادها الشـبان من طلبة الجـامعة مجتمعين فى غرفة مجاورة مع زمـلاء لهم . طلب منى أولاد شـقيقتى أن أجتمع بزملائهـم بعد أن علمـوا بوجودى وأننى كنت اقود المقـاومة الشـعبية فى بور سـعيد ، بالإضـافة إلى عملى كواحد من قيادات العمـل السـياسى بالاتحاد الاشـتراكى .

لاحـظت منـذ بداية الحـوار مدى تحفزهم وسـخطهم من النتائج التى وصـلت إليها مصـر بهذه الهزيمة . وبهذا الحجم . طلبت منهم أن يعبروا عن

أعـادت هذه المعنويات المرتفعة الثقة إلى نفسى وأزالت عنى تماماً حالة الاحباط التى انتابتنى وأنـا فى الطريق إليهم .

توليت قيادة الحرس الوطنى ، وبعد مدة تمكنا من تكوين مقاومة شـعبية بعد أن حصـلنا على السـلاح والذخـائر .

وعندما وقفت وحاربت قوات المقـاومة الشـعبية والحرس الوطنى وخلفها فصيلة صـغيرة من قوات الصـاعقة فى معركة رأس العش أثبتت هذه الفئـات من الشـعب المصـرى قدرتها على الصـمود وتحقيق النصـر .

وفى صباح اليوم التـالى لمعركة رأس العش الليـلية خرج الشـعب البور سـعيدى بأكمـله يحتفل بالنصـر ملتفـاً حول المقاتـلين من رجال المقـاومة وجنود وضـباط الصـاعقة المصـرية وقامت السـيدات بغسـل المدرعات لإزالة غبار المعركة إمعانـاً فى تكريم أبنائهن المقاتـلين .

فى هذه اللحـظة بالـذات راودتنى فكرة تسـجيل ذكرياتى ومشـاهداتى كشـخص عاصـر منذ الطفولة كثيراً من الأحداث السياسـية .

وبعد عودتى من بور سـعيد بأيـام ، بعد النصـر فى معركة رأس العش كنت أزور شـقيقتى وكان أولادها الشـبان من طلبة الجـامعة مجتمعين فى غرفة مجاورة مع زمـلاء لهم . طلب منى أولاد شـقيقتى أن أجتمع بزملائهم بعد أن علمـوا بوجودى وأننى كنت اقود المقـاومة الشـعبية فى بور سـعيد ، بالإضـافة إلى عملى كواحد من قيادات العمـلى السـياسى بالاتحاد الاشـتراكى .

لاحـظت منـذ بداية الحـوار مدى تحفزهـم وسـخطهم من النتائج التى وصـلت إليها مصـر بهذه الهزيمة . وبهذا الحجم . طلبت منهم أن يعبروا عن

كشباب بعد ذلك أن نتولى المسئولية . وإن ما عبر عنه زميلى بأن الذى خربها هو الذى يجب أن يصلحها هو تعبير صادق لموقف شعب مصر كله رغم ما شاب ذلك من مظاهر راقصة مخجلة من أعضاء مجلس الشعب » .

وكان ردى« كلامك مطابق للحقيقة ولذلك كان فى قبول عبد الناصر ونظامه المسئولية والاستمرار فى العمل العام لإزالة آثار العدوان أبلغ دليل على أن جيلنا لازال فى الميدان ليصحح الأخطاء وسوف يتحقق النصر على الرغم من أننا خسرنا معركة ، وسواء أردتم أم لا فإن الشباب سيشارك فى إزالة هذا العار لأن المعركة القادمة كأى معارك مضت ، عمادها هو الشباب شباب الجيش وشباب العاملين وأننا لم ننكسر بدليل هذا التعبير الصادق عن تصميم الشباب الذى جاء على السنتكم حالاً » .

وبعد هذا اللقاء مباشرة صممت على ضرورة كتابة هذه المذكرات .

لقد عايش جيلى الاحتلال البريطانى وكفاح الشعب والفرقة الحزبية التى أجلت الجلاء والاستقلال لمدة سبعين عاماً ، وحرب فلسطين ، وما سببته نتائجها من مرارة للضباط الشبان الوطنيين ، والإعداد للثورة ثم الثورة فالجلاء ، وضغوط الدول العظمى فى ظل استقلالنا الوطنى ، ومحاولة إدخالنا فى دوائر التبعية ومناطق النفوذ ، والتى انتهت بهذه الهزيمة . كل هذا أصبح من الواجب تسجيله للأجيال بعدنا حتى لاتتوه الدروس فى خضم مرارة الهزيمة أو ضمن افراح السلام .

وقد قمت بتسجيل ذلك كله بعد أن قام جيلى ونظام ثورة ٢٣ يوليو بالتحضير للعبور فى اكتوبر سنة ١٩٧٣ .

هذا التسجيل اعتبرته وديعة يجب أن أردها لأصحابها من شباب

الأجيال اللاحقة لجيلنا سواء الذين فرقتهم هزيمة ٦٧ وطالبونا باستئناف الكفاح ليتسلموا منا البلاد كاملة السيادة ، أو من أجيال الشباب القادمة وبذلك يمكن أن يطلعوا على كفاح الفرد المصرى عندما يريد لأمته الحياة .

وهذه المذكرات محاولة لتسليط الاضواء على جميع مراحل حياتى كمصرى فى مواجهة أحوال مصر ، منذ كنت صبياً بالمرحلة الابتدائية إلى أن جعلنى قدرى أقوم بدور وطنى متواضع فى التحضير للثورة ، وأشارك فى الكفاح مع جيلى من طلبة المرحلة الثانوية وما خالجنى وخالج جيلى من الشباب أثناء الدراسة بالكلية الحربية ، والأحداث السياسية فى هامش المرحلتين ، وخلال تفكيرنا فيها وحكمنا عليها . ثم أحداث الحرب العالمية الثانية وتأثيرها على مقدرات مصر وأنا ضابط فى الجيش المصرى ، ومدى انعكاس السيطرة البريطانية على الجيش المصرى . كذلك سجلت فيها معركة فلسطين وملابساتها من وجهة نظر المقاتل فى الجبهة ، والمعارك التى خضتها فى أراضى فلسطين ، ومدى تجاوب شباب المقاتلين مع نداء الوطن والعروبة ، وما صاحب ذلك من فساد القادة السياسيين وعجز القادة العسكريين ، مما عجل بالتحضير للثورة .

رويت أيضاً فى هذه المذكرات عن التنظيمات الوطنية بالجيش بعد حملة فلسطين وما كنا نتداوله فى اجتماعاتها عن أحوال البلاد . وسجلت أيضاً أحداث ثورة ٢٣ يوليو ، وقيامى بالخدمة فى المخابرات ، والدور الذى قمت با مع الضباط الوطنيين فى هذا الجهاز من أعمال ، أدت إلى النهوض به ليصبح واحداً من اكفأ الأجهزة فى العصر الحديث رغم بعض المآخذ التى لا يخلو منها أى جهاز مخابرات فى العالم .

بعد ذلك سجلت تحليلاً لأحداث العدوان الثلاثى والكفاح الشعبى المسلح فى مواجهته حيث شاركت فى هذا الكفاح . وأخيراً سجلت معالم

السلبيات في داخل أجهزة الدولة والتي كانت السبب الرئيسي في هزيمة معركة ٦٧ ودور المقاومة الشعبية في بور سعيد وكنت بالإضافة إلى قيادتي لها عضوا بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي أمارس من خلالها الخدمة العامة . لذلك قمت بتسجيل الاتحاد الاشتراكي كجهاز سياسي في فترة من أدق فترات التطور السياسي والاجتماعي في مصر حيث كانت تجربته مجال جدل داخلي وخارجي انتهت بتحول البلاد إلى نظام تعدد الأحزاب السياسية لتمثيل اتجاهات عقائدية مختلفة في ظل انفتاح اقتصادي سلبياته أكثر من إيجابياته .

وتلزمني كلمة حق إزاء ما قيل أو اتبع أو نشر عن بعض الفساد الذي تناول جهاز المخابرات المصري في فترة من الفترات حتى أصبحت كلمة « المخابرات » – إذا قيلت في أي وسط كان سواء في مصر أو في أي قطر عربي – تثير الرعب والاشمئزاز والكراهية مع استمرار هذه النظرة السيئة عن هذا الجهاز إلى الآن . وبالتالي شعرت بضرورة توضيح دور المخابرات الحقيقي كجهاز وطني قام بأعمال مشرفة وهي الأصل . أما أي مآخذ أو شوائب ، فما هي الا مجرد عوارض شاذة بوسعنا الحد منها .

ومن الظواهر الشاذة في بلدنا أن عناصر من المثقفين ، علماء وأدباء وكتاب وصحفيين ، تزعمت حملة التشويه ضد هذا الجهاز لدرجة المناداة بإزالته من الوجود واستبعاده تماماً من اجهزة الدولة .

وكمبدأ عام يجب أن نعترف بأن فكرة إزالة أو إلغاء أو استبعاد جهاز المخابرات من أي دولة لمجرد انحراف بعض أفراد أو أقسام منه هي فكرة خاطئة ، لأن الأوضاع السليمة والمثلى تقضي ببتر الفساد أو الانحراف لا إزالة الجهاز نفسه نظراً لشدة الحاجة لجهاز المخابرات في أي دولة صغيرة كانت أو كبيرة لتحقيق أمن الدولة الداخلي والخارجي .

محمد عبد الفتاح أبو الفضل

.. وكانـــــت البدايـــــة

النشأة :

ولدت فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٢١ بحلوان الحمامات من ضـواحى القـاهرة والوالد من مواليد سنة ١٨٨٢ ، ، وكان مهندسـاً معمارياً بدأ حياته بقريته صفط الملوك مركز ايتاى البارود مديرية البحيرة ، وبدأ تعليمه بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم . ثم نزح إلى القاهرة بداية من التعليم الابتدائى ليقيم فى منزل فى السيدة زينب يضم جميع شباب وأطفال وشباب العائلة الذين يدرسون بالقاهرة وكان يشرف على هذا المنزل عم الوالد . وقد درس والدى الهندسة ثم التحق بالعمل مهندساً بالرى المصرى بالسودان وعندما عاد إلى القاهرة مارس العمل الحر كمهندس وخبير لدى المحاكم الأهلية ، وبجانب عمله الهندسى كان يقوم بتدريس العلوم الرياضية لطلبة الأزهر الشريف .

أما والدتى فقد حصلت على التعليم اللازم للقراءة والكتابة والحساب فى إحدى مدارس الأقباط بحى الناصرية القريبة من منزل والدها بعابدين . هذا المنزل الذى كانت تقيم فيه أسرة الجد كلها بما فيها اسرتنا وكان المنزل بشارع البرمونى رقم ٦ بحى عابدين . ويقيم فى أحد الطوابق الخال الكبير الدكتور على راشد الذى أتم تعليمه بقصر العينى ثم تخصص فى كلية طب فرنسا . والخال الأصغر أحمد يحيى راشد المحامى يقيم فى طابق آخر من المنزل مع الجد للوالدة يحيى راشد ، والجد كان يعمل موظفاً

بوزارة الأوقـاف . ويملك مسـاحـات كبـيرة من الأراضى الـزراعية . وكان الخـال الأصـغر أحمد يحيى راشـد أثناء دراسـة الحقوق يجلس مع خاله الأصـغر حسـن محسـن ، أمـام منزل خاله ، خلف الحرس السـلطانى ، عندما مر موكب السـلطان حسـين وتعمدا ألا يقفا احترامـاً للسـلطان أثناء مروره عليهما لأنهما فى ذلك الوقت كانا يمثلان الطبقة المتنورة ، وكلهـا كانت تمقت السـلطان حسـين الـذى جاء على أثـر خلع الخـديوى عباس ، والذى كان محبوباً من الشـباب والشـعب لمواقفه ومسـاندته للحركات والزعماء الوطنيين فى كفاحهم ضـد الاسـتعمار البريطـانى . واعتبر السـلطان فى تصـرفهما هذا إهـانة له . واسـتفسـر عمن يكونان وأمر برفتهما من مدرسـة الحقوق الحكومية ، فالتحقا بأول جامعـة أهـلية بكلية الحقـوق جامعـة فؤاد (المـلك فؤاد . ثم جامعـة القـاهرة) أمـا الجدة من ناحية الوالدة . فقد كانت تقيم بشـقة صـغيرة أعـلا المنزل مع حفيدتيها من بنتيها المتوفيتين . وأسـرتى تقيم فى الدور الأول .

كان للمنزل حوش كبير به فسـقية ويطل عليه مندرتان إحداهما يقيم فيها سـائق العربة الحنطور التى يمتلكها خالى الدكتور والأخرى يقيم فيها زميل جدى من الطفولة الحـاج محمد جنيد الشـهير بالحـاج محمد زغزغ ، حيث كان وهو طفل بقرية الأسـرة صـفط المـلوك عندما يأكـل الذرة المشـوية يفرك الكوز بيده بما يشـبه (الزغزغة) ويضـع ما يفركه فى كف يده ، ثم يضـعه فى فمه ومن ثم أطلق عليه زغـزغ وكـان الحـاج محمد جنيد فى سـن مقارب لسـن الجد ، وإن لم يتعلم بالمدارس . وحضـر إلى القـاهرة ليزامـل الجد فى كل شىء وكان يقوم ببعض الخدمات الخاصـة بالجد . ومقابـلة ضـيوفه ويحضـر جلسـاته مع أصـدقائه فى الشـتاء داخـل المندرة مع المنقد (دفاية) أو على الرصـيف. أمـام المنزل فى الشـارع بعد عصـر أيـام الصـيف وبعد رش الشـارع بالمياه للترطيب أمـام الجلسـة التقليدية وكان المنزل يواجه جامع الخـلوتى ، ويتولى

الحاج محمد جنيد (زغزغ) خدمة هذا الجامع تطوعاً ويواظب على صلاة الجماعة فى مواقيتها ، وهو الذى يجهز الجامع للصلاة عند الفجر كما كان يقوم بتوصيل أطفال الأسرة كلها إلى المدارس ويعود بهم وكنا كأطفال ننجذب إليه حيث كان يضع لنا شراب القرفة فى مندرته . وأثناء الشراب كان يحكى لنا ذكرياته عن ثورة عرابى . حيث كان أحد جنود جيش عرابى أثناء الثورة واشترك معه فى معركة كفر الدوار وحج إلى بيت الله الحرام عدة مرات .

وعيت على نفسى طفلاً صغيراً يرسلونه إلى كتاب الشيخ زكى بقنطرة سنقر (ملحق بجامع الشيخ جنبلاط) بالقرب من المنزل يصحبنى صديق الطريق الحاج محمد زغزغ فى الذهاب والأياب وكان هذا الكتاب داخل سبيل جامع جنبلاط وبه دكك خشبية لها أدراج فى ثلاثة صفوف كل صف خاص بسنة من سنوات الدراسة الثلاث .

وفى سن الخامسة الحقت بمدرسة أولية يطلق عليها مدرسة بشير أغا دار السعادة . وقف المدعو بشير أغا بشارع درب الجماميز ، والذى كان يوازى شارع الخليج المصرى وكانت المدرسة أيضاً قريبة من المنزل ـ والتحقت بهذه المدرسة سنتين واتقنت الكتابة والقراءة ومبادىء الحساب مع حفظ بعض آيات القرآن الكريم .

وفى سن الثامنة التحقت بالمدرسة المحمدية الابتدائية بالحلمية الجديدة . واتذكر وأنا بالسنة الثانية بالمحمدية الابتدائية فى أحد أيام الخميس وكنا نسمع المحفوظات لمدرس اللغة العربية الشيخ عاشور ، وكان نشيداً وطنياً له وقع موسيقى جميل « اسلمى يامصر إننى الفدا ذى يدى ان مدت الدنيا يداً » .

وإذا بنا نفاجأ بصوت موسيقى الجيش تصدح تحت نوافذ الفصل . أطل الشيخ عاشور من الشباك وبصوت جهورى وبعصبية وجدناه يهتف « يسقط الانجليز » تركنا مقاعدنا وتجمعنا بجواره ننظر من الشبابيك . وإذا بطابور من جنود الجيش البريطانى يمر فى الشارع ، تتقدمه فرقة موسيقى ويسير الجنود على نغماتها والشعب مصطف — بالرغم منه — على جانبى الشارع وبعد أن انتهى الموكب مختلطاً بهتاف وغضب شيخنا الجليل عاشور عدنا إلى اماكننا والشيخ عاشور ينهج من الانفعال والغضب عدنا ونحن ننظر بإعجاب وتقدير لأستاذنا دون أن نفهم مصدر هذا الإجلال .

هذه الواقعة استمرت فى مخيلتى طوال اليوم الدراسى وفى طريق العودة إلى المنزل بمصاحبة الحاج محمد زغزغ وأجريت معه حواراً ممتعاً سعدت به مع رفيق الطريق ، بعد أن رويت له ما حدث فى الصباح وكل ما كان يهمنى هو سؤاله عن سبب هتاف الشيخ عاشور بسقوط الإنجليز وخروجه على وقاره المعهود أمامنا فى الفصل ، واستفسرت منه عمن يكون الانجليز ولماذا يلعنهم الشيخ عاشور . أجابنى الحاج محمد زغزغ بأبسط الكلام وهو « أن هؤلاء الانجليز هم جنود دولة معادية اعتدت على أرض مصر واحتلتها بمعاونة حاكم البلاد الخائن الخديو توفيق » .

« أما سبب هتاف الشيخ عاشور فلأنه يستصرخ أهل بلده ليتنبهوا للص الذى يسرق بلادهم ! » .

وصلت إلى المنزل على وعد من الحاج محمد أن يروى لى باقى قصة عرابى كلها وحروبه ضد الاحتلال وكفاحه ضد الخائن الخديو توفيق .

عدت وأنا متشوق لإجراء حوار مع الوالد الذى كثيراً ما كان يروى لى

وللأشقاء والشقيقات قصصاً من القرآن الكريم بأسلوب فى غاية التشويق وجلست إلى الوالد فى حجرته بعد الغذاء ورويت له قصة الشيخ عاشور وهتافه ضد الإنجليز وتعليق الحاج محمد عليها وسألته « لماذا ياأبى فى الوقت الذى يكره فيه الشيخ عاشور والحاج محمد الإنجليز فإن بعضاً من الشعب المصرى على جانبى طريق موكب الإنجليز بالموسيقى يصفقون ؟ ولماذا أغلبهم لا يصفقون وينظرون إلى المشهد بغير اكتراث ولا مبالاة ؟ » وكان رده الذى لاأنساه « ياولدى إن العلم أساس الحياة فى هذه الدنيا لذلك عندما أنزل الله سبحانه وتعالى رسالته على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بدأ هذه الرسالة الكريمة بالأمر بالعلم والتعليم والقراءة « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فالواقعة التى حضرتها اليوم ياولدى يتفاوت رد فعلها باختلاف المواقف فى مواجهتها وكلها تقود إلى درجة العلم لكل فرد من المصريين الذين شاهدوا الموكب بموسيقاه المثيرة » .

درس لاينسى

أما عن الجد فكان رجلاً مهاباً مع خفة ظل ، وهو محور الأسرة كلها يكاد يكون ممسكاً بعجلة قيادة المنزل . يومياً ومن بعد صلاة العصر يعقد جلساته مع جمع من أصدقائه وأهل الحى الذين يواظبون على الصلاة فى جامع الخلوتى . وفى فصل الشتاء يجتمعون فى مندرة الحاج محمد زغزغ الذى يقوم بتحضير المشروبات الساخنه كالقرفة أما صيفاً فيجتمعون على الرصيف أمام المنزل بعد رش الشارع بالمياه للترطيب وتقدم المشروبات الباردة كالسوبيا والليموناده . وكثيراً ما كنا كأطفال نتسلل لنأخذ أماكننا وسط جلسة الجد ونحصل على نصيبنا من المشروبات اللذيذة ونستمع إلى أحاديثهم عن الدين وعن الحركات الوطنية وعن الوفد المصرى وسعد

زغلول وصحبه الذين قاموا وكافحوا ضد المحتل البريطانى ، علاوة على بعض القفشات المضحكة .

عشت طفولتى وشبابى وجزء من رجولتى فى منزل الأسرة بعابدين . ويعتبر حى عابدين حى الطبقة المتوسطة من أبناء الموظفين بإستثناء سراى عبد الرازق بشارع باب باريس (خلف قصر عابدين) وهى اسرة ثرية كان لها دور كبير فى العمل السياسى والحركة الوطنية فى مصر . كذلك كانت فى نفس شارعنا سراى ادريس باشا راغب وبالقرب من شارعنا كانت سراى اسرة أبو جبل ومقر ابراهيم باشا خليل . ومتاخم لحى عابدين حى الحلمية الجديدة وكان بها قصر تيمور وقصر توفيق نسيم . وكان بنفس حى الحلمية الجديدة مدرستى الابتدائية المدرسة المحمدية وملعب كرة قدم خلف المدرسة الخديوية الثانوية وكان أيضاً هناك حوش القربية يتدرب فيه كل يوم خميس فرسان وموسيقى الحرس الملكى ونراها صباح كل يوم خميس تمر بين مبانى الحرس الملكى بجوار قصر عابدين إلى حوش القربية . وبالقرب من المنزل أيضاً كان شارع درب الجماميز الموازى لشارع الخليج المصرى والموصلان إلى حى السيدة زينب وكانت مدرستى الأولية مدرسة بشير أغا دار السعادة بهذا الشارع وكذا مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية والمدرسة الخديوية الملاصقة لجامع فاضل باشا الذى كان يقرأ فيه المقرىء الشهير الشيخ محمد رفعت سورة الكهف كل يوم جمعه . وكان يقطن شارع درب الجماميز أسر اشتهرت بمصارعة الديوك كانت تمتلك ديوكاً متخصصة فى المبارزة ، وكنا نشاهد جانباً منها حيث تنتهى كل مبارزة بقتل أحد الديوك المتبارزة فى وحشية .

ويتاخم حى عابدين خلف منزلنا حى سنقر ، حى الطبقة العاملة

ومعظم سكانه كانوا إما نازحين من ريف مصر أو من الواحات . أما النازحون من الريف فكانوا يعملون فى افران الخبز ويصنعون الخبز الذى يحملونه للبيع فى المنازل . أما أهل الواحات فكانوا يعملون فى جمع القمامة من المنازل ليحملوها للحريق فى المستوقد التابع لحمام السوق ويطهون فى افران هذا المستوقد قدور الفول المدمس الذى تخصصوا فى بيعه مع البليله على عربات يد خاصة صباح كل يوم . أما بقايا حريق القمامة فكان يستخرج منها « الاسرمل » الذى كان يستخدم فى بناء المنازل وتغطية أرضية أسطح المنازل كمادة عازلة وواقية من الأمطار .

وهذا الخليط من أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة كان على علاقات طيبة بتبادل الخدمات (الكنس ـ جمع القمامة — بيع الخبز والفول — خبز العيش . . إلخ) وكان كثير من أبناء الطبقة العاملة زملاء لى فى الدراسة ، فى الكتاب وفى المدرسة الأولية . وبعضهم وصل معى إلى مرحلة التعليم الابتدائى . كما اشترى عم مصيلحى وهو من بائعى العيش مربع المبانى الذى يضم المخبز والحمام وأصبح موسراً .

وكل عام ، كان يقام مولد سيدى الخلوتى المدفون بالمسجد أمام منزلنا وكان الجد والأسرة أثناء ليالى مولد سيدى الخلوتى يوزعون شراب القرفه للمترددين على المولد كما يقدمون الفته واللحمة لخدم المسجد وللفقراء .

صداقة الطفولة

كان لى اصدقاء من ابناء الحى واستمرت صداقتى بهم طول حياتنا ، منهم المرحوم صلاح والى وكان لأسرته عربة حنطور يجرها زوج من الخيول وعربخانة للخيول وكثيراً ما كنا نذهب إليها لرؤية الخيول بحارة شق الثعبان

أمام منزلنا مباشرة وتوفى هذا الصديق حين كان طالباً بكلية الحقوق بجامعة الاسكندرية ومنهم المرحوم المهندس الجيولوجى جلال على مصطفى والذى زاملنى فى المدرسة الخديوية الثانوية ثم درس فى كلية العلوم وآخر منصب له كان رئيس هيئة المساحة الجيولوجية ، وصديق آخر هو الأستاذ محمد على النقادى وزاملنى أيضاً فى التعليم الثانوى والتحق بكلية الحقوق وكان آخر مناصبه هو مستشار ورئيس محكمة الاستئناف العالى ثم مستشار بالنقض قبل أن يحال إلى المعاش ، والصديق المرحوم فؤاد رجائى مهندس زراعى ، عمل بالتدريس ، والمرحوم محمد غالب وقد وصل إلى الابتدائية وتوفى والده الموظف بالسكة الحديد ولم يكمل تعليمه واضطر للعمل فى دائرة أبو جبل الذين كانوا على معرفة بالمرحومة والدته ثم عملت على إلحاقه للعمل بالمخابرات العامة وعمل معى كثيراً ، وسافر معى إلى السودان فى أعمال المخابرات وتوفى اثناء الخدمه وكان من اصل سودانى .

وكانت سيدات الأسرة ــ جدتى للوالده وزوجات اخوالى ــ يحتفلن فى احد أيام الشهر بيوم يطلقون عليه (المقابلة) يتقابلن فى ذلك اليوم المحدد بقريباتهن وصديقاتهن وزميلات دراستهن وكن فى ذلك الحفل يعزفن البيانو ويسمعن « الفونوغراف » وبعض ألوان الطرب ويقدمن أثناء هذا الحفل المشروبات البادرة أو الساخنه حسب الفصل شتاء أو صيفاً ويقدمن أيضاً الحلويات والمكسرات وكان هذا تقليداً لمعظم الأسر المتوسطة وكنا كأطفال نتسلل لسماع أحاديثهن التى كثيراً ما كانت تتناول نشاط أزواجهن فى الحركة الوطنية وكنا نغافلهن ونخطف جانباً من الحلوى والمكسرات .

القصص الشعبى

كان للجدة قريبة مسنة فى نفس سنها كثيراً ما كانت تحضر وتقيم مع الجدة لعدة أيام . وكان يصحبها خادم يحفظ سير الأبطال أبو زيد الهلالى

والزناتى خليفة وعنترة بن شداد وسيف بن ذى يزن . وكان هذا الخادم يتقن التلاوة ويغنى الشعر مصاحباً ذلك بربابة كان يحملها (أى كان يقوم بما يقوم به الشاعر فى المولد بالريف) فكان يجمع اطفال العائلة حوله بمندرة الحاج محمد زغزغ ويأخذ فى العزف على ربابته موسيقى شجية تتناسب مع ما يتلوه من قصص وشعر ، وبجانب ذلك كان يطوف بالحى من وقت لاخر ما يسمى بصندوق الدنيا وهو عبارة عن صندوق مرتفع يوضع على حامل وتوضع دكة امام الحامل كنا نجلس عليها ويغطى علينا بغطاء من القماش وننظر خلال عدسات مثبته فى الصندوق نرى خلالها صوراً ملونه جميلة ويبدأ حامل الصندوق فى الغناء ويشغل صندوقه باليد فتظهر العدسات المكبرة صوراً ملونة جميلة لأبطال لها قصص يأخذ حامل الصندوق فى سردها وكلها عن الشجاعة والاقدام والفروسية والحب الشريف العفيف .

مرحلة التعليم الثانوى

انتهت المرحلة الابتدائية وكنت فى سن الثالثة عشرة ، فى عام ١٩٣٤ ، وبدأت مرحلة التعليم الثانوى فى أواخر عام ١٩٣٤ بالمدرسة الخديوية وفى تعليمى الثانوى عاصرت نخبة من المدرسين كانوا مربين ومعلمين فى نفس الوقت ؛ فكانوا يلقوننا بجانب العلم تجاربهم فى الحياة من واقع علمهم الغزير . ووطنيتهم وتجاربهم الشخصية .

كان الاستاذ مخلوف ، مدرس اللغة العربية والدين خلال حصة الدين يشرح الآيات البينات ويربط شرحه بواقع الحياة مما حبب إلينا دروس الدين

وكان الاستاذ الجندى مدرس العلوم ينتمى سياسياً إلى حزب الوفد . رغم حصوله على درجات علمية عالية من فرنسا تؤهله للعمل فى مراكز عليا بديوان وزارة المعارف فقد كانت الاحزاب المعارضه للوفد عندما تصل إلى

الحكم يضطهده ويبعده للتدريس بالمدارس . وكان هذا الاستاذ يشرف على مجلة المدرسة السنوية والتى كنت أنا عضوا فى مجلسها . وكان أثناء اجتماعات هيئة تحرير المجلة يفتح حواراً فى احد الموضوعات الوطنية وينقلب الاجتماع إلى مناظرة وأسئلة وأجوبة ساعدت على تفتحنا سياسياً واجتماعياً ووطنياً . وقد علمنا أنه كان من جماعة اليد السوداء الفدائية ، والتى قامت بالأعمال الخارقة ضد المستعمرين وأعوانهم من الخونة .

ولجنة تحرير المجلة كانت تضم طلبة من مختلف النوعيات ومن مختلف الاحزاب ، وكان هناك الوفدى المتطرف مثل عبد الملك هاشم الكبير ومن الحزب الوطنى محمد فريد ابو العز (دكتور صيدلى صاحب اجزاخانات بقصر العينى والهرم والمعادى) وفؤاد اسماعيل (الشاعر) والذى كان بلا لون حزبى وعبد الودود رياض (القاضى الآن) وعبد الرحمن الشرقاوى (الشاعر والكاتب الصحفى الآن) .

أما الأستاذ محمد ابراهيم استاذ مادة التاريخ (وقد حصل بعد ذلك على الدكتوراه وعمل أستاذاً لمادة التاريخ بآداب القاهرة) فقد كان موسوعة تاريخية عناصرها الأساسية الأمانة والصدق والحق . وقد سعدت بالتلمذة على يديه فى السنه الثالثة الثانوية وكان يدرس لنا مادة التاريخ المصرى الحديث وكان ينتهى باسرع ما يمكن فى حصصه من الدرس المقرر . ثم يغلق دفتره ويبدأ فى شرح الحقيقة ويشجعنا على اقتناء واستعارة المراجع التاريخية التى منها يمكن أن نصل إلى الحقيقة وذلك من مكتبة المدرسة أو من دار الكتب .

الاشتراك فى أول عمل وطنى

كان ذلك فى عام ١٩٣٥ . وكنت فى السنة الثانية الثانوية بالمدرسة

الخديوية . كان ذلك أثناء وزارة توفيق نسيم باشا حيث كان قد وعد بإلغاء دستور ١٩٣٠ المكروه من الشعب وكان هذا الدستور من بنات افكار اسماعيل صدقي السياسى الداهية ورجل الملك . وعد نسيم باشا الشعب بأنه سيستبدل دستور سنة ١٩٣٠ بعودة العمل بدستور ١٩٢٣ المؤيد من الشعب لأنه يحد من سلطات الملك . فى ذلك الوقت صدر مرسوم ملكى يقضى بإلغاء دستور ١٩٣٠ وأن يتولى الملك بواسطة وزرائه سائر سلطات البرلمان . فى نفس الوقت اشيع أن وزارة نسيم تنوى وضع دستور جديد وسط بين دستورى ١٩٢٣ ، ١٩٣٠ فى الوقت الذى أعلنت فيه بريطانيا أنها غير راضية عن دستور ١٩٢٣ وكذلك دستور ١٩٣٠ نفسه وإزاء هذا التصريح والأعلان البريطانى تكهرب الجو الشعبى ، وخرجت الجماهير ومعها الطلبة من جميع انحاء مصر فى مظاهرات صاخبة . واشتركت مع طلبة المدرسة الخديوية فى تلك المظاهرات واتجهنا مع جموع غفيرة من الشعب وطلبة المدارس الأخرى والجامعات إلى منزل نسيم باشا بالحلمية الجديدة نهتف بسقوط نسيم باشا « يسقط نسيم أبو عقل تخين » . كان هذا بمثابة أول مشاركة لى فى عمل وطنى سياسى أمارسه فى حياتى بعد أن تفهمت أبعاده ، وكان باختصار شديد هو المطالبة بإعادة حكم البلاد دستورياً بدستور سنة ١٩٢٣ الذى يحقق شيئاً من الحرية للشعب ويحد بعض الشىء أيضاً من سلطات الملك .

وفى اليوم التالى للمظاهرات توجهت مع طلبة المدرسة الخديوية فى مظاهرة إلى الجامعة (جامعة فؤاد الأول) وتدخل البوليس فى فض هذه المظاهرة وحدثت مصادمات كان من أبرزها أن قتل البوليس أحد الطلبة على كوبرى عباس بعد أن حاصرته قوات الأمن ، كنت أثناء ذلك بجوار زميل الدراسة محمد على النقادى (مستشار بالقضاء حالياً بالمعاش) وكان

يرتدى نظارة لا يمكن السير بدونها وأثناء اشتباكات البوليس وقع على الأرض وأصيب فى وجهه ، وكسرت نظارته وأصبح غير قادر على السير . سحبته أثناء تصاعد المصادمات جانباً إلى أن هدأت الحال وعدت به إلى منزله . كانت نتيجة هذه المظاهرات التى اشتركت فيها لأول مرة فى حياتى . أن اضطرت حكومة بريطانيا إلى إيقاف اعتراضها على إعادة دستور ١٩٢٣ وذلك فى عام ١٩٣٥ وصدر مرسوم ملكى ينص على أعادة العمل بالدستور .

الرجوع إلى التاريخ القريب

فى اجازة صيف ١٩٣٦ ، وبعد وقوفى على العمل الوطنى الذى نجح فى اعادة دستور سنة ١٩٢٣ وكان نتيجة سقوط وزارة نسيم وتشكيل وزارة على ماهر الذى مهد لتكوين جبهة وطنية للمطالبة بالجلاء ، وجدت نفسى متعطشاً لدراسة تاريخ هذا الاستعمار البريطانى فى مصر والسودان بعد هزيمة عرابى وعودة الخديوى توفيق الخائن للسيطرة مع الانجليز على مقدرات هذا الشعب . وحيث ان جميع المراجع والكتب التاريخية المدرسية المتاحة لى ولجيلى فى ذاك الوقت لم أجد فيها المادة المتكاملة والكافية لهذه الدراسة ، فقد بدأت فى الاستعانة بكثير من المراجع التاريخية ولجأت إلى خالى المحامى احمد يحيى راشد الذى سبق وشارك فى ثورة ١٩١٩ وبعض الاقارب . هذه المعلومات التاريخية كنا نفتقر لها أنا وجيلى كله . وبدأت فى التقصى والاطلاع والمراجعة وأخذت أدون لنفسى مذكرات خاصة منذ تولى الخديوى عباس حلمى ولاية مصر حتى يمكننى فهم كل ما يجرى من أحداث أثناء فترة المفاوضات وبالذات لأفهم على ماذا سيتفاوض المصريون مع الانجليز ولقد تعمدت أن تتناول مذكراتى هذه الفترة لأن معظم جيلنا والأجيال الحاضرة تفتقر جميعاً لهذا الجانب من تاريخ بلادنا .

الأمل يتجدد

فى أخر عام ١٩٣٦ اعتلى ملك شاب العرش وكل الشعب أمل فيه ، وحصلت البلاد على دستور ١٩٢٣ الذى جاء ببرلمان منتخب افرز حكومة قومية متعاونة مع باقى الأحزاب ، وبتضامنهم أمكن إبرام معاهدة ٣٦ وألغيت الامتيازات الأجنبية البغيضة ، والنحاس على رأس حكومة متمسكة باحترام الدستور ، وانتهى تحكم المندوب السامى ، وتغير اللقب إلى سفير من المفروض أنه ليس له أى حقوق للتدخل فى شئون السياسة الداخلية فى البلاد . يتوج هذا الأمل النحاس باشا رئيس الوفد بموقفه المتشدد مع رجال القصر الملكى احتراماً للدستور عندما اصر بإيعاز من رجال القصر عند تتويج الملك بعد بلوغه سن الرشد سنة ١٩٣٧ أن يقسم اليمين دستورياً أمام البرلمان وليس فى احتفال دينى فى الأزهر كما كان يريد رجال القصر . لكل ذلك وفى سنة ١٩٣٧ كنا كشباب يملؤنا الفخر والأمل فى مصر ، ورجال مصر ولكن كثيراً ما « تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن » فقد بدأ رجال القصر يستعدون الملك الشاب قليل الخبرة على الأحزاب وعلى التدخل فى شئون الحكم متجاوزاً سلطاته الدستورية . كما بدأ السفير البريطانى يعاود تدخله فى الحكم خصوصاً عندما شعر بأن الحكومات لم تكن قد تخلت عن عقدة المندوب السامى وكذلك بدأت الجبهة الوطنية (التى كان لها الفضل فى الحصول على معاهدة ١٩٣٦) تتفكك وأصبح التناحر والصراع والخلاف هو الجو السائد بين الأحزاب .

وزاد الطين بلة أن حزب الوفد نفسه ــ حزب الأغلبية ــ أخذ يتحلل من الداخل بخروج أعضائه المؤسسين الواحد بعد الآخر .

الصدمة

بناء على ما غرسه فى جيلنا الآباء والمدرسون الأفاضل ما كنا نتصور أن هناك مصرياً متمسكاً بدينه ووطنه يرضى بالخنوع والعبودية لا للأجنبى ولا لحاكم فما بالك بالحكام الذين كنا نتأمل صورهم المنشورة فى الصحف والمجلات وعليهم سمات الرجولة والعزم ثم نصدم فيهم عندما نقرأ فى الصحف مدى ما يرتكبون فى حق بلادهم . وبعد زيادة وعينا واطلاعنا على مدى تمسح الوزراء ورؤساء الوزارات وبناء على ماكنا نطلع عليه فى الصحف عن تدخل السفير البريطانى فى شئون البلاد ضارباً عرض الحائط بسلطات الملك أو الحكومة أو حتى البرلمان ومدى استهتار رجال القصر بالدستور واستعداء الملك على الدستور كنا نصدم بهذه المواقف وهذه الصور المزيفة ، كل ذلك جعلنى أثور بينى وبين نفسى ومعى جيلى بأكمله على هذه الأوضاع المقلوبة وأخذت أدونها بمذكراتى أولاً بأول وهى تقريباً الأسباب الرئيسية ليس بالنسبة لى شخصياً ولكن بالنسبة للشعب المصرى الذى كان مثلى يثور فيما بينه وبين نفسه على هذه الأوضاع . وفى خضم هذه الأفكار المتناقضة وغير الودية الأبعاد كثيراً ما فكرت بعهد اشتراكى فى أول مظاهرة سياسية وأحجمت عن الانضمام إلى حزب الوفد وهو الحزب الذى كانت تستهوينى تصرفاته ومواقفه الشجاعة والوطنية . إلى أن جاء عام ١٩٣٧ وكان الوفد بالحكم والنحاس باشا رئيساً للوزراء . وتناولت الصحف بالتفصيل قضية نزاهة الحكم فى موضوع مشروع كهربة خزان اسوان . وحدث خلاف داخل حزب الوفد حول التصديق لشركة بريطانية بالاتفاق المباشر ، وليس بالمناقصة للقيام بتنفيذ المشروع ، وكانت نظير سبعة ملايين جنيه وكانت أغلب الشركات العالمية الأخرى تعرض تنفيذ المشروع بخمسة ملايين جنيه فقط . وقام الوزير الوفدى محمود غالب بالنشر

فى الصحف عن هذه الملابسات والخلافات وأيده النقراشى باشا فى ذلك وهو أيضاً كان أحد الوزراء الوفديين ومن التنظيم السرى الوطنى (اليد السوداء) ، وعند إعادة تشكيل وزارة النحاس باشا ، استبعدت النقراشى ومحمود غالب من التشكيل الوزارى الجديد . واستمر محمود غالب باشا فى النشر عن هذا المشروع متهماً الوزير الوفدى المختص بالمشروع عثمان محرم باشا بعدم النزاهة . وصدر قرار حزب الوفد بطرد النقراشى ومحمود غالب . كان أحمد ماهر زميل الكفاح مع النقراشى وصديقه رئيساً لمجلس النواب وجاء رأيه مطابقاً لرأى النقراشى ومحمود غالب . وطالب بضرورة عرض مشروع كهربة خزان اسوان فى مناقصة عالمية عامة ، ولم توافق وزارة النحاس باشا على ذلك وصدر قرار بطرده هو الآخر .

وبخروج هؤلاء الثلاثة من حزب الوفد كونوا حزباً جديداً اسموه الحزب السعدى وكنت فى هذه السن متأثراً بدور كل من أحمد ماهر والنقراشى لاشتراكهما فى عصابة اليد السوداء ذات الأعمال الخارقة فى الكفاح الوطنى وبعد اطلاعى فى الجرائد اليومية على مدى الفساد الذى أخذ يتضخم فى صفوف المستوزرين من حزب الوفد وكنت فى حيرة من الرأى من ناحية الانضمام لأحد الأحزاب فقد ذهبت إلى دار الحزب السعدى ، وانضممت إلى لجنة طلبة المدارس الثانوية بالحزب وأخذت فى تكوين لجنة بالمدرسة ولكنها كانت عددياً وجسمانياً اضعف من لجنة طلبة الوفد . وكثيراً ما جر على هذا الانضمام التعرض للاعتداء على أثناء المظاهرات ، واثناء النقاش بحوش المدرسة .

تأملات فيما كان يجرى حولنا سنة ٣٧ - ١٩٣٨

فى ذلك العام كنت بالرابعة (شهادة الثقافة العامة) وكنت أقضى معظم وقت فراغى من المذاكرة إما فى لعبتى المفضلة (المبارزة) أو فى النشاط

أو فى دار الحزب السياسى ، فأجتمع مع لجنة الطلبة السعديين بالمدرسة . وكنا نتناقش على ضوء ما نقرأه فى الصحف الحكومية والمعارضة الأوضاع السياسية فى هذه الفترة ، وبخروج أحمد ماهر والنقراشى من الوفد كانت صحيفة « البلاغ » قد انقلبت إلى جريدة معارضة للوفد ، وكان صاحبها عبد القادر حمزة وكان ابنه فؤاد حمزة زميل دراسة بالخديوية . وكثيراً ما كانت صحيفة « البلاغ » والوفد فى الحكم تهاجم حكومة الوفد وحزب الوفد وكثيراً ما كانت الحكومة تصادرها . وقانون الصحافة فى ذلك الوقت كان يقضى بمصادرة العدد المنشور به الموضوع الذى يزعج الحكومة ، وكذلك يتعرض المسئول عن التحرير للتحقيق فى النيابة فإذا وجدت النيابة فى العدد ما يستحق تقديمه للقضاء صودر العدد فقط ويسمح للجريدة باستئناف الصدور بحكم القانون . وقد قدم رئيس التحرير للمحاكمة ولكن غالباً ما كانت النيابة تفرج عن الأعداد المصادرة . وتفرج عن رئيس التحرير فى معظم الأحوال . وفى النادر كان يحول رئيس التحرير للقضاء . ولم أعاصر أى حكم ضد أى رئيس تحرير أبداً بل كان يحكم له بالبراءة لأن ما ينشر ليس فيه ما يخالف القانون ، ولكنه كان نقداً موجهاً إلى رجال سياسة يعملون فى الخدمة العامة ويجب مساءلة ونقد العمل العام بحكم الدستور الذى يؤكد على الحرية . وما كان يحدث للبلاغ كان يحدث لصحف الوفد عندما تكون خارج الحكم . كل هذه التصرفات البسيطة فى مظهرها والعظيمة فى معناها كانت الشغل الشاغل لعقولنا المتفتحة بالأمل . وكان شعورنا كله تقديراً لجمال وعظمة الحرية وكان ذلك مما يجدد فينا الأمل تحت ظل الحياة الدستوريه والتى من أهم معالمها احترام القانون من الحاكم والحكومة . وكان يعكر صفو هذا الجو المملوء بالأمل أحزاب الأغلبية سواء الحقيقية أو المزيفة عندما تكون فى الحكم والتى كثيراً ما كانت تنتهز حصولها على

الأغلبية البرلمانية فتمارس الحكم الاستبدادي وتنفرد بالسلطة دون مراعاة لقانون أو لدستور البلاد مطمئنة للأغلبية البرلمانية . حتى إذا كانت هناك أصوات معارضة في البرلمان أو اقترعت ضد الحكومة فإن هذه المعارضة تخرسها الأغلبية خصوصاً بعد أخذ الاصوات وكان الشعب المصري هو الضحية رغم أنه هو الذى كان يعطيهم اصواته . الشعب كان مقهوراً بحكوماته واحزابه بعد أن كان مقهوراً بالقصر والمعتمد البريطاني فقط وهذا كان من سخرية القدر بهذه الأمة .

ما بعد التوجيهية

بعد أن نجحت في امتحان اتمام الشهادة الثانوية وكان يطلق عليها « شهادة التوجيهية » قسم علمي سنة ١٩٣٩ وأثناء أجازة الصيف أعلنت الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ وقدمت أوراقي للالتحاق بالكلية الحربية ، وفي نفس الوقت تقدمت أيضاً للالتحاق بكلية الحقوق جامعة فؤاد (القاهرة) حتى إذا لم أقبل بالكلية الحربية « والتي يحتاج دخولها إلى واسطة في الغالب والتي ابتليت بها بلادنا حتى ذلك الوقت » كنت سأستمر في الدراسة بكلية الحقوق لأنني دائماً كنت أتوق لدراسة القانون وما حوله من دراسات إنسانية ، كنت قد مهدت نفسي لها من واقع ممارساتي في العمل السياسي وأنا طالب بالثانوى . ولكني اخترت الكلية الحربية على أساس أنه يمكنني بعد التخرج منها أن التحق بالانتساب إلى كلية الحقوق وهذا ما حدث فعلاً . واخترت الالتحاق بالكلية الحربية بعد مناقشة ومراجعة للنفس سواء عن اقتناع كامل بها . أو عن بعض الاقتناع ولكن كانت هناك عدة أسباب عن تفضيلي الكلية الحربية ، وهي :

(١) استهوائي لدور ضباط الجيش المصري الأبطال في ثورة عرابي سياسياً وعسكرياً .

(٢) اقتناعى بأن أى تنظيم عسكرى سياسى عادة لا تنفجر بداخله بذور الخلاف والشقاق بعكس التنظيمات السياسية المدنية التى كانت الثورات تشتعل على أيديها ولكن سرعان ما تنطفىء شعلتها من كثرة الخلافات فيما بينها .

(٣) بعد دراساتى عن الجندى المصرى والضباط المصريين الذين اعتمد عليهم محمد على فى خروجه وفتوحاته وحقق بهم المعجزات بمقاييس عصره .

(٤) اعتقادى الكامل بأن أشرف ما يصبو إليه الإنسان المصرى هو الدفاع عن وطنه وشعبه . ولا يمكن أن يتحقق هذا الكفاح ضد المحتل إلا عن طريق الانخراط فى الجيش .

(٥) اقتناعى بأن الضابط خريج الكلية الحربية بما يحصل عليه من ثقافة عامة مدنية وعسكرية تمكنه من مواصلة الطريق فى ميادين العلم والمعرفة والثقافة بمدوامة الاطلاع . أو بالالتحاق فيما بعد بالكليات النظرية أو الدراسة من المنازل

(٦) بعد معاهدة ١٩٣٦ . أعيد تنظيم الجيش المصرى ، (الكلية الحربية) على أحدث تنظيم . ولكن الفضل الأكبر فى ذلك لعزيز المصرى باشا رئيس أركان حرب الجيش . بالإضافة إلى تشجيع بريطانيا لذلك التطوير . أملاً فى استخدام الجيش لخدمة أغراضها ، خاصة بعد أن أطلت نذر الحرب العالمية الثانية .

فى كلية الحقوق

قبلت فى كلية الحقوق . وانتظاراً للكشف الطبى ، وكشف الهيئه (الواسطة) فى الكلية الحربية . لم أضيع الوقت ، وانتظمت فى دراسة الحقوق بالجامعة . ومكثت بها أتلقى العلم لمدة ثلاثة شهور ، كانت من

أمتع فترات حياتى ، حيث شعرت من المحاضرات التى كنا نحضرها أنها فعلاً مدرسة الحياة ، وكان أساتذتنا نخبة من العلماء الوطنيين المتخصصين فى موادهم منهم الدكتور وايت ابراهيم والدكتور عبدالمنعم بدر والدكتور حشمت أبو ستيت والشيخ محمد أبوزهرة أستاذ مادة الشريعة .
استهوتنى جداً مادة الدستور ، وكان أستاذها يقف عند كل مادة بدستور سنة ١٩٢٣ ، ويتلو علينا من واقع محاضر جلسات اللجنة التى وضعت الدستور اراء أعضاء هذه اللجنة في كل مادة ، ثم يأخذ فى التعليق والنقد المتعمق .
وخرجت بنتيجة أثناء هذه الدراسة الممتعة فى المدة القصيرة التى أمضيتها فى كلية الحقوق أنه لإيجاد حكم متوازن فى بلد ما يجب أن يحقق دستورها التوازن الكامل بين السلطات وأن تحترم كل سلطة اختصاصات السلطات الأخرى .

فى الكلية الحربية

فى نوفمبر سنة ١٩٣٩ قبلت فى الكلية الحربية ، وتركت الدراسة فى كليه الحقوق . درست مع دفعتى فى الكلية الحربية لمدة ثلاث سنوات كاملة وتعتبر الدفعة الوحيدة التى استكملت برنامج الدراسة المدنية والعسكرية المقررة فى هذه الكلية . وهذه الدراسة طبقاً للنظم الحديثة تعتبر كافية ، وعلى جانب من الأهمية للتخرج . وتخلل فترة الثلاث سنوات أحداث هامة منها :

(١) استبعاد عزيز المصرى من رئاسة أركان الجيش المصرى كطلب السفير البريطانى بحجة أنه كان يروج الدعاية للألمان . وما طل على ماهر رئيس الوزراء فى طلب السفير البريطانى باستبعاده ، وأحاله إلى حسين سرى باشا . وكان لعزيز المصرى باشا سمعة طيبة سياسياً وعسكرياً ، ورغم عدم اطمئنان الانجليز له فقد كانوا يعتبرونه من

اكفأ العسكريين فى العالم .

(٢) حادثة محاولة هروب عزيز المصرى إلى المانيا فى مايو سنة ١٩٤١ ، وكنت بالقسم المتوسط بالكلية الحربية وقد قام بها عزيز المصرى بالاتفاق مع الطيار حسين ذو الفقار صبرى والطيار عبد المنعم عبد الرؤوف (يمت لى بصلة القرابة) فى محاولة للإستيلاء على طائرة عسكرية والهروب بها إلى المانيا . ولخلل فى مفتاح بنزين الطائرة هبطوا بها اضطرارياً فى حقل فى « قليوب » . وتمكن الثلاثة من الوصول إلى مشارف القاهرة بعربة بوليس استعارها عزيز المصرى من احدى نقط الشرطة بالقليوبية بحجة أن سيارته تعطلت ، وكان ضابط البوليس ممن تخرجوا على يديه عندما كان مديراً لكلية البوليس . واختفوا فى منزل الفنان عبد القادر رزق (أصبح عميداً لكلية الفنون بعد ذلك) فى امبابة وكان من اعضاء حزب مصر الفتاه . ومن المعجبين بشخصية عزيز المصرى . وفى النهاية قبض عليهم رجل القلم السياسى المشهور إمام ابراهيم ، وقدموا إلى المحاكمة العسكرية . وجهزت قاعة الألعاب الرياضية بالكلية الحربية لهذه المحاكمة . وكنا ونحن طلبة بالكلية الحربية نشاهد الجموع العسكرية والمدنية التى تحضر هذه المحاكمة ، وكلنا إعجاب بهذه المغامرة الوطنية المثيرة . ولم تتم محاكمتهم للنهاية حيث دفع محاميهم المرحوم حماده الناحل المحامى الشهير بعدم دستورية قانون الأحكام العسكرية الذى يحاكمون بموجبه لأنه قانون كان قد وضعه الانجليز ولم يتم تصديق البرلمان المصرى عليه . وقمت فى أحد أيام أجازتى الأسبوعية بزيارة قريبى المعتقل الطيار عبد المنعم عبد الرؤوف فى مكان التحفظ بسكنات الجيش فى منشية البكرى ووقفت منه على ملابسات عملية الهروب .

وعلمت منــه أن عزيز المصـرى باشا بعـد فشـل حركـة رشـيد عالى الكيلانى فى العـراق . وعدم مسـاعدة الالمـان له فى الوقت المنـاسـب اعتـزم أن يذهب بنفسـه إلى الألمـان للاتفاق معهم على القيـام بحركة مماثلة ضـد الانجليز فى مصـر لتحقيق الاسـتقلال على شـرط أن تمده ألمـانيا بما يطلبـه من أسـلحة وألا يتخلوا عنه كما تخلوا عن رشـيد عالي الكيلانى فى العـراق . وأيامها ، ولأسـباب غير معروفة لى تم فصـل الطـالب يوسـف أدهم من دفعتى من الكـلية الحربية وقيل إنه كان على اتصـال بعزيز المصـرى أيضـاً . وبعد توقف المحـاكمة العسـكرية وعدم ثبوت تهمة الخيـانة من تحقيق النيـابة العـامة أفرج عنهم . ولم يسـكت السـفير البريطانى على ذلك ، بل طلب من الحكومة المصـرية اعتقـال عزيز المصـرى واعتقـل بالفعل فى ١٣ أغسـطس سنة ١٩٤٢ واسـتمر معتقـلاً لمدة عامـين وثلاثة أشـهر وكان الاعتقال عقب قضـية العوامة المشـهورة بقضـية الراقصـة حكمت فهمى والجاسـوس الألمـانى « أدلر » Adler أو حسـين جعفر وهو أسـمه المصـرى والتى حوكم فيها أيضـاً أنور السـادات .

(٣) حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وقد تم وأنا طالب بالسـنة النهـائية بالكـلية الحـربية وكان له وقع أليم فى نفوسـنا كطلبة عسـكريين مصـريين على وشـك التخرج للعمـل كضـباط بالجيش لتوكل الينـا مهمة الدفاع عن شـرف بلادنا . وقد اعتبرنا هذا الحـادث طعنه موجهة إلى شـرف مصـر من مسـتعمر غاصـب لا يحمل أى شـعور احترام أو تقدير لحـليفته مصـر المـرتبط معها بمعاهدة مفروض منها الاحترام المتبـادل بين الدولتين

الخـدمة بالجيـش والأحـداث

ويقترب شـهر مايو سنة ١٩٤٢ ويتم تخرجى من الكـلية الحربية وأعين

ضابطاً صغيراً (ملازم ثان) بالكتيبة الرابعة مشاة بالقنال ورئاستها بالقنطرة غرب . وذلك بعد الاحداث المهينة والمؤلمة فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

وتتوالى الأحداث السياسية إذ يخضع النحاس باشا رئيس الوفد ورئيس الحكومة . وتحت ظل اعلان الاحكام العرفية ، لمشيئة وتصرفات السفير البريطانى (لورد كيلرن) خضوعاً كاملاً ويستبد بالوطنيين المعارضين له ويجرى عملية اعتقالات بالجملة لجميع الشرفاء بحجة مقاومتهم مع الألمان أو لمجرد الاشتباه فى موقفهم المعادى للانجليز ، وأحياناً بلا أسباب سواء استجابة للسفير أو استجابة لأهوائه السياسية . وكان على رأس من اعتقلهم على ماهر باشا وعزيز المصرى باشا . وبنفس القدر من التساهل يتراجع عن تشدده مع القصر وتهاون فى حقوقه الدستوريه مع رجال القصر وأعطى الملك حقوقاً مخالفة للدستور . وفتح شهيته للتدخل . كل ذلك جرى ، وظن الساسة والزعماء أن كل هذه الأمور خافية على الشعب ولكنها على الأقل كانت تصلنا كضباط شبان يمثلون شريحة واعية من شرائح الشعب . مثل تلك الأحوال وتأملها كانت الدافع لجيلى والمعاصرين لهذه الأحداث للتصرف الواجب وقت الضرورة وليس أدل على ذلك من أننا ونحن مجموعة كبيرة من الضباط الصغار بالكتيبة الرابعة مشاة جمعنا أركان حرب الكتيبة الشاب فى أحد ليالى يوليو سنة ١٩٤٢ ، فى وقت راحتنا جميعاً ، وفى غير أوقات العمل ، داخل ميس الضباط وأبلغنا بأن القوات الألمانية وصلت إلى منطقة العلمين على مقربة من الاسكندرية بقيادة « روميل » وأن موقف الجيش الانجليزى فى غاية السوء ، وأنه علم أن خطة البريطانيين أنه فى حالة تدهور الموقف العسكرى أكثر من ذلك سوف ينسحبون من مصر إلى فلسطين وإلى الهند ، ولتغطية الانسحاب كانت الخطة تقضى بإغراق مديرية البحيرة وتدمير معظم الكبارى والجسور — وكل آبار البترول فى مصر — وأن

هذه الخطة تسربت أخبارها حيث أنهم حاولوا الاتصال بقادة الجيش المصرى الكبار لمعاونة الجيش البريطانى فى هذه العملية . ولكن كانت هناك مقاومة لهذه الخطة على مستوى الحكومة . وأن البريطانيين إذا تردت حالتهم العسكرية سوءا فى « العلمين » ، سوف لا يقيمون لرأى المصريين أى وزن وذلك فى سبيل حماية خطوط انسحابهم بتنفيذ خطة التدمير التى شرحها لنا أركان حرب الكتيبة الملازم أول يوسف حسن محمد - وفى الحال بعد أن سمعنا هذه الأنباء الخطيرة ودون أن ننتظر لأخذ الرأى ، أقسمنا جميعاً على أننا سنقف فى وجه الجيش البريطانى فى هذا الأمر وسوف لا نسمح أبداً بتخريب بلادنا .

وكانت خطة الضباط الوطنيين أنه فى حالة هزيمة الجيش البريطانى فى « العلمين » سوف نتحرك بكتائبنا وجنودنا وأسلحتنا ودون انتظار أوامر إلى الأهداف الحيوية فى البلاد لنحميها من تخريب الجيش البريطانى .

أول تنظيم وطنى للضباط

تكون أول تنظيم وطنى للضباط ثم أصدر الملك فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ خطاب إقالة مهين للنحاس باشا . وتوالت الأحداث والتغييرات الوزارية والاغتيالات السياسة إلى سنة ١٩٤٦ وهو ميعاد تكوين أول تنظيم أو تجمع سرى وطنى للضباط الشبان الساخطين على الانجليز وعلى أحوال البلاد وعلى بعض الزعماء والقصر خصوصاً بعد أن تمادى الملك فى فساده وإحكام قبضته واعتداءاته على الدستور .

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٤ بعد إقالة النحاس باشا كلف الملك فاروق الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس الحزب السعدى بتأليف الوزراة وأجريت الانتخابات وقاطعها حزب الوفد وجاءت الانتخابات بأغلبية من السعديين والاحرار الدستوريين والكتله الوفدية (حزب مكرم عبيد) .

وفى أخر سنة ١٩٤٥ تم اغتيال أحمد ماهر عقب خروجه من قاعة البرلمان بعد إعلانه الحرب على المحور .

وفى أول عام ١٩٣٦ ألف محمود فهمى النقراشى الوزارة .

وفى نفس العام اغتيل وسيط النحاس باشا بالإنجليز والسفير البريطانى أمين عثمان باشا وأيضا فى نفس العام ، قامت المظاهرات الوفدية لمطالبة النقراشى بالاستقالة وبجلاء الانجليز نهائياً .

وفى فبراير سنة ١٩٤٦ طلب السفير البريطانى من الملك أن يقيل وزارة النقراشى ، واستجاب الملك لذلك .

وفى فبراير سنة ١٩٤٦ ألف اسماعيل صدقى الوزارة . بعد شهرين فقط من تولى وزارة النقراشى واشترك الأحرار الدستوريون فى الوزارة الجديدة .

فى نفس عام ١٩٤٦ حاول صدقى باشا التفاوض مع الانجليز وفشل ، ثم عاود المحاولة ، وتوصل مع بريطانيا إلى مشروع مفاوضة أطلق عليه « مشروع صدقى بيفن » ، وبموجب هذا المشروع وضعت مصر فى دائرة الأحلاف العسكرية الغربية ، وعارضت جميع الأحزاب والشعب هذا المشروع ، وقامت المظاهرات الصاخبة لتفضح هذا المشروع وزاد عنف الحكومة ، وزاد معها عنف المظاهرات .

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٦ استقال اسماعيل صدقى من الوزارة .

وفى أول يناير سنة ١٩٤٦ ألف النقراشى باشا الوزارة للمرة الثانية من حزبى السعديين والاحرار الدستوريين، وبدأ فوراً فى الاتصال بالانجليز

للتفاوض وفشلت المحاولة ، وبعد فشلها سنة ١٩٤٧ سافر النقراشى باشا إلى الأمم المتحدة لعرض قضية استقلال مصر وجلاء البريطانين على مجلس الأمن وكان هذا متزامناً للوقت الذى كانت تعرض فيه قضية فلسطين فى مجلس الأمن . ولم يتوصل النقراشى فى مجلس الأمن إلى نتيجة نظراً لسيطرة الدول الكبرى على المنظمات الدولية .

وفى هذا الوقت بالذات بدأ التنظيم الوطنى للضباط ينمو ويتماسك بعض الشىء وبدأت ملامحه فى اذهاننا وجلساتنا ومناقشاتنا تتضح .

السخط والتبرم يولد التجمع

عادت الامبراطورة فوزية شقيقة الملك فاروق وزوجة شاه ايران إلى البلاد ، تصحبها شائعة الخلاف مع الشاه . كانت ستصل بالطائرة إلى مصيف الاسرة بالاسكندرية ، لتهبط بها فى مطار النزهة فى أحد أيام شهر يونيو شديدة الحرارة . وخرجت كتائب من حامية الاسكندرية ومن ضمنها كتيبتى الرابعة لتصطف على جانبى الطريق من مطار النزهة حتى القصر . وطال انتظارنا للموكب ، ثم أبلغنا أن الطائرة ستتأخر عدة ساعات أخرى . وعلينا أن ننتظر وقوفاً . أثارنا انتظارنا الطويل المهين كضباط . حتى يحين موعد وصول الطائرة ، وتجمع لفيف من الضباط الشبان ، وكنت معهم وأخذ كل منا يعبر عن سخطه على هذه المهانة وكان تعليقنا أن الجيش لم يشكل لمثل هذه المهام المهينة ، وإنما عليه أن يقوم بواجبه الأول من تدريب ومناورات واستعداد ليوم الذود عن الوطن وعندما طال الانتظار امتد الحديث وتناول ما نقاسيه ويقاسيه الشعب من المستعمر ومن الحكام وكان معى من الكتيبة زميلى ودفعتى سيد جاد عبد الله سالم ولفيف آخر من مختلف الوحدات .

لم ينته هذا الاجتماع الواقف إلا ونحن على ميعاد آخر للحديث فى مثل هذه الأمور .

تم الاتفاق فى الحال على بدء اجتماعاتنا وكان الاجتماع الأول فى منزلى ٦ شارع البرمونى بعابدين ، فى غرفة فسيحة أعلى المنزل ، وتوالت الاجتماعات وتنوعت الأحاديث الوطنية . واتسعت حلقة التنظيم حيث كنا نحضر فى كل اجتماع وبرفقة كل واحد عدد قليل من الضباط الوطنيين الموثوق بهم . بعد جس نبضهم ، ثم وضعنا دستوراً لهذا التنظيم بعد فترة لاحقة بألا ينضم أى ضابط له بعد أخذ الأراء عليه قبل حضوره . وكنا نتناول فى هذه الاجتماعات شبه السرية مآخذ الشعب على الملك ورجال القصر ، وعلى الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة والبرلمان ومواقفهم وتجاوزاتهم وتوصيل هذه المعلومات التى لا تنشر فى الصحف عن هذه المآخذ .

وتوالت الاجتماعات فى منزلى وفى منزل ضابط الفرسان « مصطفى نصير » بالسيدة زينب وبعد أكثر من خمسة اجتماعات كانت صورة هذا التنظيم كالآتى :

عن الفرسان « دون ذكر الرتب » السادة :

١ - مصطفى عبد المجيد نصير . ٢ - عبد الحميد عبد السلام كفافى . ٣ - محمد حلمى إبراهيم . ٤ - جمال منصور . ٥ - محمد سعد الدين عبد الحفيظ . ٦ - عبد السلام فريد . ٧ - رضا صابر صبرى . ٨ - سعد حنفى حسن . ٩ - عبد الرحمن فهمى . ١٠ - مصطفى كمال صدقى .

عن المدفعية « دون ذكر الرتب » السادة :

١ - محسن عبد الخالق السيد . ٢ - فتح الله رفعت فتح الله . ٣ - رشاد مهنا . ٤ - محمد كمال عبد الحميد . ٥ - سعد زايد . ٦ - محمد أبو الفضل الجيزاوى . ٧ - مدحت فهمى . ٨ - على حسن مصطفى . ٩ - محمد أحمد حسن . ١٠ - أمين مظهر . ١١ - زكى منصور . ١٢ - محمد أبو اليسر الأنصارى . ١٣ - أنور الصبحى . ١٤ - فؤاد مجدى .

عن الإشارة « دون ذكر الرتب » السادة :

١ - محمد عبد العزيز الألفى . ٢ - عبد الله أباظة . ٣ - أحمد عبد الدايم . ٤ - شريف أباظة .

عن المشاة « دون ذكر الرتب » السادة :

١ - محمد محمد على بدران . ٢ - عبد الرحمن مخيون . ٣ - محمد عبد الفتاح أبو الفضل . ٤ - عباس عبد الوهاب رضوان . ٥ - إبراهيم بغدادى . ٦ - محمد هاشم حسين . ٧ - رياض مصطفى سامى . ٨ - محمد محمد أبو شهبة . ٩ - السيد جاد عبد الله سالم . ١٠ - محمد نيازى . ١١ - حسين عبد القادر . ١٢ - فوزى عبد العظيم . ١٣ - حسن عبد السلام القويسنى . ١٤ - حسن التهامى . ١٥ - أحمد عبد الله طعيمة .

سلاح خدمة الجيش « دون ذكر الرتب » السيد :

١ - حسنين حسنى عبد المجيد .

المهمات « دون ذكر الرتبة » السيد :

١ - هاشـم سعيد العربى .

البحرية « دون ذكر الرتبة » السـيد :

١ - رجب فهمى .

الطيران « دون ذكر الرتب » السـادة :

١ - عبـد المحسـن أحمد صـالح الوسيمى . ٢ - محمد فكرى زاهر .
٣ - عز الـدين العيـادى . ٤ - مختـار سعيد . ٥ - أحمـد شكـرى .
٦ - عهدى خيرت . ٧ - طلعت ناجى . ٨ - عبد الكريم محرم .

وكان التكـليف الرئيسى فى بداية تكوين هذا التنظيم هو تجمع أكبر عدد ممكن من الضبـاط ، والتفكير فى عمل شـعبى حتى لا تتسـع الاجتماعات وينكشـف أمرنا من البداية ، وكانت تجمع اشـتراكات تستخدم فى مسـاعدة هذه الحركة عند اللزوم . وكان أول عمل استخدمنا فيه جزءاً من حصـيلة الاشـتراكـات سنة ١٩٤٧ هو إرسـال تلغراف باسـم ضـباط الجيش لتـأييد رئيس الوزراء النقراشى باشـا فى عرضـه لقضـية مصـر فى مجلس الأمن قبل سفـره .

وقـد حدث نقـاش حول تحديد هدف التنـظيم ، وهـو التخـلص من الاسـتعمار - ثم اخذنا فى مناقشـة وسـائل تحقيق هذا الهدف - وطال النقـاش فى تحديد الوسـائل (وهى بوجه عام التخـلص من معوقات تحقيق هذا الهدف) واختلفنـا فى ذلك اختلافاً نظراً لتعدد ميولنـا السـياسـة والعقائديه ، وأرجأنا البحث فيها إلى مرحلة أخرى (رغم أن كل منا كان يعرف هذه الوسـائل ، فكان هناك ملك فاسـد وحاشـية انتهازية وأحزاب لا يهمها إلا شـهوة الحكم - وبرلمـان بعيد عن واقع الشـعب لا يمثل إلا طبقة الحكـام) .

وهـذا التنـظيم السـرى كان تنـظيمـاً موسـعـاً تنقصـه شـروط الأمن الكـافية ، ومع ذلك لم ينكشـف أمره أبداً إلا بعد حملة فلسـطين ، وقبض على بعض أفراد منه للتحقيق ، ثم أفرج عنهم لعدم ثبوت الأدلة . ولا أدعى أن هذا التنـظيم هو نفس تنـظيم الضـباط الاحرار . لكن بعد عودتنا من حملة فلسـطين استمـر التنظيم فى عقد اجتماعاته فى الوقت الذى كان فيه تنظيم الضـبـاط الأحـرار آخذاً فى التكوين ، ودخله بعض أعضـاء من تنظيمنا . كذلك انشـق من هذا التنظيم فى مرحلة لاحقة تنظيم الحرس الحديدى وكان اغلبنـا معـارضـين لفكرة تكوين الحرس الحديدى لتعـاونه مع المـلك ، وهو احـد عنـاصـر الفسـاد المحـددة . ولـذا اسـتبعدنا جميع الذين انضـموا إلى الحرس الحديدى ومنهم : سـيد جاد عبد الله ، وحسـن النهامى ومصـطفى كمال صـدقى وخاله فوزى وغيرهم .

تنظيمـات أخـرى من الضـباط

لم تتوقف التكوينات الوطنية بالجيش المصرى عبر تاريخه فبينما كان هناك ظلم واقـع على الشـعب المصـرى كانت هنـاك دائمـاً تكوينات من ضـباط الجيش المصـرى لمواجهة هذا الظـلم والذى كان غالبـاً ما يعانى منه هو أيضـاً مثل هذه الحركات التى برزت بشـكل واضـح فى الثورة العرابية . حتى فى عصـر القهـر الكـامـل ، وبعـد مقتـل سـردار الجيش المصـرى بالسـودان السـيرلى سـتاك فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ . كانت هناك تكوينات من الضـباط الـوطـنيين المصريين والسـودانيين وقفت فى وجـه الانجليز والملك ورئيس وزارته عندما طلب الانجليز من الجيش المصـرى بالسـودان تسـليم سـلاحه والانسـحـاب من السـودان . كما حوكم وأعـدم بعض الضـبـاط المصريين والسـوادنيين . وقبل ذلك أيضـاً تكونت تنظيمات من ضـباط الجيش المصـرى

فى السودان لجمع توقيعات الضباط المصريين وأفراد الجالية المصرية بالسودان لتأييد سعد باشا زغلول وتفويضه ووفده فى تمثيل الأمة للمطالبة بالاستقلال عندما أعلن الانجليز أنهم لا يمثلون رأى الشعب . وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية ، وفى سنة ١٩٤٠ تحديداً ، وعندما رفضت السلطات المصرية دخول مصر الحرب مع بريطانيا ، واكتفت مصر بتنفيذ البند السابع من معاهدة سنة ١٩٣٦ التى تلزم مصر فى حالة اشتراك بريطانيا حليفتها فى الحرب أن تقدم فقط تسهيلات للمجهود الحربى البريطانى من طرق مواصلات ومطارات وأماكن إيواء . كان الجيش البريطانى ـ آنذاك ـ فى أمس الحاجة إلى الاسلحة وبخاصة المدفعية بأنواعها ، والتى كان الجيش المصرى مزوداً بها بمستوى لا بأس به . طالبت قيادة الجيش البريطانى فى مصر السلطات المصرية . بأن يقوم الجيش المصرى بتسليم أسلحة إلى الجيش البريطانى . وتكونت فى الحال مجموعة وطنية صغيرة من ضباط المدفعية فى حامية مرسى مطروح . قررت فيما بينها وجوب تحريض باقى ضباط وقوات الحامية فى التصدى لهذا الأمر برفض تسليم الأسلحة لهم بأى حال .

كان هذا التجمع من الضباط المصريين بضم دون ذكر الرتب : عبد المنعم أمين ،وإبراهيم حافظ عاطف ، وأحمد فؤاد ، ومنصور المغربى ، وحافظ اسماعيل ، ومصطفى لطفى ، وحسين الهادى .

وانتهت الحرب العالمية الثانية ، ثم اشترك الجيش المصرى فى حملة فلسطين ، وتفرق شمل هؤلاء الضباط . وكذا تنظيم الوطنيين السرى .

وفى أوائل عام ١٩٥١ ، وبعد حملة فلسطين تجمع شمل بعضهم وانضم إليهم الضابطان عبد الحميد الدغيدى وحسين محفوظ . وإزاء ما كان يعانيه الشعب المصرى ـ وقتها من تجاوزات السفارة البريطانية

وتسلطها على أمور البلاد ، وخضوع القصر والوزراء لها ، وبسبب الفشل الذى عاد به الجيش المصرى من حملة فلسطين نتيجة جهل القيادة وتصرفات السياسيين ، وفضائح صفقات الأسلحة التى كان للحاشية الملكية ضلع فيها ، عاد هذا التجمع ، أو التنظيم ، إلى الاجتماع فى منزل إبراهيم حافظ عاطف بشارع جسر السويس وتشاوروا وقاموا بصياغة انتقاداتهم فى أمور بلادهم فى شكل منشورات ، وقام إبراهيم حافظ عاطف بمسئولية كتابة وطبع وتوزيع هذه المنشورات من داخل الوحدة التى كان يقودها فى مدرسة المساعدة الجوية ، ومساعده فى الكتابة على الألة الكاتبة الكاتب المدنى المرحوم صلاح عبد الحميد . وتطوع الضابط المرحوم على لبيب حسنى بالطباعة كما اشترك بعض المدنيين فى مرحلة لاحقة فى هذا العمل ومنهم المرحوم الدكتور عبد الحميد حسين . وكان لمنشورات تلك المجموعة صدى طيب الأثر فى أوساط الضباط الذين وزعت عليهم . وبمجرد توزيع أول منشور ، اتصل بالمجموعة كمال الدين حسين وعلى فوزى يونس واقترحا البدء فى عمل تنظيم وخلايا حتى يتحقق العمل الجاد المنظم بأقصى قدر من الأمان .

مجموعة أخرى من الضباط

كون الضابط مصطفى كمال صدقى مجموعة جديدة مع جزء من المجموعة السابق تكوينها فى سنة ١٩٤٦ وضم إليها بعض صولات الجيش وكان يجمع أفرادها مع بعض أعضاء تنظيم سنة ١٩٤٦ مما جعل أحد الصولات يلم ببعض المعلومات عن التنظيم .

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٧ أبلغ هذا الصول واسمه جمال جلال من مجموعة مصطفى كمال صدقى (وكان قد حضر بعض الاجتماعات وتعرف على كثير

من أسماء الضباط) أبلغ الصول وزارة الداخلية أن لفيفاً من ضباط الجيش يقوم بالتجهيز لاغتيال الملك أثناء موكبه إلى البرلمان ، وأبلغ عن أسماء ٢٩ ضابطاً متآمراً وكان من الجماعة السرية التى كنت اجتمع فيها ولم يشملنى هذا الاعتقال . أمر رئيس الوزراء ، النقراشى باشا بمراقبة هؤلاء الضباط . ولما لم يثبت عليهم أى تآمر فقد صرف النظر عن اتخاذ أى إجراء .

ولما لم يستجب رئيس الوزراء لهذا البلاغ قام الصول جمال جلال بتبليغ ذلك إلى عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، الذى أبلغ بدوره الملك فاروق وأمر الملك عطا الله باشا باعتقالهم ، وجرى التحفظ عليهم فى ميس المشاة . وأجرت النيابة العامة معهم تحقيقات قام بها النائب العام حافظ سابق ، ولم يثبت عليهم أى شىء وأفرج عنهم وكان من الضباط المعتقلين كل من (دون ذكر الرتب) : رشاد مهنا ، عبد الرؤوف نور الدين ، عثمان فوزى ، عبد الحميد كفافى ، أحمد يوسف حبيب ، صول فنى محمد حسين ، أنور الصيحى ، عبد القادر طه ، أحمد فؤاد ، مصطفى كمال صدقى ، حسن فهمى عبد الحميد ، مصطفى نصير ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، ممدوح جبه .

وعقب ذلك أعفى عطا الله باشا من منصبه ، وعين بدلاً منه عثمان المهدى باشا رئيساً لهيئة أركان حرب .

معــــــــــــــــارك ١٩٤٨

فى أوائـل عام ١٩٤٨ أعلنت بريطانيـا فجـأة أنها ستنهى انتـدابها على فلســطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ دون أن تنتظر حلاً من هيئة الأمم المتحدة ، تاركة عرب فلسطين العزل فى قبضــة العصــابات الصهيونية المسـلحة تسـليحاً كاملاً حيث انضـم إلى اسـرائيل « الفيلق اليهودى » الذى كان يشـكل إحدى وحدات الجيش البريطانى خلال الحرب العـالمية الثـانية .

وعند صـدور قرار الأمم المتحدة بإنشـاء دولة اسـرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ كان الملك فاروق قد اسـتأثر بالسـلطة السـياسـية فى مصـر . وكان لتـدخله السـبب الـرئيسى فى دخـول مصـر بجيشـهـا إلى فلسـطين دون الاسـتعـداد . وبنفس الأسـلوب المريب زج زعـماء الدول العربية الأخرى بجيوشـهـم فى حرب لم يتخـيروا توقيتها وهـم على غير اسـتعداد لهـا .

وحتى ١١ مايو سنة ١٩٤٨ كان رئيس الوزراء النقراشى باشـا لا يزال يرفض اشـتراك الجيش المصـرى فى الحرب بدعوى أن وجود القوات البريطانية فى قاعدة القنـال سيكشـف الجيش المصـرى وقد يهدد سـلامة هذا الجيش ، وخطوط مواصـلاته فى الأوقات الحرجة بسـبب تعاطف انجلترا مع اسـرائيل .

وفجـأة فى يوم ١٢ مايو سـنـة ١٩٤٨ طلب النقـراشى اجتماع البرلمان ، وبصـفـة عاجلة . وفى جلسـة سـرية أقنع الأعضـاء بالتصـديق على دخول الجيش المصـرى إلى فلسـطين . والحقيقة أن حيدر باشـا وزير الدفاع المصـرى

كان قد تجاوز سلطاته . ودون أن يأخذ رأى مجلس الوزراء أصدر الأوامر إلى الجيش باجتياز الحدود إلى فلسطين دون أن ينتظر عرض الموضوع على البرلمان كما يقضى دستور البلاد . وكان تبريره لذلك أنه ينفذ أوامر الملك بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة . وكضباط وطنيين شبان خلال تنفيذنا للأوامر وأثناء التحركات والعمليات كان لا يغيب عن وعينا هذه المهزلة من التجاوزات .

على الطريق إلى فلسطين

وجاء يوم ١٣ مايو وكنت ضابطاً برتبة ملازم أول بالكتيبة التاسعة مشاة ، فصدرت الأوامر بالتحرك إلى حدود فلسطين وتوجهت الكتيبة بجميع وحداتها إلى رصيف محطة العباسية العسكرية بالقاهرة . وقبل أن نصعد إلى القطار الحربى الذى أقلنا إلى الميدان حضر إلينا قائد القوات المصرية المعين لقيادة هذه الحملة اللواء المواوى . وبعد فترة حضر أيضاً رئيس هيئة أركان حرب الجيش اللواء عثمان المهدى باشا . وقبل أن يتحرك القطار أطل علينا المواوى وإذا به يلقى علينا خطاباً استهان فيه بقوات العدو فأخذ يصفها بأنها كالعصابات الإجرامية التى يطاردها البوليس المصرى فى الصعيد .

واندهش الكثير منا لمدى استهتار القائد الموكل إليه أرواح شباب الأمة ، حيث أن جميعنا قد قرأ فى الصحف قبل قيام الحملة عن عنف الارهاب الصهيونى ، وما كان يعانيه الجيش البريطانى نفسه على يد تلك العصابات . بالاضافة إلى الفيلق اليهودى المدرب على أحدث فنون القتال التقليدى .

أخذ الشك يساورنا إن كان هذا القائد قد كلف نفسه مشقة البحث والتدقيق فيما هو مقدم عليه حتى يتسنى له القيام بالتخطيط العسكرى السليم كما يقضى بذلك منصبه القيادى . وأثناء هذه الكلمة أخذت أبحث بعينى بين صفوف الرئاسات عن وجوه هيئة مكتب هذا القائد ، وميزت بينهم وجه أركان حربه الصاغ « فريد عبد الله » الذى كان يدرس لى مادة التكتيك بالكلية الحربية . حيث كان يتقن دروس مادته على الورق وعلى تختة الرمل فاطمأننت بعض الشيء وحدثت نفسى أنه لا بأس أن يكون القائد بهذا المستوى المنخفض إذا ما كانت هيئة مكتبه للعمليات على كفاءة عالية ليعوضوا عجز القائد .

على الحدود المصرية الفلسطينية

عندما وصل القطار بنا إلى العريش ، تم احتلالنا لمواقع ميدانية فى العراء دون أى تجهيز مسبق رغم أننا كنا لا نزال فى أرض مصرية .

وفى العريش وزعت علينا خرائط الميدان التى تغطى معظم أرض فلسطين وكان عددها ضخماً وجدت صعوبة كبيرة فى حفظها داخل ربطة الفرش المخصصة لنومى . وكان الواجب أن نوزع على الضباط الصغار أمثالنا خريطة أو اثنتين حسب المعارك المنتظرة لنا ثم تسحب بعد كل معركة ونوزع للمعارك التى ستأتى بعدها خرائطها وهكذا .

بعد أن أمضينا فى العريش يومين فى العراء ، تقدمنا إلى الحدود الفلسطينية فى رفح وأمضينا الليل هناك . وفى الصباح اجتزنا الحدود المصرية الفلسطينية وعلى الفور اشتركت الكتيبة السادسة مشاة تحت قيادة القائد جاد سالم فى معركة الدنجور (مستعمرة اسرائلية بالقرب من رفح) .

وفى أثناء المعركة اتخذت جميع القوات المصرية شكل الطابور فى مكان ما على

الـطريق إلى غزة بالقرب من رفح ، ومكثنا ننتظر نتيجة المعركة . وبعد مدة بسيطة من سماعنا لأصوات تبادل نيران المدافع والأسلحة الصغيرة بدأنا نشاهد العديد من عربات الاسعاف التى أخذت تحمل المصابين المصريين مارة من أمامنا فى طريقها إلى مستشفيات الميدان المتحركة . وفى الظهيرة علمنا بكثرة الخسائر فى الضباط والجنود المصريين ، إلا أن الكتيبة المصرية لم تتمكن من الاستيلاء على المستعمرة .

بعد سماعى لهذه الأخبار سحبت خريطة الميدان الخاصة بهذه المعركة والمنطقة المحيطة بمستعمرة الدنجور . كانت هذه المنطقة تغطى المسافة بين رفح وغزة وأخذت فى حصر عدد المستعمرات الاسرائيلية المماثلة والتى تنتشر فى نفس المنطقة وكانت واضحة على الخرائط بدوائر حمراء فوجدت عددها لا يقل عن ٤٥ مستعمرة صهيونية . وهذه المستعمرات كانت شكل جزر مقاومة دفاعية حصينة تحمى بعضها بعضاً بواسطة نيران المدفعية وكل منها بالقطع كان مثل مستعمرة الدنجور فى مناعتها ومحاطة بأسلاك شائكة وألغام كموانع دفاعية منشأة على أحدث النظم الدفاعية العسكرية أنذاك .

وفهمنا من معلومات العائدين من القتال أن داخل المستعمرة توجد دشم حصينة مغطاة الأسقف ومن حولها أكياس للرمال لتحميها من قصف المدفعية المصرية . ويقف فى هذه الدشم الجنود الاسرائيليون المدافعون وتربط هذه الدشم شبكة من خنادق المواصلات محفورة بحيث تيسر وتسرع من حركة الجنود المدافعين بين الدشم وبعضها وبين الدشم ومواقع الذخيرة وأماكن إخلاء الجرحى حتى تمكنهم من تعويض الخسائر وسد الثغرات بسرعة أثناء الهجمات والقصف . كما لاحظت القوات المصرية التى اشتركت فى معركة الدنجور أن لدى الصهاينة مدافع هاون يحسنون استخدامها وتوجيهها ، فقد كان القصف متواصلاً من المستعمرات المحيطة

للدنجور لمساعدتها فى صد هجوم الجنود المصريين كما كانت توجه بعض نيرانها على طابور الجيش المصرى المنتشر على الطريق . إلا أن مدفعية الميدان المصرية كانت متفوقة جداً على المدفعية الاسرائيلية ، ولذلك عندما بدأت المدفعية المصرية بالرد وقامت بقصف المستعمرات الأخرى المحيطة بالدنجور بالدنجور توقف الضرب الاسرائيلى على طابور الجيش المصرى المنتظر على الطريق . بعد اطلاعى على هذه المعلومات بالإضافة إلى ضخامة عدد المستعمرات المماثلة مع مقارنتها بكثرة الخسائر التى منيت بها قوات الهجوم المصرى دون أن تحقق هدفها تكشف لى أن معركتنا مع اسرائيل لا يصح أن تكون بهذه الصورة بأى حال من الأحوال وإلا فنى الجيش المصرى بأكمله قبل أن يشترك فى معركة فاصلة فإزاء كثرة الجزر الدفاعية الحصينة من المستعمرات ستهلك جميع قواتنا إذا استمرت محاولاتنا فى الهجوم على مستعمرة تلو الأخرى . كما أن اسرائيل لابد أنه لديها قوات هجوم أخرى لم نتعامل معها بعد ، ولابد أنهم سيستخدمونها بعد أن تستنفد قواتنا . وعلى قدر تفكيرى العسكرى كضابط صغير توقفت عند هذا الحد فقد صدرت إلينا الأوامر عصر ذلك اليوم بأن نسرع بالتقدم صوب غزة قبل حلول الظلام حتى تتمكن القوات المصرية من السيطرة على المناطق الفلسطينية حسب مشروع التقسيم .

ونحن على الطريق إلى غزة أغارت علينا بعض الطائرات الاسرائيلية ، ولكن طابورنا المتحرك كانت تحمية قوة مصرية لا يستهان بها من المدفعية المضادة للطائرات من مختلف الأنواع (الثقيلة ، المتوسطة و الخفيفة) فتصدت مدفعيتنا للطائرات المغيرة فأصابت إحداها ولاذت الطائرات الأخرى بالفرار دون أن تتمكن من تصويب نيرانها أو اسقاط قنابلها علينا . وقد كان لتلك المناوشة الصغيرة أثر طيب فى رفع معنوياتنا التى كانت قد

اهتزت بسبب مشاهدتنا لخسائر الدنجور .

الوصول إلى غزة

قبل أن نصل إلى غزة كان علينا أن نمر خلال طريق مزروع بجزر المقاومة الدفاعية من مستعمرات العدو . ولكن الطابور المصرى المتقدم الذى كان يضم جميع القوات المصرية المحاربة بمختلف أسلحتها وتشكيلاتها كان هذا الطابور وللحق تشكيلاً منظماً تتوافر لأجنحته ومقدمته ومؤخرته الحماية الجيدة .

ولم يكن فى مدينة غزة أية قوات اسرائيلية عندما وصلنا إليها وكان ذلك طبقاً لمشروع التقسيم الدولى . واصلت كتيبتى السير متخذة مواقع دفاعية للمدينة التى اتخذتها القوات المصرية مركزاً لرئاسة القوات وتجمع الحشود .

وضمن خطة الدفاع الشاملة مع باقى الكتائب اتخذت كتيبتنا مواقع دفاعية على « تلال على المنطار » بينما اتخذت باقى الكتائب مواقع دفاعية أخرى لتجعل من غزة منطقة دفاعية منيعة . و« تلال على المنطار » كانت تمثل موقعاً دفاعياً حصيناً لهذا أحسن احتلاله حيث أنه يحيط بغزة من الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية . بعد إتمام عملية احتلال المواقع الدفاعية وفى ظلمة الليل وبعد أن ساد قواتنا شعور الاطمئنان الدفاعى أخذت أطل من موقعى المرتفع الحصين على وادى غزة وشعرت بالراحة والاطمئنان وفى سكون الوحدة التى يشعر بها المقاتل فى المواقع الدفاعية عاودت التفكير فى أحوالنا العسكرية . وتذكرت خطاب القائد على رصيف محطة العباسية وتأكيده لنا أننا سنواجه شرذمة من العصابات الاسرائيلية لا تحتاج لأكثر من جهد رجال البوليس فى مطاردة عصابات الصعيد ، ثم تذكرت حجم الخسائر التى أصابتنا بسبب مستعمرة واحدة على يد « عصابات الصعيد » على حد تعبير القائد ولم يكن

أمامى سوى أحد استنتاجين إما أن هذا القائد وهيئة عمليات مكتبه ، وأركان حربه لم يقوموا بواجبهم البديهى من استطلاع واستكشاف وجمع المعلومات لمدى قوة العدو ، وبذلك يكون تفكيرهم قد توقف عندما وجدوا أنفسهم فى وسط المعركة أو أن هيئة عمليات ذلك القائد آثرت الطاعة العمياء له فسمحت له أن يبدأ الحرب بإسلوب البوليس فى مطاردة المجرمين .

وحتى تهدأ نفسى بعض الشىء أخذت أقارن بين قوتنا العسكرية وقوة العدو . كان التسليح الإسرائيلى حسب المعلومات المتاحة بعد تجربة الدنجور يتكون من قوات مشاة مسلحة تسليحاً جيداً تساعدها فى الدفاع مدافع الهاون وفى حالة ممتازة وتستخدم استخداماً فى غاية الكفاءة ، إلا أنه كان من الواضح أن اسرائيل لا تزال تفتقر إلى مدفعية الميدان الثقيلة التى لم يظهر لها دور على الاطلاق فى هذه المراحل الأولى . أما الطيران الاسرائيلى فكان ضعيفاً للغاية كما كان لدى الإسرائيليين مصفحات مصنوعة فى فلسطين من مخلفات العربات العسكرية البريطانية ومن عربات نصف اللورى حيث قاموا بصنع ألواح من الدروع حول هذه العربات فكانوا يستخدمونها بكثرة فى مهاجمة القرى العربية معزولة السلاح أو ضعيفة التسليح ، فلم تواجه هذه الدروع فى تلك الهجمات أية أسلحة مضادة . وكان الجيش المصرى يتفوق عليها لأن لدينا مدفعية على أعلى مستوى وأسلحة مضادة للدروع والدبابات .

أما الجيش المصرى فكان يتكون من تسع كتائب فقط من المشاة وثلاث كتائب مشاة أخرى ضمن لواء جديد تحت التكوين ، بالاضافة إلى كتيبتين كاملتين من مدافع الماكينة الفيكرز جيدة التسليح وهى موزعة على كتائب المشاة التسع كسلاح مساعد بالاضافة إلى ذلك كانت كتائب المشاة

مسلحة بمدافع مضادة للدبابات من عيار ٦ رطل وهو سلاح كانت تفتقده إسرائيل فى ذلك الوقت . وبذلك كان سلاح المدفعية المصرية سواء مدافع الميدان أو المدافع المضادة للدبابات أو المضادة للطائرات متفوقاً تفوقاً ساحقاً من حيث التسليح والكفاءة والتدريب على سلاح المدفعية الاسرائيلى . أما الطيران المصرى فقد كان أكثر كثافة وأكفأ بمراحل من الطيران الاسرائيلى .

كان النقراشى باشا قبل أن يورطه الملك بدخول الجيش المصرى الحرب من أنصار تكوين تشكيلات وتنظيمات من المتطوعين والفدائيين العرب فسمح لكثير من الضباط المصريين أن يتركوا وحداتهم وينضموا لهذه التشكيلات الفدائية بحيث يتم تسهيل وضمان تسليح وتدريب هذه القوات من المتطوعين ثم يندفعوا هم فى حرب عصابات منظمة من داخل القرى والمدن العربية فى فلسطين فيتم فى النهاية تسليح معظم هذه القرى وتقويتها وتحصينها وبالتالى تضعف تدريجياً قدرة العصابات الصهيونية ، وتصبح هى ذاتها تحت رحمة مقاومة الأهالى والمتطوعين العرب . وفعلاً قبل إعلان مصر دخول الحرب بجيشها النظامى بادر أعداد من شباب الضباط المصريين بالتطوع ومعهم أعداد هائلة من شباب مصر خاصة شباب الإخوان المسلمين وتكون منهم تشكيل توجه بالفعل داخل الحدود الفلسطينية قبل دخول الجيش المصرى . وكان هذا التشكيل بقيادة الضابط أحمد عبد العزيز الذى استشهد فى هذه الحملة وهو من أكفأ وأشجع ضباط الجيش المصرى كما كان يدرس لنا مادة التاريخ العسكرى ونحن طلبة فى الكلية الحربية ، كما انضم إليه نخبة من ضباط الجيش منهم كمال الدين حسين وعبد المنعم عبد الرؤوف وغيرهم . وعندما تذكرت ذلك شعرت ببعض الندم لعدم انضمامى لصفوف المتطوعين وكان عذرى هو صغر رتبتى وعدم علمى -

حسب ما أتذكر بطريقة التطوع حينئذ .

عند ذلك أيقنت أنه كان من الأجدى أن تجمع التبرعات على مستوى الأمة العربية قبل ذلك بمدة ليتم شراء أسلحة ومعدات وذخائر وليتم تسليح شعب فلسطين العربى فى المدن والقرى وتقوم هيئة عربية بالتخطيط لتسليح ووضع خطط الدفاع لهذه القرى والمدن العربية لتكون قادرة على صد أى هجمات من العصابات الصهيونية المسلحة التى أرعبت الشعب الفلسطينى بالمذابح والغارات وبذلك يصمد الشعب فى مكانه . كما كان من الأصوب أو هكذا تراءى لى أن يتم تسريح الجيوش العربية النظامية أو جزء منها وارسالها إلى فلسطين العربية كما فعل بعض المتطوعين العرب فتقوم بشن حرب العصابات على المستعمرات الإسرائيلية بحيث تصبح ضاربة احتياطية يتم استخدامها فى المعركة الفاصلة عندما يحين الوقت المناسب لدخول القوات العربية النظامية للاجهاز على الجيش الاسرائيلى بعد انهاكه .

وبقيت فى خندقى أتنقل بين أحلام اليقظة وفجاة تنبهت إلى أن الفجر بدأ ينتشر نوره فعاودتنى الثقة والاطمئنان بقوة جيشنا على الرغم من ضعف القيادة . وأطل على ضوء الصباح ووقع بصرى على أجمل ما رأته عيناى من مناظر فرأيت الخضرة وأشجار البرتقال والسرو الجميلة وهى تنبسط على امتداد البصر امام الموقع وامتلأت بالثقة والأمل فى جنود مصر وشبابها .

الاحجــــام والاقبــــال

بعد أن أمضت القوات يوماً للراحة فى غزة ، كلفت قيادة القوات الكتيبه الأولى مشاة بالهجوم على مستعمرة دير سنيد وهى مستعمرة حصينة تقع بالقرب من غزة ويبدو أن الاستعداد لهذا الهجوم كان أدق وأشمل من الإعداد لمعركة الدنجور حيث تم الاستكشاف المسبق لها . ولذلك وعلى الرغم من قوة هذه المستعمرة إلا أن الكتيبة الأولى أمكنها الاستيلاء عليها بخسائر قليلة فى الجنود ومرتفعة بعض الشىء فى الضباط (حيث استشهد فى هذه المعركة حوالى ٧ ضباط و٣٠ جندياً) ، وسقط الشهيد الأول من دفعتنا فى هذه المعركة وهو الملازم مصطفى كمال عثمان . وبعد تلك المعركة بعدة أيام كلفت كتيبتى التاسعة مشاة بمهاجمة مستعمرة « نيتساليم »

معركة نيتساليم

عندما صدرت إلينا الأوامر بالاستعداد لمهاجمة « نيتساليم » قائد الكتيبة القائمقام محمد كامل الرحمانى ومعه قادة السرايا (٤ سرايا فى الكتيبة) وقادة الفصائل المعاونة (قادة فصائل الهاون ـ والمدفعية المضادة للدبابات الملحقة على المشاة والحمالات المدرعة ومدافع الماكينة وبسلاح الاشارة) بالاستكشاف الدقيق قبل المعركة (كماتقضى أصول الحرب) وعندما تم وضع الخطة شرحت لنا بالتفصيل وصدرت إلينا الأوامر المباشرة بالاستعداد فانتشرت السرايا الأربعة بالكتيبة ومن ضمنها الفصيلة التى

كنت قائدها . وتم انتشار الجنود على خط يبعد مسافة كافية عن مرمى نيران أسلحة العدو الخفيفة . وكلفت كل سرية بالهجوم على أحد الأضلاع الأربعة للمستعمرة .

وفى اللحظة الحاسمة بدأنا المعركة فقامت مدفعيتنا الميدانية من عيار ٢٥ رطل بالقصف المركز لمدة نصف ساعة ومعها فى نفس الوقت المدفعية المضادة للدبابات الموزعة على السرايا بضرب محكم مستخدمة القذائف الحارقة وقنابل شديدة الانفجار ، موجهة نيرانها على الدشم الحصينة المواجهة لكل سرية مصرية .

وخلال القصف وقبل أن تتوقف المدفعية بخمس دقائق صدرت لنا الإشارة بالتقدم إلى الإمام . وعندما توقف القصف انبطح الجميع متخذين سواتر طبيعية من الأرض التى أمامنا ، ثم أخذ كل من الجنود والضباط فى الضرب على المستعمرة حيثما تراءى لكل منهم . ثم استأنفت المدفعية الضرب بعد خمس دقائق . وخلال الضرب قمنا بقفزة جديدة إلى الأمام وفى القفزة الرابعة وقبل أن تتوقف المدفعية للمرة الأخيرة قامت بضرب قذائف من الدخان ، وفى حماية هذا الساتر من الدخان تقدمنا بأسرع ما يمكن حتى اقتربنا من الأسلاك الشائكة التى تحيط بالمستعمرة .

وقام رجال سلاح المهندسين بتفجير الأسلاك الشائكة والألغام المدفونة تحتها بواسطة ألغام خاصة أسمها « طوربيد بنجالور ، وهى مواسير طويلة بها شحنة من المتفجرات » ، وبذلك أحدثت ثغرة مكنت رجال المشاة من الاقتحام .

وخلال عملية الاقتحام وبعد دخولنا سور الأسلاك الشائكة تأخرت سريتى بعض الشىء على الضلع الشرقى للمستعمرة لوجود مقاومة شديدة

من احدى الدشـم المواجهة لنـا ، والتى لم يكن قد نال منها ضـرب المدفعية المصـرية بعد .

وفجأة رأيت إشـارة النجـاح من طبنجة إشـارة إحدى الفصـائل الأخرى التى تمكنت من اقتحـام الموقع قبلنـا (كانت طلقة خضـراء ثم تبعتها طلقة أخرى بيضـاء بلون العـلم المصرى فى ذلك الوقت) . وكان رد فعل قائـد سـريتنا سـريعاً ، فقد وجه من موقفه قذائف المدفعية المضـادة للدبابات على الـدشـمـة المستعصـية ، وفى لحظات شـاهدنا انفجار الدشـمة فنهضـنا من مواقعنا واقتحمنا الدشـمة المهدمة ، وانضـمت بذلك سـريتى لبـاقى سـرايا الكتيبـة التى تمكنت من احتـلال جميع دشـم الـدفاع لمسـتعمرة نيتساليم ، فانتهت المعركة بنجاح والفضـل لدقة الاستكشـاف ودقة الخطة والتوقيت الجيد وقبل كل ذلك ثبات الرجال . وبعد نهاية المعركة تمكنا من أسـر ثمانية جنود وخمس مجندات بينما خسـرت قواتنا من الضـباط اليوزباشى خليف ، ومحسـن حمد ، و مصـطفى حامد ، وأركان حرب الكتيبة الصـاغ سليمـان عفيفى .

وبعد حصـر الأسـلحة التى جمعناها من العدو وجدنا فى الدشـم بأركان المسـتعمرة بنادق قناصـة يبدو أنها كانت تسـتخدم فى اصـطياد الضـباط بعد تمييزهم من الزى والتسـليح المختـلف فقمنا بتبليغ هذه الملاحظة وبناء على ذلك اسـتبدل الضـباط ملابسـهم بنفس زى الجنود حتى نتفادى بقدر الإمكان خسـائرنا العـالية فى الضـباط .

وبعد هذه المعركة انسـحبت كتيبتى إلى موقع دفاعى فى غزة . وأمضـينا أياماً بين المعـارك فى إعادة تدريب الجنود خلال فترات الصـباح وفى صـيانة وتنظيف الأسـلحة وتعويض الخسـائر والذخائر . وفى تلك الفترة كانت تصلنـا الصـحف والمجلات المصـرية التى كنا نقف منها على روح الشـعب المصـرى

فى القاهرة . وبقدر سعادتنا بأفراح الشعب المصرى عند سماعه أخبار انتصاراتنا بقدر أسفنا لما كان ينشر فى روز اليوسف من أخبار مجتمع طبقة الحكام .

الهدنة الأولى (١١ يونيو إلى ٧ يوليو سنة ١٩٤٨)

وبعد معركة نيتساليم ثانى معركة ينتصر فيها الجيش المصرى وبشائر النصر تظهر للعرب عامة ومصر خاصة ، أعلنت الهدنة فجأة . وقبلت مصر الهدنة ، والتزمت بها وانتشر التساؤل بين الضباط عن حكمة وسر قبولنا الهدنة ونحن فى أحسن أحوالنا العسكرية . وخلال الهدنة أعاد العدو تنظيم نفسه ، وتدفقت عليه المعونات العسكرية والمهاجرون والمتطوعون من اليهود . وانهالت عليه الأسلحة من الشرق والغرب وقبل نهاية الهدنة ، يطلب العدو مدها ثلاثة أيام أخرى لتكون لدية فرصة أكبر للاستعداد فرفضت مصر الهدنة . واستؤنف القتال ولكننا بدأنا نشعر بزيادة مفاجئة ، فى أسلحة العدو . ازدادت مقاومته وظهرت لأول مرة الطائرات الحديثة فى تشكيلات الإسرائيليين التى لم يكن لها أثر قبل الهدنة . وكذلك تم استكمال نقص المدفعية التى عانوا منها قبل الهدنة .

وفى نفس الوقت تقدم الكونت برنادوت المبعوث الدولى للأمم المتحدة بمشروع التقسيم المشهور ، فرفضت اسرائيل ، وامتنع العرب عن إبداء الرأى فيه . ثم قامت اسرائيل باغتيال الكونت برنادوت الوسيط الدولى . كما اغتيل أحمد عبد العزيز قائد الفدائيين المصريين وهو مسافر ليلاً على الطريق بين الخطوط المصرية الأردنية .

معركة أسدود

وأثناء الهدنة الأولى تحركت كتيبتى لاحتلال موقع دفاعى متقدم على مشارف بلدة أسدود (بالقرب جداً من العدو) . فكان الموقع بالنسبة لنا

مثالياً حيث كان يقع على حافة خور شديد العمق ، ويبعد أمام مدينة أسدود بحوالى كيلو مترين ، وتبعد مدينة أسدود بحوالى ٣٥ كم فقط عن يافا . فكان هذا الخط الدفاعى اخر مواقعنا وفى ليلة حالكة الظلام وبعد انتهاء الهدنة الأولى فتحت المدفعية الاسرائيلية نيرانها المتوالية على مواقعنا الدفاعية فى أسدود ، فردت عليها المدفعية المصرية بنيران كثيفة . وبعد فترة طويلة توقف ضرب المدفعية الاسرائيلية ، ولكن المدفعية المصرية استمرت فى الضرب والتوقف على فترات متتابعة خشية أن يكون ضرب المدفعية الاسرائيلية تمهيداً لعملية أكبر أثناء الليل . وتوقف الضرب من الطرفين فجلست داخل خندقى فى رئاسة الفصيلة أتسامر مع زميلى عبد المنعم خليل قائد الفصيلة المجاورة لى فى المواقع وهو من نفس سريتى . وفجأة تسلل إلى خندقنا شاويش الفصيلة « الشاويش وهبه » وكان رجلاً رياضياً يقوم بتدريب السباحة لرجال الجيش قبل الحملة . فطلب منى تزويده بأكبر كمية من القنابل اليدوية ثم قام بتجهيزها أمامنا بحيث تكون معدة للاستخدام ، ووضعها جميعاً داخل حقيبة « الجراية » الخاصة به (وهى حقيبة من قماش للبدل يزود بها كل جندى فى الميدان تثبت على جانبه ليحتفظ فيها بتعيين الميدان) . وأخبرنا أنه كان فى أحد خنادق المواقع الأمامية المشرفة مباشرة على الخور فسمع أصواتاً تأكد أنها أصوات تسلق أفراد من العدو للخور وأنه يجب التعجيل باكتشاف الأمر ، وإلا فاجأنا العدو بعملية اقتحام لخطوطنا الدفاعية . فتركنا الشاويش وهبه وذهب حاملاً حقيبة الجراية المملوءة بالقنابل اليدوية وتوجه نحو الموقع الذى اكتشف الأصوت منه وقبل أن يذهب اتفق معى على إشارة خاصة بحيث يقوم بالصفير عندما يتأكد تماماً من التسلل فإذا سمعت الصفير أقوم على الفور بضرب طلقات إشارة لتنير الموقع وما حوله خاصة فى الخور .

وذهب الزميل عبد المنعم خليل إلى موقعه وبعد عدة دقائق سمعت صفير الشاويش وهبه ، ثم تلا ذلك مباشرة صوت انفجار قنبلة يدوية أو اثنتين ، فقمت على الفور بضرب طلقة مضيئة . أضاءت الخور . وبعدها مباشرة سمعت انفجارات متتالية لقنابل الشاويش وهبه ثم تتابعت أصوات قنابل أخرى من خطوطنا ويبدو أن الإسرائيليين تمكنوا حتى الصباح من إخلاء جرحاهم ، واستولينا منهم على كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات . وكان من ضمن الغنائم جهاز لاسلكى مصنوع فى تشيكوسلوفكيا وكان يعتبر فى ذلك الوقت من أحدث الأجهزة التى يمكن حملها على الظهر . وأثناء وقوف بعض الضباط من الوحدات المصرية المجاورة على حافة الخور وهم يشاهدون آثار المعركة معتقدين أن المعركة قد انتهت إذا بطلق نارى يصيب الزميل عز الدين مختار (وكان من كتيبة أخرى) فى كتفه . وشعرت أن العدو لا يزال يحتل موقعاً قريباً فأخذت أتفحص المنطقة الفضاء أمامى بمنظارى المكبر وفجأة لاحظت حركة فى سطح أحد المبانى البعيدة ، وكان المبنى شبه مهجور ويبعد بحوالى كيلو مترين عن مواقعنا . ذهبت فى الحال إلى موقع المدفعية المضادة للدبابات الموجود تحت قيادتى فى الفصيلة وسألت حكمدار الموقع عما إذا كان لديه دانات شديدة الانفجار . وطلبت من الموقع توجيه مدفعيته على ذلك المبنى بعد تحديده لهم وأن يجعل الهدف هو سقف الدور العلوى . وانتظرت قليلاً وأخذت أراقب المبنى بالمنظار المكبر حتى تم الضرب ورأيت جثثاً تطير إلى أعلى . ولم تنتظر المدفعية أية أوامر أخرى ، ففتحت جميع نيرانها على الموقع بشدة وإتقان حتى تهدم المبنى تماماً .

وبعد أن توقفنا عن الضرب جاء قائد الحمالات المدرعة بالكتيبة الملازم أول سيد رفعت اسماعيل وركبت معه حمالته ، وفى حراسة باقى الحمالات

خرجنا نجوب ونطهر أرض المعركة ولم نجد أى مقاومة حتى وصلنا المبنى الذى دمرته مدفعيتنا ولم نجد سوى جثث قتلى فقط بأسلحتهم ومعداتهم وأجهزة اتصالهم ووجدنا فى إحدى الغرف المهدمة خريطة ميدان أخذناها على عجل مع بعض الغنائم الأخرى وعدنا سريعاً إلى مواقعنا لنتفحص هذه الخريطة بتأنى وعلمنا من فحص الخريطة أن هذا المبنى كان العدو قد اتخذه مركزا للقيادة وعلى الخرطة علامات تدل على تفصيلات دفاعاتنا مما يدل على قيامهم بالاستطلاع الجيد قبل هذه المعركة الليلية ، كما يدل أيضاً على احتمال وجود جواسيس لهم داخل خطوطنا .

الخريطة التى وقعت فى أيدينا كانت تحتوى على رسومات وعلامات لمواقعنا الدفاعية فى العمق . وفعلاً تذكرت عند ذلك أنه أثناء القتال الليلى كنت أشعر ببعض الطلقات الطائشة وهى تمر من فوق رؤوسنا ومن خلف موقعنا وبالقطع كان هناك بعض القناصة الاسرائيليين خلف مواقعنا . وبعد المعركة بعدة أيام انسحبت الكتيبة من الموقع الأمامى فى أسدود للراحة فى مواقع خلفية عند مدينة غزة .

معركة تبة الفناطيس

وفى مواقع الراحة فى مدينة غزة وبعد منتصف الليل سمعنا تبادلاً للنيران صادراً من موقع قريب من غزة . وبعد هدوء المعركة مرت نصف ساعة أو أكثر ثم وصلتنا رسالة تليفونية لقائد سريتنا وسرية أخرى تأمرنا بالتأهب للتحرك والاشتراك فى معركة قادمة . وتحركنا أثناء الليل . فعلمنا عندما وصلنا إلى موقع قريب من ميدان المعركة أن مستعمرة نيتساليم التى سبق استيلاءنا عليها قد أغار عليها الاسرائيليون بعد منتصف الليل فى معركة هجوم ليلى أيضاً فتمكنوا من الاستيلاء على أحدى الدشم التى يحتلها

المصريون ، إلا أن بقية القوات المصرية الموجودة بالمستعمرة أمكنها استرداد هذه الدشمة ، ولكن الاسرائيلين المنسحبين قاموا باحتلال موقع يشرف على المستعمرة وهو عبارة عن تبة عالية بها فناطيس مهدمة محل معسكر قديم للجيش الانجليزى . وقد مكن هذا الموقع الجديد الإسرائيليين من اطلاق قنابل الهاون على مستعمرة نيتساليم مما أعطاهم القدرة على قطع خط الامداد عن المستعمرة التى يحتلها الجنود المصريون ولذلك كانت مهمتنا الاستيلاء على تبة الفناطيس » لتأمين وجودنا داخل المستعمرة . وصدرت الأوامر لقائد سريتنا (السرية ٣ فصائل) بالهجوم ، وتقدمنا تحت ستار ضرب المدفعية متبعين نفس تكتيك الهجوم السابق على مستعمرة نيتساليم فكنا نقوم بقفزات يتخللها ضرب متقطع للمدفعية .

ولكن كلما تقدمنا مسافة بسيطة كنا نضطر للانبطاح أرضاً فيتوقف تقدمنا بسبب كثرة الخسائر حيث تمكنت نيران العدو من اصابتنا حتى ونحن منبحطون أرضاً فقد مكنهم موقعهم المرتفع من كشف جميع تحركاتنا فأصبحنا أهدافاً سهلة .

وعندما اقتربنا تماماً من موقع الاسلاك الشائكة للاسرائيليين لم يعد من الممكن التقدم شبراً آخر ، فكل من حاول الوقوف كان يصاب فى الحال . ونحن على حالنا هذا قمت باختبار مدى إحكام تصويبهم لعل الفرصة تسنح بالهجوم فكنت أخلع الخوذة الخاصة بى ، فأضعها على طرف السونكى وأرفعها إلى أعلى كأن أحد الجنود المصريين يحاول الوقوف والتحرك وبالفعل كانت الطلقات تتساقط بإحكام على الخوذة فأعيدها ثانية على رأسى ، وبالتالى قبعنا بالسكون فى مواقعنا . وحضر إلينا أركان حرب الكتيبة الجديد عبد الحكيم عامر الذى تولى هذا المنصب بعد استشهاد

عبد السلام عفيفى وقد كان حديث التخرج من كلية أركان حرب وكان هذا هو أول لقـاء لى به .

كانت مواقع العدو فى (تبة) الفنـاطيس على دشـم وخنادق مواصـلات لم يعمل لهـا أسـقف للحمـاية (مكشـوفة) ولذلك قام عبد الحكيم عامر بمراجعة مواقع ومسافات الدشـم المكشـوفة بدقة بحيث يتم احكام الضـرب فوقها مباشـرة بدانات « الشرابنيل Shrapnel» التى تتصـف بخاصـية الانفجار قبل الارتطام بالأجسـام الصـلبة فى الهواء وأعلا الهدف مباشـرة وبذلك يمكن للمـدفعية المصـرية إصـابة القـوات الاسرائيلية المـدافعـة داخـل خطوطها المكشـوفة ، وهو ما لم يكن متاحاً خلال خطة الضـرب السـابقة .

ومن مواقعنا كنا نشـعر بآثار انفجار دانات الشرابنيل فوق رؤوس جنود العدو وأثناء الضـرب بالاسـلوب الجديد أردت أن أختبر مدى إحكام ضـرب العـدو علينـا فرفعت الخوذة على طرف السـونكى مرة أخرى فلم تنطلق أية رصـاصـة نحوها دليـلاً على أن العدو حدثت به خسـائر جـسيمة وكرد فعل تلقـائى نهضـت دون تفكـير وهتفت بأعلى صـوتى « الله أكبر » فهب الجنود خلفى وهم يرددون نفس الهتـاف العظيم الذى صـار تياراً يدفعنا فى حماس ودون خوف لنتقـدم ونقتحم كأن صـدمة كهربائية قد أصـابتنا فتسـرى من شـعر الرأس إلى أصـبع القدم .

ولاحظ أمباشى كان يقف بجانبى أحد الإسرائيليين يقف على مقربة من زملائى وقد أمسـك فى يده المرفوعة فوق رأسـه قنبلة يدوية ورفع الأومباشى صـوته ليحذرنى فوجه بندقيته نحو الجندى الإسـرائيلى وفى تلك اللحظة لمحت يده وهى تكاد تقذف بالقنبـلة أمامى فقفزت جانباً فى الوقت المنـاسب . وعندما أفقت ، رأيت الجندى الإسرائيلى وقد مزقته القنبلة بعد أن أصـابه الأومباشى فسـقط على الفور إلا أن القنبلة انفجرت فيه قبل أن يتمكن من إلقـائها علىَّ .

وتنبهت على صوت بقية الجنود وهم يقتحمون بقية المواقع فى نجاح بعد أن أطلق أومباشى آخر من جنودى طلقة الإشارة الخاصة بنجاحنا فى اقتحام الموقع .

وأثناء تلك الفترة الرهيبة من الشلل التام ونحن أسرى أماكننا وأنا فاقد القدرة على التقدم أو حتى التقهقر قبل الاقتحام مرت علىَّ فترة تولتنى فيها رعشة الخوف الشديد إلا أن الله أراد أن يلقننى درساً خاصاً عملياً . وأنا على حالتى هذه حاولت إحدى الحمالات المدرعة أن تعاون فى الاقتحام فتقدمت فى سرعة فائقة صوب مواقع العدو وكان خلف الحمالة بعض الجنود وبرفقتهم ضابط يحتمون خلفها ، ولكن العدو تمكن من إصابة الحمالة فتوقفت عن الحركة واضطر طاقمها إلى اخلائها والانبطاح أرضاً وتملك الذعر الشديد الضابط الذى كان يحتمى خلف الحمالة فاستدار للخلف ، وأخذ يجرى وهو فى شدة الفزع ولكنه قبل أن يقطع مسافة كبيرة أصيب فى ظهره وسقط مضرجاً فى دمائه فكانت صورة الضابط وهو يولى ظهره للقتال خوفاً وفزعاً صورة ألهبت الحماس فى قلبى وتغلبت على مشاعر الخوف فى داخلى .

وتمت ترقيتى ترقية استثنائية من رتبة الملازم أول إلى رتبة اليوزباشى لاشتراكى فى هذه المعركة بفضل الله وإلهامه . ورحم الله زملائى من الفصائل الأخرى الذين استشهدوا فى هذه المعركة .

مرة أخرى وافقت مصر على الهدنة الثانية ويا ليت مصر لم توافق على أى من الهدنتين . فحتى معركة قبة الفناطيس كانت قواتنا متفوقة فى كل شىء إلا القيادة العليا . فقد أعطت فترة الهدنة الثانية فرصة للدول الكبرى لتدعيم وتقوية إسرائيل ، فوصل تسليحها إلى درجة عالية من القوة فلم يمكننا تحقيق أى نصر بعد ذلك حتى قيامنا بآخر معركة اشتركت فيها وهى معركة نجبا Nagba .

وعندما انتهت الهدنة الثانية واستأنفنا القتال صدرت الأوامر لقائد كتيبتنا التاسعة محمد كامل الرحمانى بالإعداد والاستعداد للهجوم على مستعمرة نجبا .

معركة نجبا

قبل المعركة بيومين قمنا مع قائد الكتيبة باستكشاف تفصيلى لأرض المعركة وبعد انتهائنا من الاستكشاف الأرضى ركبنا طائرة فاستكملنا بها عملية الاستكشاف من الجو .

وفى صباح يوم المعركة أخذ كل منا موضعه حسب الخطة التى أخذت تتكرر قبل كل معركة منذ معركة « ديرسنيد » و« نيتساليم » . فبدأت المدفعية فى الضرب التمهيدى ونحن خارج مرمى نيران أسلحة العدو الخفيفة . وتلا ذلك عملية التقدم على مراحل تخللها ضرب متقطع للمدفعية وفى المرحلة الأخيرة عندما اقتربنا من الأسلاك الشائكة فوجئنا بنيران هائلة تشتعل من داخل خندق عميق يحيط بالمستعمرة من جميع الجهات ، فتوقفنا عن التقدم ، والنيران تزداد اشتعالاً وكلما قاربت على الخمود تعاود الاشتعال مرة ثانية فيصعب على جندى المشاة اجتياز الخندق لعمقه واتساعه . فتعطلت عملية الهجوم وبذلك تأخرت عملية الاقتحام النهائى .

وتولانى الملل والإجهاد من طول الانتظار وحرارة الشمس الحارقة ورأيت خلفى إحدى المدرعات المشتركة فى المعركة فزحفت أنا والشاويش وهبه لنحتمى تحت هذه الدبابة من حرارة الشمس الشديدة وانتظاراً للفرج .

وأخذت أفكر فى إمكانية تكرار عملية الاقتحام كما قمت بها فى تبة الفناطيس . بدأت فى عمل الاختبار التقليدى برفع الخوذة على طرف السنكى بعد الزحف قليلاً من تحت الدبابة إلا أن نيران العدو كانت تنهال

على الخوذة كدليل على تمام استعداد العدو وتيقظه وسلامة خطوطه الدفاعية في حماية مانع النيران الرهيب الذى منحهم الوقاية الكافية لكى يعيدوا تنظيم خطوطهم الدفاعية التى أصابتها المدفعية المصرية خلال عملية الضرب التمهيدى .

وبعد أن قمت باختبار مدى يقظة العدو عدت مرة أخرى تحت الدبابة صارفاً النظر فى هذه اللحظة عن المجازفة بعملية اقتحام بمفردى . ويبدو أن الشاويش وهبه فى هذه اللحظة كان قد أصابه التعب من الوضع الذى استقر عليه تحت الدبابة ومن ضيق المساحة ، فحاول أن يستلقى على جنبه فرفع جنبه الآخر فأصيب فى الحال وتأوه بشدة ولكنه دون أن يشعر رفع جنبه الآخر فأصيب فيه وبعد فترة ترك لى الشاويش وهبه سلاحه واستأذن فى الانسحاب زاحفاً إلى الخلف . وعندما لاحظ العدو حركة الشاويش تحت الدبابة توالت النيران المركزة على موقعى ، فقررت التحرك من تحت الدبابة إلى مكان آخر . وقبل أن أهم بالزحف ناديت على جندى كان يرقد بجانبى فلم يجبنى ، فأخذت أدفعه بيدى كى أنبهه ليشترك معى فى عملية الزحف ولكنه كان جثة خامدة ، أصبح فى عداد الشهداء .

وانسحبت إلى العراء والشمس المحرقة ثانية ، وبعد طول انتظار عاودت تجربتى برفع الخوذة فلم تصدر أى طلقات فاعتقدت أن اللحظة الحاسمة قد جاءت معتقداً أن المدفعية المصرية قد نالت من خطوطهم الدفاعية ، فنهضت للاقتحام فلم أشعر إلا ودانة هاون من العدو تنفجر بالقرب منى فانبطحت أرضاً على الفور وتوالت دانات الهاون حولى فلم أشعر إلا والدماء تسيل من ساعدى وأحمد الله أن الدانات لم تصبنى إصابة مباشرة ، فقط أصابتنى شظايا متناثرة من دانات العدو . تم إخلائى للخلف فأجريت لى عملية

سريعة لتنظيف الجرح فى المستشفى الميدانى المتنقل ثم رحلت فى قطار الجرحى إلى مستشفى القاهرة . وعلمت وأنا فى القطار أن النيران فى خندق العدو استمرت مشتعلة حتى مغرب ذلك اليوم وأن الهجوم المصرى توقف مع انسحاب القوات المصرية فلم تستكمل هجومها بأى هجوم ليلى .

وصل قطار الجرحى الذى أقلنا من الجبهة حتى محطة امبابة خلف كازينو الكيت كات استعداداً لإخلائنا ونقلنا إلى مستشفى العجوزة ، ولشدة دهشتى سمعت أصوات الموسيقى الراقصة الصاخبة وهى تنبعث من ملهى الكيت كات وكأن البلاد لم تكن تخوض حرباً يسقط فيها العديد من الجرحى والقتلى كل يوم ، وأخذت أناجى نفسى « فرح وفساد هنا وتقشف وموت هناك » . وفجأة تعالت صفارات الإنذار لتصم آذان القاهرة منذرة بقيام إسرائيل بغارة جوية . لقد أصبح لدى إسرائيل طائرات قادرة على التجرؤ بضرب القاهرة والفضل للهدنة وتعزيزات الدول الكبرى .

عند وصولى إلى المستشفى سمعت أخباراً زادت من جزعى ، ونهضت محاولاً ارتداء ملابسى . كانت الغارة الجوية الإسرائيلية على القاهرة قد أسفرت عن تهدم أحد المنازل بحى عابدين وبالذات فى شارع البرامونى وهو نفس الشارع الذى يقع فيه منزل الأسرة وتقطن فيه والدتى وشقيقاتى الأربع .

وحاولت الخروج للاطمئنان عليهم ولكن أحد الأطباء الشبان منعنى وأصر أن يذهب هو ، وبالفعل عاد وبصحبته شقيقتى الكبرى التى فوجئت بى وطمأنتنى على سلامتهم وإن كان أحد المنازل المجاورة لنا قد تهدم ، فحمدت الله وشكرته على سلامة الأسرة .

ومرت علينا الأيام بالمستشفى وأخبار الجبهة تصلنا عن طريق إخوتنا من الضباط والجنود الجرحى الذين توافدوا على المستشفى فى أعداد كبيرة ، كان

الموقف يزداد سوءاً مع مرور الوقت ، وعلمنا بحصار كتيبة كاملة بأسلحتها المعاونة فى « الفالوجا » إلا أن الكتيبة صمدت صموداً رائعاً والعدو يحيط بها من كل مكان ولكنها تمكنت من صد جميع الهجمات بإصرار وأن قوافل التموين المسلحة تمكنت كذلك من اختراق هذا الحصار والوصول بالمؤن والذخائر للرجال المحاصرين . كما بلغنى أن كتيبتى التاسعة حوصرت هى الأخرى ولكنها تمكنت من الانسحاب إلا أن الانسحاب كان غير منظم فأصابتها خسائر كثيرة . وتوالت ضربات العدو حتى أمكنه مطاردة القوات المصرية داخل حدود مصر بالقرب من العريش .

ومع نهاية حملة فلسطين فشلت مصر فى تحقيق النصر المرجو فكان سوء الإعداد ، وتردى مستوى القيادة العسكرية العليا بالإضافة إلى ضعف وتبعية القيادة السياسية العربية عامة والمصرية خاصة . كانت جميع هذه الأسباب وراء ضياع حياة وتضحيات شباب المقاتلين المخلص . وزادت فى نفس الوقت من سخط وتبرم الضباط وأكدت لهم سلامة مشاعرهم تجاه مستعمرى وحكام البلاد . وبدأ الموقف السياسى يتدهور .

الأسلحة الفاسدة

لقد قيل الكثير عن أسباب هزيمتنا فى حملة فلسطين ، وعن الأسلحة الفاسدة ولكنى كضابط مشاة اشتركت فى بعض معارك فلسطين وتعاملت مع أسلحة المشاة ومع الأسلحة المساعدة حتى تمت إصابتى فى معركة « نجبا » لم أتعامل مع أية أسلحة أو ذخائر فاسدة أثناء العمليات .

ولكن بعد إيقاف القتال وإبرام اتفاقية الهدنة أثير هذا الموضوع فى الصحافة وأجرى تحقيق فيه تحت إشراف النائب العام وثبت أن عمولات

كبيرة استولت عليها شخصيات لها صلات وثيقة بالقصر ، وبالحكومة وذلك عن طريق التوسط لشراء السلاح للجيش المصرى أثناء الحملة . وثبت أيضاً أن هذه الشخصيات تمكنت من شراء كثير من الأسلحة والمعدات والعربات وبعض الطائرات من طراز فيات ، فاستولوا على عمولات كبيرة بالقرب من نهاية الحملة . كما ظهرت الأسلحة والذخائر الفاسدة خصوصاً فى سلاح المدفعية وذلك خلال المراحل الأخيرة من الاشتباكات فى الفترة ما بين الهدنة الثانية وهدنة إيقاف القتال النهائية . وضبط الكثير من هذه الأسلحة والذخائر الفاسدة موضوع هذه الصفقات المشبوهة بمعرفة لجنة عسكرية مدنية مشكلة بأمر النائب العام .

ومن لطف الله أنه لم يتم توزيع أغلب هذه المعدات الفاسدة على القوات المحاربة حيث أن اتفاقية الهدنة كانت قد أبرمت ، وانتهى القتال .

ضابط فى السجن الحربى

بعد ترقيتى استثنائياً إلى رتبة اليوزباشى ، وبعد شفائى ، انتدبت للعمل بالسجن الحربى ، وكانت ميزة هذا المكان أنه فى القاهرة التى يمكننى منها الاتصال بالحركات الوطنية .

توليت وظيفة أركان حرب السجن الحربى طوال فترة خدمتى فيه . كان قائد السجن الحربى أمين مصطفى الخشاب والذى كانت له مواقف وطنية رائدة سأعرض لها فى فقرات تالية . فضلاً عن أنه قام بعمل لقاء بينى وبين جمال عبد الناصر على أساس أنه يرأس تنظيماً آخر من الضباط الوطنيين . وكان الخشاب عضواً فى هذا التنظيم وسأعرض لذلك أيضاً فى الجزء الخاص بلقاء عبد الناصر .

ونقل الخشاب وحل محله القائد حافظ صدقى . وكانت فترة العمل بالسجن الحربى ميزة كبيرة لى ، ولنشاطى السياسى ، حيث كان لدى وقت الفراغ الكافى لأبذل جهداً مضاعفاً داخل تنظيم الضباط الوطنيين أو فى العمل السياسى نفسه وتدوين مذكراتى السياسية .

عودة إلى النشاط السياسى

بعد انتدابى للعمل بالسجن الحربى ، كان لدى وقت فراغ كبير أمكننى فيه أن أعاود النشاط السياسى ، والاتصال بمختلف التنظيمات الوطنية فى

القاهرة . كما خصصت وقتاً كافياً أيضاً لمعاودة التدريب على لعبتى الرياضية المفضلة : السيف والشيش وتم اختيارى فى فريق مصر فى البطولة الدولية التى أقيمت باستوكهلم فى السويد عام ١٩٥١ .

أعود للناحية السياسية ، فأذكر أننى عاودت الاتصال بمجموعة الضباط الوطنيين السابق ذكرها. استأنفنا الاجتماعات ولكن بعد خروج عدد منا للانضمام إلى تنظيم الحرس الحديدى الذى يعمل مع الملك فاروق وكان حلقة الاتصال الطبيب يوسف رشاد . والبعض الآخر تخلف عن حضور الاجتماعات وكنا نعلم أنهم انضموا إلى تنظيم آخر مع جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين وكمال حسين ويوسف منصور صديق وغيرهم . وعلمت أيضاً أن القائد محمد نجيب انضم لهم . ولكنى إلى هذا الوقت اكتفيت بالنشاط داخل التنظيم القديم . وكنت أعتبر أن أى مجموعة وطنية من الضباط يمكنها أن تكون تنظيماً ، ومهما تعددت التنظيمات فإن أهدافها ستكون واحدة وسوف تصل فى النهاية إلى تحقيق هدف واحد فى حدود خدمة بلادنا ما دامت كل تلك التنظيمات بعيدة عن القصر والأحزاب المحترفة ، وغير مرتبطة بأى تنظيمات مدنية سرية أخرى ونشط تنظيمنا نشاطاً كبيراً خصوصاً من ناحية تجميع معلومات عن مساوىء الملك ورجال القصر والحاشية والأحزاب وتجاوزات السفير البريطانى ، وبهلوانية أعضاء برلمانات الأغلبية الحزبية وكما زاد نشاطنا فى تثقيف أنفسنا سياسياً . كنا نتدارس التجاوزات والمآخذ على ضوء الأحداث السياسية اليومية . وكنا نسجل تلك التجاوزات ومجموعة منا كانت تحرر المنشورات ، وتشرح وتفند مساوىء تلك التجاوزات وتعليقنا الوطنى عليها . كنت مكلفاً بالطبع والتوريع فى حلقة ضيقة جداً يشاركنى فيها أحد الشبان الأقارب لى فقط (زيادة فى الحرص) وكان التنظيم يزودنى بعناوين منازل المرسل لهم المنشور

سواء من الضباط أو المدنيين أو الهيئات . وشيئاً فشيئاً ازدادت دائرة توزيع هذه المنشورات كلما زاد كشف التوزيع اتساعاً لمعرفة المزيد من العناوين الخاصة . وكانت المنشورات توزع بالبريد على بعض الهيئات الشعبية والضباط والسياسيين والصحفيين . وكانت أمامى مشكلة الحصول على آلة كاتبة أنسخ عليها المنشورات وكذا ماكينة الطباعة الرونيو . أما عن الآلة الكاتبة فقد تمكنت من حلها ، فقد كان لى ابن عم محامى كبير له مكتب بالعتبة الخضراء فوق محلات توت عنخ أمون الحلوانى بأول شارع محمد على وهو الأستاذ عباس فضل المحامى وكان رغم فارق السن بينى وبينه صديقاً عزيزاً وكان يعمل لديه ابن عمتى أحمد عفيفى الموظف فى مصلحة التنظيم (مسئولة عن نظافة العاصمة) وذلك فى وقت فراغه وكان يتولى الكتابة على الآلة الكاتبة الموجودة بالمكتب . وكنت أزور المكتب كثيراً . فلم يستجد شىء عند وجودى كثيراً بالمكتب . وكنت أنتظر عودة ابن عمى المحامى للمنزل وتوصيله إلى الترام الذى يركبه متجهاً إلى مسكنه بالعباسية ونعود أنا وابن عمتى أحمد عفيفى أبو الفضل ونفتح المكتب بالمفتاح الذى لديه بصفته موظفاً بالمكتب وأتولى أنا إملاء المنشور عليه وهو يكتبه وكانت ماكينة الآلة الكاتبة من صنف قديم جداً ماركة Underwood أتذكر ذلك جيداً لأنى كنت أعلم أن آلات الكتابة الحديثة توجد لدى القلم السياسى ، أو القسم المخصوص صورة من كتابتها وحروفها جميعاً ، ولكن هذه الآلة الكاتبة بالقطع لم يكن لديهم علم بها لأنه بعد أن جازفت بعمل منشور عليها لأول مرة لم يحدث أى رد فعل فواصلت استعمالها دون علم ابن عمى ، صاحبها .

أما عن آلة الطباعة . فقد وفقت إلى صديق وزميل من أيام الدراسة الثانوية كان والده يملك مكتبة كبيرة بها آلات طباعة رونيو للبيع . وأمكننى عن طريق صديقى أن نستعير من والده إحدى آلات الطباعة القديمة بحجة

أنه سيطبع عليها فى منزله مذكرات للطلبة فى الجامعة ، ونجحت فى أن أستعيرها منه من وقت إلى آخر كلما شرعت فى طبع أحد المنشورات . وكان الطبع يتم أيضاً فى شقة ابن عمتى أحمد عفيفى بشقته أعلى المنزل ، بحى السيدة زينب .

وكان يساعدنى هو فى عملية الطبع . ثم يقوم بيده اليسرى بكتابة العناوين على مظاريف التوزيع العادية .

أما عملية التوزيع فإنه أمكننى بعد حملة فلسطين ، أن أشترى من مدخراتى عربة صغيرة فيات موديل بليلة فقد كنت أقوم وحدى وبعربتى البليلة بالتوزيع بإسقاط كمية من المنشورات فى كل صندوق بريد أجده فى طريقى وكنت أبدأ من مصر الجديدة إلى باقى أحياء القاهرة ولأجل اختبار مدى تأثيرها على الضباط كنا ندعو فى بعض هذه المنشورات إلى اجتماع بنادى الضباط بالزمالك فى يوم وساعة محددتين . أما لجنة تحرير المنشور فكانت مكونة من الزملاء : مصطفى نصير وعبد الحميد كفافى وأبو الفضل الجيزاوى . وكانت تلك المنشورات ترسل وتوزع أيضا على جميع دور الصحف ورؤساء التحرير بل والذين نكتب ضدهم المنشور من السياسيين والمفسدين .

وكانت الاجتماعات التى ندعو لها بالمنشور يحضرها أعداد كبيرة من كبار وصغار الضباط . وكان يواظب على حضورها جميعا اللواء محمد نجيب وشقيقه اللواء على نجيب . لم يكن يتم فى تلك الاجتماعات أى نشاط أو كلام بالطبع ، وكنا فقط فى شبه مظاهرة لا يُعرف منظمها والكل يسلم على الآخر ونتناول المشروبات الخفيفة ثم الأحاديث العادية وكل منا ينظر للآخر فى ريبة وتخمين لاستكشاف من هو مصدر هذه المنشورات والدعوة إلى هذه الاجتماعات .

الحصول على السلاح

تعرفت فى نادى السلاح إلى الزميلين صلاح دسوقى وحسن التهامى وكانا فى تنظيم وطنى على صلة بعزيز المصرى باشا ، وذهبت عدة مرات مع صلاح دسوقى لمقابلة عزيز المصرى . وكان فعلاً هو الأب الروحى لمعظم المكافحين الوطنيين ولكن لم يفاتحنى أى منهم فى دخول أى تنظيم ولم أعرف أكثر من أنهم كانوا يجتمعون لديه للحديث فى الأوضاع المقلوبه بالإضافة إلى الأحاديث الثقافية . ولكن صلاح دسوقى فاتحنى فى أحد الأيام عما إذا كان يمكننى أن أحصل لهم على أسلحة وخصوصاً المدافع الرشاشة (البرن) وكان لى أحد المعارف ممن يعملون فى سلاح الصيانة بالجيش ، فقد فاتحته فى ذلك وذهبت لزيارته بمنزله فى مكان بالقرب من القلعة . وكان منزله عبارة عن حوش كبير به حجرات فى منطقة المقابر . وعرض على للفحص كثيراً من هذه الأسلحة يحتفظ بها فى خندق تحت أرضية الغرفة . اتفقت معه على الأثمان ثم اتصلت بصلاح دسوقى وحسن التهامى وذهبنا سوياً بعد عصر أحد الأيام وأخذنا ترام رقم ١٣ من العتبة حملنا إلى القلعة واستلمنا مدفعين رشاشين مفكوكين بعد أن دفع صلاح الثمن . وأحضر لنا هذا التاجر صحفاً كثيرة لففنا قطع المدفعين فى ثلاث لفات كل منا حمل جزءاً منها وركبنا الترام وعدنا إلى نادى السلاح بحديقة الأزبكية وحفظناها بدواليب ملابسنا الخاصة بنا كل لفة فى دولاب إلى أن أحضر حسن التهامى عربة فى اليوم التالى وأخذها فيها وتكررت عملية شراء السلاح عدة مرات . وعلمت فيما بعد عند إلغاء معاهدة ١٩٣٦ أن هذه الأسلحة كان يستعملها أعضاء تنظيم عزيز المصرى فى مقاومة الإنجليز بالقتال .

موقف وطنى لا ينسى

فى أواخر عام ١٩٥١ كنت لا أزال أعمل بالسجن الحربى . وفى أحد الأيام ، عقب عودتى من التفتيش على السجن الحربى بالإسكندرية ، حيث قضيت يومين هناك وبمجرد دخولى من باب السجن بالعباسية ، لكى ألتقط سيارتى (الفيات) البليلة الخضراء التى كنت قد تركتها بفناء السجن ، تم إبلاغى أن قائد السجن أمين مصطفى الخشاب ينتظرنى عند العودة وعلىَّ أن أتوجه إلى مكتبه فوراً .

دخلت على قائدى فبادر بإخبارى أن قائد البوليس الحربى عصام المصرى حضر إليه بالأمس خلال وجودى بالإسكندرية ومعه كشف بأرقام سبع أو ثمانى سيارات مدنية .. وأن إحدى هذه السيارات خضراء اللون وقد شوهدت فى إحدى الليالى خلف قسم عابدين ، ترجل منها شخص أسقط رزمة من المظاريف فى صندوق البريد المثبت خلف جدار قسم عابدين . وسأل الخشاب قائد البوليس الحربى لماذا يتم البحث عن سبع أو ثمانى سيارات مادامت السيارة المشتبه فيها واحدة ؟ فأجابه بأن عسكرى البوليس لم يتمكن من قراءة جميع أرقام السيارة ربما لعدم إجادته القراءة أو لأن الإضاءة ليلاً لم تكن كافية أو لكلا السببين معاً . ولذلك تمكن من التقاط رقمين فقط من أرقام السيارة الستة . وأن البوليس اتصل بقلم المرور الذى أحضر كشفاً بعدد السيارات التى يشترك فيها هذان الرقمان ، ومن المتوقع

أن تكـون من بينهـا سـيارة خضـراء اللون وأنه قد تم حصـر سـبع أو ثمانى سـيارات مدنية ، وإحدى هذه السـيارات مملوكة لضـابط بالجيش المصـرى يعمل بالسـجن الحربى واسـمه محمد عبد الفتـاح أبو الفضـل ولذلك جاء قائد البوليس الحربى ىـتأكد من رقم ولون هذه السـيارة .

عند ذلك الحد توقف الخشـاب عن سـرد القصـة وسـألنى مبتسـماً إن كنت فعلاً قد اشـتركت فى توزيع أى منشـورات فأنكرت بطبيعة الحـال ، وكان الخشـاب ضـمن من وصـلهم أحد هذه المنشـورات ، فأخرج المنشـور من درج مكتبه وسـلمه لى وهو يضـحك . ثم قال أنه ذكر لقـائد البوليس الحربى أن العربة التى جاءت بالكشـف والتى أمـلكها ليست خضـراء اللون ولكنها ذات لون رصـاصى غامق وبذلك انتهى الموضـوع عند هذا الحد (حيث ان ألوان السـيارات فى ذلك الوقت لم يكن يتم تدوينها فى رخصـة السـيارة) فإذا ما تم تغيير لون السـيارة لن يكـون فى وسـع قائـد البـوليس الحربى أن يتأكد من شىء . وابتسـم قائدى الخشـاب وهو يصـافحنى قائلاً إنه قد حان الوقت لأن أسـرع بالعودة إلى المنزل ، فآخذ سـيارتى فوراً لكى أدهنها باللون الرصـاصى الغـامق فوراً .

وبالفعل تركته وذهبت لكى ألتقط سـيارتى من فناء السـجن وتماوجت فى داخـلى مشـاعر الدهشـة والامتنان وأنا أنظر إلى سـيارتى التى وجدت لونها قد تبـدل فعـلاً من الأخضـر إلى الـرصـاصى الغـامق . وعلمت بعد ذلك أن القـائد الخشـاب بعد انصـراف قائد البوليس الحربى بادر بإحضـار عدد من المسـجونين الذين يجيدون دهان السـيارات فقاموا فى وقت قصـير بإزالة اللون الأخضـر تمامـاً . ثم قام قائدى واشـترى على نفقته مسـدس « دوكو » وكلفهـم بالدهان والتـلميع حتى تبدل لون السـيارة .

لم ولن أنسى هذا التصـرف الـرجـولى من قائـدى الخشـاب الذى يعبر

أصـدق تعبير عن علاقـات الإخـاء والرجولة والشـهامة والوطنية فى تلك الأيـام .

فى اليوم المذكور ، قبل قيامى بمهمة التفتيش على سـجن الإسـكندرية ببضـعـة أيـام كان على أن أقـوم بتـوزيع أحـد المنشـورات التى كان يقـوم بتحضـيرها تنظيم الضـباط الوطنيين . وعندما قمت بتوزيع آخر دفعة من هذا المنشـور كان لايزال فى حوزتى فائض منها ، وأنـا عند سـينما رويال (مسـرح الجمهورية حاليـاً) بشـارع ابراهيم باشا وهى قريبة من منزلى فى طريق عودتى من المحطة وجدت صـندوق بريد خلف قسـم عابدين ، فتركت السـيارة أمـام سـينـما رويال وأسـقـطت المظـاريف بالصـندوق وعدت مسـرعاً مسـتكملاً طريقى إلى المنزل . ويبدو أنه لكثرة تعدد توزيع المنشـورات بواسـطة البريد قام القـلم السـياسى (القسـم المخصـوص) بمـراقبة بعض صـناديق البريد ، وكان هذا الصـندوق ضـمن الصـناديق المراقبة .

لقـاء مـع عبـد النـاصـر

بعـد مرور عدة أيـام على هذه الأحـداث كانت مشـاعـر عدة لاتـزال تسيطر على . كنت لاأزال متأثراً من الموقف الوطنى لقـائدى الخشاب وزاد من تأثرى عدم قدرتى على إبداء امتنانى وشـكرى حتى لا أنكشـف أكثر من ذلك ، كذلك اسـتوعبتنى مشـاعر الضـيق لعدم توافر الحرص الكامـل أثناء العمل فى المنشـورات .

وقبل أن أفيق من هذه الحـالة فاجـأنى الخشـاب بالزيارة فى مكتبى ، وعلى انفراد أبـلغنى أن جمال عبد النـاصر يريد مقابلتى وعلى أن أنتظره بعد موعد العمل ظهراً حتى ننصـرف سـوياً فى سـيارة الخشـاب لمقـابلة جمال .

وكانت معلوماتى عن عبد الناصـر فى ذلك الوقت أنه أحد الضـباط الذين تم حصـارهم فى الفـالوجا خلال حملة فلسـطين حيث كان أركانحرب القوة

المحـاصرة . وخلال الحصـار عرف عنه هدوء الأعصـاب كما تميز بالتصـرفات القتـالية الدقيقة الفعـالة فأظهر شـجاعة لم ينكرها زملاؤه وجنوده . ورغم توالى الهجوم الإسـرائيلى على القوة المحـاصرة تمكن مع زملائه من رفع الروح المعنوية للمقـاتلين المصـريين .

وعلمت أيضـاً أنه أثناء الحصـار تعرف على نخبة من الضـباط الشـبان كان من أبـرزهم زكـريا محيى الدين ولطفى واكد وسـعد الجمـال والضـابط كشـك . وبعد عودتهم من فلسـطين كون عبد النـاصر مع لفيف من الضـباط تنظيماً سـرياً انتشـر على شـكل خلايـا .

وخلال عملى فى السـجن الحربى كان عبد النـاصر وصـلاح وجمال سـالم يكثرون من التردد على الخشـاب ولذلك عندما أخبرنى بأن عبد النـاصر يريد مقابـلتى اسـتنتجت أن يكون الخشـاب قد أخبر عبد النـاصر بواقعة الاشـتباه وأن الخشـاب قد يكون من ضـمن التنظيمات الثورية للضـباط التى لها علاقة بتنظيم عبد النـاصر .

وصـلنا إلى منزل عبد النـاصر وكان فى منشـية البكرى فى الحى المقـابل للمدرسـة الثـانوية العسـكرية ، وجلسـنا فى حجرة بالدور الأرضى تطـل على الشـارع . وأثناء الحديث أبـلغنى أنه يعلم أننى أسـاهم مع جماعة أخرى فى طبع وتوزيع المنشـورات وأن هذه الجمـاعة التى أنتمى إليهـا سـبق واعتقل عدد كبير منها (٢٩ ضـابطاً) فى أكتوبر ١٩٤٧ وأن نشـاطنا مكشـوف بعض الشىء حيث أصـبح لبعض أعضـاء هذا التنظيم سـجلات فى ملفـات القـلم السـياسى بالداخلية ولو أننى شـخصياً لم يتم اعتقـالى .

وتوقف قليـلاً ثم أخبرنى أن لديه منشـوراً يريدنى أن أتولى نسـخه وطبعه وتوزيعه . واتفقنا على موعد ومكان اللقـاء لأسـتلم منه مادة المنشـور وذلك أمـام محلات حلاوة بميدان العتبة الخضـراء .

وفى الموعد والمكان المحددين (أمام محلات حلاوة بالعتبة) وصل جمال عبد الناصر مستقلاً سيارته الصغيرة السوداء . وسلمنى مظروفاً به المنشور محرراً بخط اليد وكمية من أوراق الطبع الاستنسل . وطلب منى استلام ماكينة الطباعة من صلاح نصر الذى ينتظرنى فى مدرسة الشئون الإدارية بالجيش على أن أعيدها له بعد إتمام الطبع .

كالمعتاد ذهبت بالمظروف إلى مكتب ابن عمى وانتظرت حتى قمنا باصطحابه - كالعادة أيضاً - إلى محطة الترام ، ليعود إلى منزله ثم عدنا مرة أخرى إلى المكتب . كان منشور عبد الناصر مطولاً ، يحتاج إلى عدة صفحات مما يصعب من عملية توزيعه داخل المظاريف الصغيرة . وبالفعل أعدت كتابة المنشور بعد اختصاره بحيث احتفظت بجميع عناصره وبحيث لا يتعدى صفحتى فولسكاب . وفى اليوم التالى ذهبت حسب الاتفاق لصلاح نصر واستلمت منه ماكينة الرونيو (الطباعة) التى حملتها فى عربتى ليتم الطبع بمنزل ابن عمى بالسيدة .

وبعد أن تم طبع وتوزيع المنشور التقيت مرة أخرى بجمال عبد الناصر ، فحذرنى ثانية بأن تنظيمنا مكشوف وعلينا أن نكون أكثر حرصاً وحذراً .

ومن الطريف أنه خلال كتابة منشور عبد الناصر فى مكتب ابن عمى سمعت أزيز آلات التنبيه التابعة للشرطة ، فخرجت من باب المكتب ووقفت على بئر السلم التابع للمبنى لأرى بنفسى ماذا يحدث ففوجئت بجنود ومخبرى الشرطة ، يصعدون مسرعين فأنطقنى الله بذكره طالباً حمايته . وأصابنى وجوم الخوف فإذا بقوة الشرطة تتركنى متجمداً فى مكانى على السلم وتنطلق إلى الأدوار العليا لتدهم شقة كانت تدار لأعمال مخلة بالآداب .

٢٣ يوليو على الأبواب

بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، كانت حكومة الوفد شبه جادة فى مساعدة أعمال المقاومة ، واتخذت إجراءات مدنية وعسكرية لاحتمال عودة الجيش الإنجليزى من القتال لاحتلال القاهرة . لذلك صدرت أوامر رئاسة الجيش باتخاذ مواقع دفاعية عن القاهرة ، ووضعت خطة عسكرية لذلك كان من نصيبى أن أكون بالكتيبة التاسعة مشاة ، والوحدة التى أقودها مكلفة بالدفاع عن منطقة مطار إنشاص ضد نزول القوات البريطانية

وعند وصولى لموقع مطار إنشاص مع ضباطى وجنودى ، تحدثت معهم فى بادىء الأمر بأن هذا واجب وطنى ، ويجب علينا أن نكون عند حسن ظن شعبنا . ولذلك يجب أن نبذل مجهوداً شاقاً فى التدريب .

وبدأت بتنفيذ خطتى ، فوضعت مواقع من البراميل المملوءة زلطاً وحجارة ورمالاً على ممرات الطائرات وبشكل مكثف ليعوق تماماً نزول الطائرات المعادية بالمطار ، وقمت باختيار أماكن دشم متبادلة (مواقع ضرب نار دفاعية) تحقق تكاملاً دفاعياً تاماً ، بحيث تغطى الدشم بعضها بالنيران فإذا احتل العدو دشمة تستطيع الدشم الأخرى الضرب عليها . وأحضرت المواد المثالية لتكسية وتقوية وتعريش هذه الدشم على نمط دشم المواقع الإسرائيلية فى مستعمراتهم والتى كانت أثناء حملة فلسطين ـ تقاوم هجومنا مقاومة شديدة وكانت هذه الدشم أيضاً تغطى بنيرانها مواقع هبوط

الطائرات (البراميو المملوءة رملاً وحجارة) كذلك كانت الدشـم تضـرب فى جميع الاتجاهـات حتى إذا كان الهجوم من الأجنـاب والخـلف أمكن التعامُـل معـه . وبـذل الجنـود والضبـاط جهـوداً شـاقـاً فى إعـداد الدشـم وخنادق المواصـلات بينها لإخفاء تحركات الإمداد وتعويض الخسـائر والإحـلال وذلك فى حماية من نيران العدو ووضـعت خطة للراحة بحيث يكون الجندى والضـابط فى منتهى النشـاط عندما يجد الجد . وأنشـأت لهم مكاناً للراحة وكذلك أماكن محفـورة بعمق كبـير لإخفاء العربات ووقايتها من الضـرب ليسـهل خروجها ودخولهـا إلى هذه الخنـادق الكبيرة .

وبعد إتمـام هذه التجهيزات التى أخذت وقتاً طويلاً بدأت فى تدريبهم على الاحتلال السـريع للمواقع بمجرد أن يطلق الإنذار بالخطر ، وأجرينا عدة تجارب حتى وصـلنا إلى رقم قياسى فى ذلك . وحضـر ذات يوم للمرور أمين هويدى أركانحرب اللواء ، وكان حضـوره صـدفة ، وكنا وقتها نقوم بإجراء تجربـة على احتـلال المـواقع ، وظل - قبل أن يقابـلنى - يراقب فى إعجـاب وتقدير هذا المسـتوى المرتفع من كفاءة الجندى المصـرى إذا أحسـنت قيادته .

لقـاء فى القطـار العـائد إلى العـريش

أثناء حريق القـاهرة كنت فى اجـازة ميدانية لزيارة أسـرتى بالقـاهرة ، وبعد الحريق بيوم واحد - وكانت نهاية الاجـازة - عدت إلى العريش بالقطار (٢٨ / ١ / ١٩٥٢) وكـنـت قد حضـرت حريق الـقـاهـرة وسرت مع المتظاهرين أشـاهد ما يعملون إلى أن بدأ الشـغب فى ميدان الأوبرا فعدت إلى منزلى فى عابدين فوراً .

وبمرورى على ميدان عابدين كان الميدان محتشـداً بعربات ضـباط الجيش

وهم يغادرون وليمة القصر فى عجلة من أمرهم . وبين وقت المغرب والعشاء كنت أسمع أصوات الانفجارات من منزلنا يتخللها أصوات إطلاق نيران . وصعدت إلى السطح بعد المغرب . وكان منظر القاهرة فى منتهى البشاعة ، دخان كثيب وكثيف ولهيب مرتفع وسواد الدخان يكون سحابة قاتمة والإذاعة سكتت عن إذاعة الأنباء . وفى ساعة متأخرة علمنا من الإذاعة أن الجيش نزل إلى الشوارع ، وانه سيطر على الموقف .

وأثناء وجودى بالقطار المتجه إلى العريش لأعود لوحدتى بعد الإجازة كان لقاء بالصدفة فى أحد صالونات القطار بصلاح سالم وعبد الحكيم عامر ـ وكانا يعملان برئاسة القوات المصرية برفح ـ وتحدثنا مع لفيف آخر من الضباط عن أحداث حريق القاهرة ، وكان حديثاً عاصفاً انعكست فيه مشاعرنا المكبوتة .

وفجأة دخل علينا ضابط مخابرات اللواء وكنا نعرفه ونعرف ولاءه الكامل للسلطات الحاكمة مهما كان لونها أخذ يبحث ـ وهو واقف بالباب ـ عن مكان يجلس فيه معنا . وفجأة أيضاً صمتنا جميعاً فى وقت واحد وأخذنا ننظر له فى عدم ترحيب بوجوده معنا ، ولحسن الحظ لم يكن هناك مكان له ولم يرد أحد الجالسين أن يفسح له مكاناً بجانبه ، وعاد وأعطانا ظهره بعد أن أغلق الباب علينا وأخذنا ـ بعد أن غادرنا ـ تضحك فى نفس واحد .

وللأسف ، فإن هذا الضابط استطاع أن يحصل ـ فيما بعد ـ على ثقة مجلس قيادة الثورة ، وتبوأ مراكز حساسة جداً .

انتخابات نادى الضباط

كانت لائحة نادى ضباط الجيش حتى اخر عام ١٩٥١ تقضى بأن يعين رئيس مجلس الإدارة والأعضاء بحكم مراكزهم فى الجيش ، وكانت تسخر إمكانيات نادى الضباط فى غير صالح القاعدة الكبيرة من الضباط علاوة

الطائرات (البراميو المملوءة رملاً وحجارة) كذلك كانت الدشم تضرب فى جميع الاتجاهات حتى إذا كان الهجوم من الأجناب والخلف أمكن التعامل معه . وبذل الجنود والضباط مجهوداً شاقاً فى إعداد الدشم وخنادق المواصلات بينها لإخفاء تحركات الإمداد وتعويض الخسائر والإحلال وذلك فى حماية من نيران العدو ووضعت خطة للراحة بحيث يكون الجندى والضابط فى منتهى النشاط عندما يجد الجد . وأنشأت لهم مكاناً للراحة وكذلك أماكن محفورة بعمق كبير لإخفاء العربات ووقايتها من الضرب ليسهل خروجها ودخولها إلى هذه الخنادق الكبيرة .

وبعد إتمام هذه التجهيزات التى أخذت وقتاً طويلاً بدأت فى تدريبهم على الاحتلال السريع للمواقع بمجرد أن يطلق الإنذار بالخطر ، وأجرينا عدة تجارب حتى وصلنا إلى رقم قياسى فى ذلك . وحضر ذات يوم للمرور أمين هويدى أركانحرب اللواء ، وكان حضوره صدفة ، وكنا وقتها نقوم بإجراء تجربة على احتلال المواقع ، وظل ـ قبل أن يقابلنى ـ يراقب فى إعجاب وتقدير هذا المستوى المرتفع من كفاءة الجندى المصرى إذا أحسنت قيادته .

لقاء فى القطار العائد إلى العريش

أثناء حريق القاهرة كنت فى اجازة ميدانية لزيارة أسرتى بالقاهرة ، وبعد الحريق بيوم واحد ـ وكانت نهاية الأجازة ـ عدت إلى العريش بالقطار (٢٨ / ١ / ١٩٥٢) وكنت قد حضرت حريق القاهرة وسرت مع المتظاهرين أشاهد ما يعملون إلى أن بدأ الشغب فى ميدان الأوبرا فعدت إلى منزلى فى عابدين فوراً .

وبمرورى على ميدان عابدين كان الميدان محتشداً بعربات ضباط الجيش

وهم يغادرون وليمة القصر فى عجلة من أمرهم . وبين وقت المغرب والعشاء كنت أسمع أصوات الانفجارات من منزلنا يتخللها أصوات إطلاق نيران . وصعدت إلى السطح بعد المغرب . وكان منظر القاهرة فى منتهى البشاعة ، دخان كثيب وكثيف ولهيب مرتفع وسواد الدخان يُكون سحابة قاتمة والإذاعة سكتت عن إذاعة الأنباء . وفى ساعة متأخرة علمنا من الإذاعة أن الجيش نزل إلى الشوارع ، وانه سيطر على الموقف .

وأثناء وجودى بالقطار المتجه إلى العريش لأعود لوحدتى بعد الإجازة كان لقاء بالصدفة فى أحد صالونات القطار بصلاح سالم وعبد الحكيم عامر ـ وكانا يعملان برئاسة القوات المصرية برفح ـ وتحدثنا مع لفيف آخر من الضباط عن أحداث حريق القاهرة ، وكان حديثاً عاصفاً انعكست فيه مشاعرنا المكبوتة .

وفجأة دخل علينا ضابط مخابرات اللواء وكنا نعرفه ونعرف ولاءه الكامل للسلطات الحاكمة مهما كان لونها أخذ يبحث ـ وهو واقف بالباب ـ عن مكان يجلس فيه معنا . وفجأة أيضاً صمتنا جميعاً فى وقت واحد وأخذنا ننظر له فى عدم ترحيب بوجوده معنا ، ولحسن الحظ لم يكن هناك مكان له ولم يرد أحد الجالسين أن يفسح له مكاناً بجانبه ، وعاد وأعطانا ظهره بعد أن أغلق الباب علينا وأخذنا ـ بعد أن غادرنا ـ نضحك فى نفس واحد .

وللأسف ، فإن هذا الضابط استطاع أن يحصل ـ فيما بعد ـ على ثقة مجلس قيادة الثورة ، وتبوأ مراكز حساسة جداً .

انتخابات نادى الضباط

كانت لائحة نادى ضباط الجيش حتى اخر عام ١٩٥١ تقضى بأن يعين رئيس مجلس الإدارة والأعضاء بحكم مراكزهم فى الجيش ، وكانت تسخر إمكانيات نادى الضباط فى غير صالح القاعدة الكبيرة من الضباط علاوة

على إقامة الحفلات الساهرة فى المناسبات الملكية من ميزانية النادى (حصيلة اشتراكات الضباط) .

ومنذ منتصف عام ١٩٥١ كان الجو العام فى البلاد مشحوناً بالسخط على الملك وحاشيته وعلى ساسة البلاد المستسلمين لإرادة الملك وكان الجو السياسى مشحوناً بالتحفز الشعبى خصوصاً أثناء المقاومة بالقتال . وكان الملك يستعين لفرض إرادته وتهديد خصومه واغتيالهم بزمرة من ضباط الجيش المغامرين ، أطلق عليهم اسم الحرس الحديدى وهم : الدكتور يوسف رشاد ، وحسن التهامى ، ويوسف حبيب وخالد فوزى ، وعبد الرؤوف نور الدين ، ومصطفى كمال صدقى ، وحسن فهمى عبد المجيد ، وعبد القادر طه ، وسيد جاد عبد الله سالم .

وبلغ من خطورة دور هذا التنظيم الإرهابى أنه عندما اختلف الملك مع أحد أفراد الحرس الحديدى نفسه الضابط عبد القادر طه قام الحرس الحديدى باغتيال هذا الضابط بأوامر الملك . تلاقى السخط العام مع نفوس الضباط الثائرة ، وانتهز القائمقام أركانحرب رشاد مهنا مناسبة موعد تجديد مجلس إدارة نادى ضباط الجيش ، والتى جرت العادة على تجديدها بالتعيين ، وأراد أن يفتعل أحداثاً فيها معنى التحدى لتصرفات الملك ، تعبيراً عن حالة السخط فى البلاد بصفة عامة ، وفى الجيش بصفة خاصة . وتصدى رشاد مهنا لعملية التعيين فى مناصب مجلس الإدارة ، وأخذ منذ منتصف عام ١٩٥١ فى الدعوة وسط زملائه من الضباط للمطالبة بإجراء تعديل للائحة بحيث تصبح جميع مراكز مجلس إدارة النادى بما فيها مركز الرئيس بالانتخاب من جمعية عمومية أعضاؤها جميع ضباط الجيش أعضاء النادى كالمتبع فى كل نوادى الهيئات . واستطاع رشاد مهنا بعلاقاته

الواسعة ، واتصالاته بضباط مختلف الأسلحة والوحدات من عقد اجتماع بنادى الضباط بعد منتصف عام ١٩٥١ .

اجتماع بنادى الضباط

قبل هذا الاجتماع بعدة أيام وصلتنى تعليمات شفوية من مجموعة الضباط الوطنيين السرية التى أنتمى إليها بضرورة حضور اجتماع فى نادى الضباط فى ميعاد محدد للبحث فى موضوع تغيير لائحة النادى والدعوة إلى اجتماع جمعية عمومية من جميع الضباط .

وحضر عدد كبير جداً من الضباط الشبان وكانت النفوس جاهزة للتفاعل مع أى دعوة لإظهار التحدى المعبر عن السخط العام وسيطر رشاد مهنا على الاجتماع وكان ملخص كلامه أن نادى الضباط يجب أن يكون لخدمة الضباط وليس لغيرهم ، ويجب أن يديره ضباط يمثلون مختلف الأسلحة وبإرادتهم . لذا يجب تغيير اللائحة ليمكن انتخاب مجلس إدارة يمثل ضباط الجيش تمثيلاً حقيقياً . وأن تكون هذه الانتخابات بإرادة الضباط وليس بإرادة آخرين أو بالتعيين .

التهديد

بعد أيام من الاجتماع السابق اتصل ضابط المخابرات التركى الأصل إسماعيل فريد (وكان له علاقة بالقصر الملكى) برشاد مهنا وأبلغه أن مولاه الملك غير راض عن الاجتماع الذى تم بالنادى وأفهمه رشاد مهنا أن موضوع الاجتماع والدعوة للجمعية العمومية كانا بعلم رئيس أركانحرب الجيش ورئيس إدارة الجيش حيث سبق أن قابلهما رشاد مهنا وأبلغهما بهذا الاجتماع قبل انعقاده .

وتأكد إسماعيل فريد والذى يمت للعائلة المالكة بصلة من علم رئيس هيئة أركانحرب ورئيس إدارة الجيش وسأل رشاد مهنا عن الحل لهذا الموقف فأجاب رشاد مهنا ان الحل يتلخص ببساطة فى التصديق على اجتماع الجمعية العمومية وإجراء الانتخابات .

إجتماع الجمعية العمومية

أصدرت إدارة الجيش كتاباً دورياً بدعوة الجمعية العمومية لنادى ضباط الجيش فى الساعة الخامسة من مساء يوم **٣١** ديسمبر سنة **١٩٥١** بقاعة السينما الصيفى بقشلاق العباسية . حضر حوالى **٤٥٥** ضابطاً ، وهو أكثر من العدد القانونى الذى يقتضيه اجتماع الجمعية العمومية (أكثر من ١٠ ٪ من مجموع أعضاء النادى من الضباط) . كان رئيس إدارة الجيش ورئيس هيئة أركانحرب عثمان المهدى باشا خارج قاعة الاجتماع ، ونبها على رشاد مهنا بعدم اعتلاء المنصة لأمر ما . وكان يدير الجلسة رئيس وأعضاء مجلس الإدارة السابق والمعينين . وكثر الجدل حول اقتراح تعديل اللائحة وكاد الاجتماع يفشل لولا أن طالب رئيس هيئة أركانحرب من رشاد مهنا باعتلاء المنصة وانقاذ الموقف ، وسيطر رشاد مهنا على الموقف حيث اقترح فى الحال ومباشرة ، عرض مشروع اللائحة الداخلية المقترحة ، وقرأها ، وكانت تتضمن صراحة على ضرورة إجراء الانتخابات ، وعرضها للتصويت وحازت على الموافقة بأغلبية الأصوات وبالتصفيق المتواصل من أغلبية الضباط الحاضرين . وقام أحد ضباط سلاح الحدود والذى كان يقوده حسين سرى عامر عميل القصر الملكى وطالب بضرورة تمثيل الحدود بعضو فى مجلس الإدارة الجديد وعارض رشاد مهنا بحجة أن سلاح الحدود يجمع ضباطاً منتدبين من مختلف الأسلحة التى لها أماكن فى مجلس الإدارة .

وعرض رشـاد مهنا هذا الاقتراح للتصـويت ورفض الاقتراح بالأغـلبية أيضـا . ثم انتقل رشـاد مهنا مباشـرة إلى عملية الانتخابـات وتمت .

وكان أول اجتماع لمجـلس إدارة النـادي الجديد فى أوائـل يناير ١٩٥٢ وفى هذا الاجتماع تم اختيار وانتخاب رئيس وأعضـاء المكتب التنفيذى لمجـلس الإدارة وكان كالآتى :

أميرالاى أركانحرب حسـن حشمت نائبـاً للرئيس ، بكباشى عبد الرحمن أمـين سـكـرتـيراً عامـاً ، قائـد أسـراب حسـن ابراهيم السـيد سـكـرتـيراً مسـاعـداً ، يوزبـاشى بحـرى أحمد عبد الغنى مرسى سـكرتيراً مسـاعداً ، يوزبـاشى أمـين شـاكـر سـكـرتيراً مسـاعداً ، بكباشى أركانحرب مهندس ابراهيم فهمى دعبس أميناً للصـندوق .

وفى نفس الجلسـة اتفق مجلس الإدارة على البدء فى اتخاذ إجراءات من شـأنها أن تشـعر القـاعدة العريضـة من الضـباط الذين يرتادون النـادى بأن هناك تغييراً شـاملاً حدث فى خدمات النـادى حتى تكون معبرة عن مطالب الضـباط وليس للقـلة حتى تسـتعاد الثقة من الضـباط فى قادتهم وحتى يقبلوا على ارتياده ، لتتسـع دائرة التقـارب والتعـارف بين مختلف ضـباط الأسـلحة .

ثم قام أعضـاء مجلس الإدارة بالذهاب إلى قصـر عابدين وقيدوا أسـماءهم فى سـجل التشـريفات بمناسـبة انتخابهم وكان الهدف هو تأجيـل الصـدام مع الملـك .

رشـاد مهنا وتنظيم جمال عبد الناصـر

اجتمع رشـاد مهنا مع تنظيم جمال عبد النـاصر فى منزل مجدى حسـنين بعـابـدين ، قبـل انتخابـات نادى الضـباط وحضـر الاجتماع كل من زكريا

محيى الدين وجمال سالم وحسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادى . وكان رشاد مهنا مستمعاً فقط ، واقترح عليهم ـ لاختبار مدى سخط الضباط على الملك وحاشيته ـ أن يتضافر جميع الضباط للتركيز على عملية انتخابات نادى الضباط وبذلك يمكن إثبات قوة تنظيم الضباط فى مواجهة الفساد الملكى ، واقترح أن يتفق الجميع على إنجاح محمد نجيب ليكون رئيساً لمجلس إدارة النادى وهو المنافس لحسين سرى عامر قائد الحدود ومرشح الملك ، وبذلك يظهر الضباط تحديهم لإرادة السراى . وفى أحد الاجتماعات بعد نجاح عملية الانتخابات أبلغهم أنه طلب نقل نفسه للعمل بمحطة العريش لأنه هناك سيتمكن من الاتصال بأكبر تجمع لضباط الجيش فى العريش ، والذى يمثل القوة الأساسية للجيش المصرى بهذه المحطة ، كما أنه بوجوده فى العريش سيجنب المتصلين به من الضباط أخطار الاشتباه فيهم لأنه سبق اعتقاله ، ولبروز نشاطه المتزايد فى عملية انتخابات نادى الضباط وفعلاً أجيب رشاد مهنا إلى طلبه ونقل للعمل بالعريش ولكنه داوم على حضور جميع اجتماعات مجلس الإدارة .

فرض عضو عن سلاح الحدود

فى يناير سنة ١٩٥٢ اجتمع مجلس إدارة النادى اجتماعاً طارئاً ، دعا إليه رئيس المجلس محمد نجيب لعرض خطاب صادر إليه فجأة من رئاسة هيئة أركانحرب الجيش فيه تحد صارخ لما أجمع عليه ضباط الجيش ومخالفاً لقانون النادى . ينص الخطاب على ضرورة تمثيل سلاح الحدود بعضو فى مجلس إدارة النادى بحجة أن سلاح الحدود أصبح سلاحاً قائماً بذاته ، وأن ضباطه أصبحوا من قوته فعلاً (رغم أن الجمعية العمومية فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ كانت قد قررت خلاف ذلك) . وبالمناقشة قرر مجلس الإدارة أن

خطاب رئاسة هيئة أركانحرب يعتبر مخالفاً لنص المادة ٨ باللائحة المصدق عليها من الجمعية العمومية ، ولذلك اقترح مجلس الإدارة الموافقة على تعيين عضو من سلاح الحدود كمستمع فقط ، وليس له صلاحيات العضوية فى مجلس الإدارة ، على أن يعرض الأمر برمته على جمعية عمومية غير عادية يدعو لها مجلس الإدارة . وفعلاً تم تحديد موعد فى فبراير سنة ١٩٥٢ ولكن نظراً لأحداث حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ وما تبعه من طوارىء فقد تأجل ميعاد اجتماع الجمعية العمومية غير العادية إلى وقت لاحق .

استقالة سكرتير عام النادى

فى أوائل فبراير سنة ١٩٥٢ انعقد مجلس إدارة النادى وقدم عبد الرحمن أمين فى هذا الاجتماع استقالة من مركز سكرتير عام مجلس الإدارة ، وقبلت استقالته فى نفس الجلسة وتم ترشيح البكباشى ابراهيم حافظ عاطف قائد مدرسة المساعدة الجوية حينذاك لمركز سكرتير مجلس إدارة النادى . ووافق المجلس عليه وأصبح سكرتيراً عاماً واستمر عبد الرحمن أمين عضواً عادياً بالمجلس .

ومساء يوم ١٦ يونيو سنة ١٩٥٢ (فى شهر رمضان) بنادى الضباط بالزمالك تم اجتماع الجمعية غير العادية والتى دعا لها مجلس الإدارة ، وافتتح الجلسة البكباشى ابراهيم حافظ عاطف ، ثم ترك المنصة إلى القائمقام اركانحرب رشاد مهنا ليقوم بأعمال مقرر الجلسة .

وأعلن رشاد مهنا عن الغرض من هذا الاجتماع غير العادى ، وهو طرح موضوع تمثيل سلاح الحدود بمصر فى مجلس الإدارة ، طبقاً لخطاب رئاسة هيئة أركانحرب وأشار فى نفس الوقت إلى أنه كان قد سبق واتخذت الجمعية العمومية قراراً فى ٣١ / ١٢ / ١٩٥١ بعدم جواز تمثيل سلاح الحدود فى

مجلس الإدارة لأن ضـبـاط الحدود منتدبون من الأسـلحة المختلفة فى مجلس الإدارة ، ومـازالـوا على هذا الـوضـع حتى صـدور خطاب رئيس هيئـة أركانحرب ، ثم فتح باب المناقشـة ، وكان أول المتحدثين المهندس جمال علام حيث استهل كلامه بالمطالبة بالوقوف حداداً على روح الشـهيد عبد القـادر طه (رغم أن عبـد القـادر طه كان من ضـبـاط الحـرس الحديدى الذى شـكله الملك فإنه عندما اختلف مع المـلك أمر باغتياله على أيدى الحرس الحديدى نفسـه . وكـانت هذه المعلومـات معـروفة فى وسـط الضـباط) ووقف جميع أعضـاء مجلس إدارة النـادى وجميع الضـبـاط المجتمعين حداداً . تعبيراً عن تحدى المجتمعـين - الممثلين لجميع ضـبـاط الجيش - للمـلك وأعوان المـلك بالجيش خاصـة وبالبـلاد بصـفة عامة . ثم تلاه من المتكلمين عبد المنعم أمين ثم مجدى حسـنـين وآخـرون والكـل كان يؤيد رفض خطاب رئيس هيئـة أركانحرب الجيش ، ويعارضـون تمثيل سـلاح الحدود فى مجلس الإدارة بأحد الأعضـاء . حاول ضـبـاط من السـلاح البحـرى (أنور عبد اللطيف ومعه مجموعة أخرى من السـلاح البحرى) وبإيعاز ملكى الانسـحاب ، وأفهمهم رشاد مهنا بأن خروجهم أو استمرار وجودهم سيان ولا يغير فى الأمر شيئاً حيث أنهم مقيدون فى دفتر الحضـور وفى محضـر الجلسـة قبل بدء الاجتماع . وحتى إذا لم يصـوتوا فإن هذا لا يؤثر على رأى الأغـلبية .

ثم عرض مقـرر الجلسـة - رشـاد مهنـا - قرار رئيس هيئـة أركـانحرب للتصـويت ، ورفض المجتمعون القرار بأغـلبية الأصـوات ، وانتصـر الحق على البـاطل ، وسـقطت محاولة القصـر لتمثيل سـلاح الحدود بعضـو فى مجلس الإدارة .

وفى مواجهة قرار الجمعية العمومية غير العـادية برفض قرار رئيس هيئة أركانحرب ، والذى كانت تصـاحبه الرغبة المـلكية لتحدى ضـباط الجيش ،

وانتقاماً من مجلس إدارة النـادى ، أخذ قادة الجيش الموالين للقصـر فى ممارسـة ضـغوط على أعضـاء مجلس الإدارة كل على حدة ، لإرغـام أكبر عدد ممكن منهم على تقديم استقالة من مجلس الإدارة حتى تصـل الحـال إلى أن يفقد مجلس الإدارة صـلاحيته القـانونية ، ويضـطر لأن يحل نفسـه بنفسـه .

وبـالفعـل ، بعـد مرور عدة أيـام تقـدم كل من المذكورين بعد ، من أعضـاء مجلس إدارة النـادى باسـتقالاتهم من عضـوية مجلس الإدارة كل على حدة وبالتتـابع :

(١) أميرالاى حسـن حشـمت نائب رئيس مجلس إدارة النـادى ورئيس المكتب التنفيذى (كان من أعـوان المـلك) (٢) يوزبـاشى بحرى أحمد عبد الغنى مرسى عن البحرية (٣) أميرالاى صـيدلى عياد صـليب الخدمات الطبية (٤) قائمقـام بحرى أنور عبد اللطيف عضـو البحرية ومدير مكتب القـائد العـام حيدر باشـا (٥) يوزبـاشى يحيى الحرية إمـام العضـو المعـين عن الحاشـية العسـكرية بالإضـافة إلى بكباشى أركانحرب مهندس ابراهيم فهمى دعبس عن المهندسـين (وكان قد اسـتقال من قبل ذلك من عضـوية المجلس وقبلت اسـتقالته فى أحد الاجتماعـات)

وخـوفاً من وصـول مثل هذه المعلومـات المضـللة إلى عضـوى المجلس الموجودين بالعريش ، وهما القـائمقام أركانحرب رشـاد مهنا . وقائد الجنـاح بهجت مصـطفى فقـد تطوع قائـد الأسـراب حسـن ابـراهيم بالسـفـر إلى العريش على أول طائرة حربية واتصـل بهما ، وأعـلمهما أن مجلس الإدارة ، سـوف يصـمـد لكـل الضـغـوط رغم اسـتقـالات بعضـهم . ولمـا لم تنجح ضـغـوط قادة الجيش فى التـأثـير على أغـلبية أعضـاء مجلس الإدارة لتقـديم اسـتقالاتهم ، فقد قام الأميرالاى حسـن حشـمت عضـو الفرسـان المسـتقيل

بالاتصال بباقى الأعضاء غير المستقيلين وحاول اقناعهم بأسلوب يحمل معنى التهديد بضرورة تقديم استقالاتهم ، ورفض الباقون وبذلك بقى مجلس الإدارة رغماً عن إرادة القصر ، وقادة الجيش وكان الباقون هم :

اللواء أركانحرب محمد نجيب رئيس مجلس إدارة نادى ضباط الجيش ، قائمقام أركانحرب رشاد مهنا ، بكباشى ابراهيم حافظ عاطف ، بكباشى ابراهيم محيى الدين ، بكباشى حمدى عبيد ، صاغ جمال حماد ، قائد جناح بهجت مصطفى ، قائد أسراب حسن ابراهيم السيد ، قائمقام عبد الرحمن فوزى ، بكباشى عبد الرحمن أمين ، يوزباشى أمين شاكر ، بكباشى عبد العزيز الجمل ، بكباشى متقاعد جلال ندا .

حل مجلس إدارة نادى الضباط

فى حوالى منتصف يوليو سنة ١٩٥٢ وفى الساعة الواحدة ظهراً ، اتصل القائمقام محمد توفيق عابد أركانحرب قسم القاهرة بالبكباشى ابراهيم حافظ عاطف سكرتير مجلس إدارة النادى وكان قائداً لمدرسة المدفعية المضادة للطائرات . وطلب منه أن يقابل اللواء أركانحرب على نجيب (شقيق اللواء محمد نجيب رئيس مجلس إدارة نادى ضباط الجيش المنتخب) وكان يشغل قيادة قسم القاهرة ، وذلك فى مبنى نادى ضباط الجيش بالزمالك فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر . ولم يذكر السبب . شك البكباشى ابراهيم عاطف فى الأمر ، وتقصى عن السبب من عدة جهات ، وعلم أنه قد صدر قرار من رئاسة هيئة أركانحرب الجيش بحل مجلس إدارة نادى الضباط المنتخب فى أول يناير سنة ١٩٥٢ فاتصل بالطيار حسن ابراهيم مساعد سكرتير النادى وأبلغه الخبر ، واتفقا على المقابلة بالنادى بالزمالك فى الثالثة بعد الظهر ، قبل موعد مقابلة اللواء على نجيب . وعلم من حسن

ابراهيم أن هناك إشارة تليفونية لجميع الوحدات تقضى بعدم مغادرة الضباط معسكراتهم ظهر هذا اليوم إلى حين صدور أوامر حيث أن رئاسات الجيش العليا ستمر على الوحدات والمعسكرات . قام ابراهيم حافظ عاطف بتبليغ اللواء محمد نجيب رئيس مجلس إدارة النادى المنتخب بالخبر والاستدعاء والسبب هو قرار الحل وطلب نجيب من ابراهيم عاطف أن ينتظر إلى جانب التليفون حتى يستفسر عن حقيقة الخبر . ثم عاود الاتصال به وأكد صحة قرار حل مجلس إدارة النادى وأشار على سكرتير النادى ابراهيم حافظ عاطف بالتصرف كما يتراءى له .

وصل ابراهيم حافظ إلى النادى هو وحسن ابراهيم فى الثالثة ظهراً . وحضر بعد ذلك اللواء على نجيب ومعه مجموعة من كبار الضباط هم الأميرالاى محمد حسنى والأميرالاى جلال صبرى ، والقائمقام مصطفى كمال عبد الرازق والبكباشى يوسف العجرودى والصاغ حافظ صدقى وقائد الأسراب على صبرى وضابط من البحرية وغيرهم وقام على نجيب باستدعاء ابراهيم حافظ وقال له أنهم حضروا لاستلام النادى بأوامر من جهة عليا . دارت مناقشة بين ابراهيم حافظ عاطف وبين على نجيب انتهت بأن قال ابراهيم حافظ عاطف بأنه لا توجد أى جهة عليا تمتلك حق حل مجلس الإدارة المنتخب إلا عن طريق اجتماع جمعية عمومية من جميع الضباط أعضاء النادى لأن هذه الجمعية هى التى انتخبت المجلس الذى يريدون استلام أعماله . كان هناك فى هذه المقابلة بعض التهديدات من بعض أعضاء اللجنة المرافقة لعلى نجيب ، ولكن الأغلبية كانت محرجة ، وعلى وجوههم علامات الأسى . استمرت المناقشة إلى قرب ميعاد الغروب وبدأ الضباط يفدون على النادى ، فأجل على نجيب الحديث إلى موعد آخر ولم يجر أى تسليم أو تسلم وانتهت المقابلة .

فى الصباح الباكر من اليوم التالى اتصل اللواء محمد نجيب بابراهيم حافظ عاطف فى المنزل تليفونياً ، وأبلغه أن جميع المعلومات عن حل مجلس إدارة النادى وصلته ، وأخطره بأن ينفذ التعليمات بالتسليم وأوصاه بمقابلة شقيقه على نجيب بقسم القاهرة ، واتصل إبراهيم حافظ عاطف بالطيار حسن ابراهيم وأبلغه بما دار بينه وبين محمد نجيب .

قابل ابراهيم عاطف على نجيب بمكتبه على انفراد ، وقال له على نجيب ان جميع اعتراضاته فى اليوم السابق قد بلغت إلى الجهات العليا وأبلغه أن رئيس هيئة أركانحرب ، اللواء حسين فريد كان موقفه مشرف جداً بالنسبة لإبراهيم حافظ عاطف ، وكان يدافع عنه كأحد أبنائه .

قال على نجيب لإبراهيم عاطف « ان الموقف بأكمله ما هو إلا عاصفة يجب أن نميل معها حتى لا ننكسر وبعد أن تمر العاصفة يمكن استعادة الموقف » ، واتفق معه على لقاء فى النادى يوم ١٨ يوليو سنة ١٩٥٢ (قبل الثورة بعدة أيام) ليتسلم أعمال مجلس الإدارة . وفى اليوم المتفق عليه (١٨ / ٧ / ١٩٥٢) حضرت اللجنة السابق ذكرها عدا قائد الأسراب على صبرى ، وتم تسليم أعمال مجلس الإدارة لهذه اللجنة .

لقاء مع أنور السادات

كانت وحدتى الكتيبة التاسعة مشاة فى العريش وفى أول شهر يوليو سنة ١٩٥٢ ــ وكنت فى مأمورية بالقاهرة ــ حضر أنور السادات إلى كتيبتى بالعريش وكان يعمل بسلاح الإشارة فى رئاسة القوات فى رفح . وسأل عنى أركانحرب الكتيبة . وحيث أنى لم أكن أعرفه قبل ذلك ، فقد خمنت بواعث سؤاله عنى وهو بالقطع سبب سياسى وتظاهرت لأركانحرب الكتيبة أنى أعرفه .

دهبت إلى رفح لمقابلته وتعارفنا فى سرعة ، وخرجنا فى العراء . وأثناء السير أفهمنى أن لديه أوامر باليقظة فى هذه الأيام ، لأن أحداثاً كبيرة سوف تحدث فى الجيش والبلد . وطلب منى بناء على أوامر صدرت له (لم يفصح عنها) أن أعاود الاتصال بمن أثق فيهم من الضباط فى وحدتى أو غيرها بالعريش وأن أعطى معظمهم هذا التحذير . وفعلاً قمت بهذا الاتصال ، واتصلت بهم كل على انفراد .

لقاء مع جمال سالم

فى يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٥٢ صباحاً أبلغت وأنا بالعريش عن طريق ضابط وسيط من تنظيم القاهرة (الضباط الأحرار) بضرورة الذهاب مساء نفس اليوم إلى محطة العريش ، فى ميعاد وصول القطار القادم من القاهرة لنقابل هناك جمال سالم القادم بالقطار من القاهرة بتعليمات .

وفى المحطة وجدت عدداً غير قليل من الضباط وكان من ضمنهم عدد ممن أعرفهم جيداً ، وكلهم فى الانتظار ولما وصل جمال سالم خرج معنا خارج المحطة وانتحى جانباً بعلى شفيق صفوت ، وذهب هو إلى حال سبيله ، وعاد لنا على شفيق صفوت وبعد أن تأمل وجوهنا جيداً قال إن الميعاد المنتظر سيكون قبل مرور يومين على الأكثر .

وفعلاً ، قامت حركة الجيش وفى صباح ٢٤ يوليو استلم قيادة كتيبتى التاسعة البكباشى سعد متولى وتم ترحيل القائد السابق القائمقام سليم عبد الرؤوف بكل تقدير واحترام إلى القاهرة . وأرسل سعد متولى يطلب الضباط الوطنيين بالوحدة وكانوا ثلاثة هم حسن خليل وفتحى أحمد سليمان ومراد خليل ، ولكن الواقع أن جميع باقى زملائى من ضباط بالكتيبة كانوا على نفس مستوانا وأكثر من الوعى الوطنى .

تم قيام الثورة

فى يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٥٢ قبل ميعاد الثورة بيوم تم الاتفاق بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مع المهندس (الصيانة) جمال علام على أن يتقابل جمال علام . . مع أحدهما فى تمام الساعة ١١ مساء يوم ٢٢ يوليو على الكوبرى المقابل لبوابة الفرسان ليصحبه إلى سلاح الفرسان ؛ ليتسلم جمال علام من هناك قوة يتوجه بها إلى مبنى السنترال الرئيسى للتليفونات بشارع الملكة نازلى للسيطرة عليه وقطع جميع الاتصالات التليفونية قبل أن تحتل قوات زميلهم يوسف منصور صديق مبنى القيادة العامة المحدد لها منتصف الليل .

وذهب المهندس جمال علام فى الموعد والمكان المحددين . . وانتظر دون أن يحضر أحد منهما حتى الحادية عشرة والنصف فتوجه إلى بوابة الفرسان بملابسه العسكرية ، ولما اعترضه جنود الحراسة تشاجر كلامياً معهم وبصوت عال ليسمحا له كضابط بالمرور وسمع صوته زميل الكفاح الضابط آمال المرصفى وكان موجوداً بغرفة حراسة البوابة فسهل له عملية الدخول . وعلم من زميله آمال المرصفى أن يوسف منصور صديق اختلط عليه ميعاد التوقيت وبادر بالتحرك قبل الموعد بساعة وأمكنه لحسن الحظ السيطرة على مبنى القيادة العامة فى تمام الساعة الحادية عشرة مساء وليس الثانية عشرة

وقد لعبت الصدفة دورها ، لأن قادة الجيش كانوا قد تلقوا تعليمات من حيدر باشا وزير الحربية من الإسكندرية بالتوجه إلى مركز قيادة الجيش للسيطرة على الموقف . وكانوا قد وصلوا لتوهم قبل وصول يوسف منصور صديق وقواته بدفائق ، وبادر يوسف منصور صديق بالسيطرة على القيادة واعتقل جميع قادة الجيش قبل الميعاد بساعة وفى مكان واحد مما سهل من مشقة مأمورية القبض عليهم متفرقين فى منازلهم . . وعلم المهندس جمال علام السبب فى عدم حضور عبد الناصر وعبد الحكيم عامر له حسب الاتفاق لأن الثورة كانت قد سيطرت تماماً على القيادة ، وأصبح مطلوباً لها بشكل حيوى ضمان استمرار الاتصالات التليفونية لا قطعها وذلك لإتمام السيطرة على كل شىء ، وانتظر جمال علام بميس الفرسان . . وحضر عبد الحكيم عامر وانضم إلى حسين الشافعى وثروت عكاشة ، وعلم من اتصالاتهم بأن قوة المدرعات التى اتجهت إلى الإذاعة بشارع الشريفين قد تمكنت من السيطرة على الاستديوهات فى تمام الثالثة والنصف صباحاً . . لضمان إذاعة بيان الثورة الأول بعد قراءة القرآن فى الصباح .

وسأل المهندس علام عن مدى سيطرة الثورة على محطة الإرسال الرئيسية فى أبى زعبل لأنها أهم من السيطرة على الاستديوهات . وعلم أن خطة الثورة أغفلت أمرها . . ولشدة حيويتها بالنسبة لضمان الإرسال حيث آن احتلال الاستديوهات فقط بشارع الشريفين لا يحقق أى شىء دون السيطرة الكاملة على محطة الإرسال فى أبوزعبل ودون إمهال .

توجه المهندس جمال علام مع مجدى حسنين واثنان من تروب مدرعات إلى أبوزعبل . وهناك علموا أن أوامر وزير الداخلية مرتضى المراغى قد صدرت للمسئول عن المحطة بانتزاع أجزاء منها لتعطيل الإرسال ، وأمكن

بالتفاهم مع المهندسين المقيمين الجارحي القشلان وعلى اسماعيل إعادة الأجزاء المنزوعة واستعادة الإرسال وبعد عشر دقائق أخرى انقطع التيار الكهربائى كله عن المنطقة وبالتالى توقف الإرسال ، وتوجه جمال علام مع مجدى حسنين مع قوة المدرعات إلى محطة توليد القوى . . وكانت على بعد خمسة كيلومترات فقط ، وتحت تهديد المسؤول بها أعيدت للعمل ، وكانت قد صدرت له الأوامر أيضاً من وزير الداخلية بتعطيل المحطة « ورب صدفة خير من ميعاد » .

ولذلك صدر بيان الثورة الأول ثم توالت البيانات بعد نجاح السيطرة الكاملة وبعد أن لعبت الصدف دوراً كبيراً .

قرار الثورة التاريخى

كان هناك وضوح رؤيا لضباط الثورة . بعد حل مجلس إدارة نادي الضباط ، خاصة بعد استقالة حسين سرى ووقوفهم على أسبابها وشعروا أن الدائرة تضيق حولهم ، وأنهم أصبحوا فى موقف يملى عليهم الاستسلام لتصرفات الملك الرعناء التى قد تودى برقابهم إلى المشنقة ، أو التحرك السريع ، وبالذات ، بعد أن علم الضباط الأحرار من أحد ضباط جهاز المخابرات العسكرية أن هناك كشفاً مدوناً به معظم أسماء التنظيم السرى للضباط الثوريين ، وأحيط به الملك علماً . فكان القرار الحاسم بالاستيلاء على رئاسة الجيش ، واعتقال قيادات الجيش بالقاهرة ، واحتلال الإذاعة ، وإذاعة البيان الأول للثورة .

وبعد السيطرة الكاملة على الجيش ، واستقالة وزارة نجيب الهلالى من تلقاء نفسها . . تتابعت الأحداث فى سرعة مذهلة . وفرض رجال الثورة على الملك مطالب أدت إلى تشكيل أول وزارة بعد الثورة برئاسة على ماهر

باشـا ، وعزل جميع رجال الحاشـية . وفى ٢٦ يوليو وجهت الثورة إنذاراً إلى الملك بوثيقـة من الفـريق أركـانحـرب محمد نجيب ، تطـالبه بالتنازل عن العرش ، وقد اسـتمعت إليه فى مسـاء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وأنـا لا أزال بالعريش مع الزملاء بميس الضـباط بما يحويه من تفاصـيل الأحداث ، فطلب التنازل عن العرش ، ثم أعقب ذلك موافقة الملك على التنازل عن العرش

.. وعملت فى المخابرات

فى مساء ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ صدرت النشرة العسكرية للتنقلات ووصلت وحدتى إشارة تفيد نقلى إلى المخابرات العسكرية . هنأنى القائد الجديد سعد متولى ، وسافرت إلى القاهرة بعد يومين أمضيت منهما ليلة برفح ، وأخرى بغزة . قضيتها مع الصديق وزميل الكفاح محمد هاشم حسين قائد مخابرات غزة .

وفى صباح ٣٠ يوليو سنة ١٩٥٢ توجهت إلى مقر عملى الجديد فى المخابرات الحربية بكوبرى القبة وكان زكريا محيى الدين عضو مجلس قيادة الثورة هو أول مدير لها بعد الثورة .

أحطت علماً بملخص الموقف السياسى . وواجب المخابرات الحيوى فى الأيام الأولى للثورة من السيد زكريا محيى الدين وكان ملخصه « أنه مع مقتضيات الثورة أصبح جهاز المخابرات الحربية مسئولاً عن تأمين العمل السياسى للثورة داخلياً وخارجياً . وكان أهم هذه الواجبات هو اتخاذ الخطوات الإيجابية للعمل على التخلص من الاستعمار البريطانى وأعوانه والقيام فى نفس الوقت بالعمل التكتيكى البحث والرئيسى فى مواجهة النشاط العسكرى الإسرائيلى .

عملت عند بدء تعيينى فى المخابرات فى قسم الأمن فرع مكافحة الشيوعية ، وفوجئت فى بداية عملى ببقايا أشكال التبعية للبريطانيين داخل جهاز المخابرات نفسه .

إيقـاف التبعـية

ففى أحد الأيـام الأولى من عملى بالمخـابرات كنت موجوداً بمكتبى عندما حضـر أحد كبار ضباط المخـابرات وكان يعمل بها من قبل الثورة (والسـبب فى الإبقـاء عليه بعد الثورة أنه كان يتصـل بالضـباط الأحـرار ويحذرهم أول بأول عما يصـل الجهاز من معلومـات عنهم) . فأعطـانى كمية من التقـارير باللغة الإنجليزية مكتوبة على ورق خفيف ، ملون وبالآلة الكـاتبة . . كلفنى بدراسـتها ووضـع الرأى عن كل تقرير على حدة . . عكفت على هذه التقـارير ووجدت بكل ورقة منها معلومـات عن شـخصية مصـرية ، وعن علاقـاتها . وكـانـت جميع الـتـقـارير عن شـخـصـيات لها صـلة بالـشـيوعـية الدولية . اسـتوقفنى اسـم أحد الصـحفيين المصـريين المشـهورين وكان يقيم بألمـانيا هرباً من اضـطهاد المـلك السـابق وهرباً من السـلطات المصـرية .

كانت معلومـاتى عن هذا الشـخص قد تكونت من خلال المشـاركة فى العمـل الوطنى داخـل تنظيمات الضـباط ، وكانت معلوماتى أنه من الوطنيين المخلصـين ، كثيراً ما تصـدى فى كتابـاته للظـلم والفسـاد المـلكى وتجاوزات السـفـارة الـبريطانية (هو الـدكتـور كمال الـدين جلال) أثـارنى الموضـوع وأخذت أعيد قراءة جميع التقـارير وأدقق فيها وفى معلوماتهـا التى أجمعت على اتهـام الأشـخاص موضـوع التقـارير بالنشـاط الشيوعى الخطير ، وناقشـت الزميل كمال رفعت ، وتم اختيارنا لعدة تقارير يسـهل التحقق من المعلومـات المدونة بها عن طريق ضـباط المبـاحث العـامة الجدد ، وعن طريق رجال وزارة الخـارجـية الـذين عمـلـوا فى البـلاد التى يقيم بها بعض هؤلاء المتهمـين بالشـيوعية وجاءتنا المعـلومات التى تؤكد أن جميع هؤلاء المتهمين بالشـيوعية لهم نشـاط ضـد الاسـتعمار البريطانى ، وبعكس ما ورد بالتقـارير فإن نشـاطهم كان لصـالح الوطن .

وقبل أن أعيد هذه التقارير للضابط الكبير بالمخابرات علمت بالصدفة ، فى أحد الأيام ، أن الملحق العسكرى البريطانى يقوم بزيارة فى مكتبه فانتظرت حتى انتهاء الزيارة ، ثم دخلت عليه فى مكتبه وقبل أن أسلمه ما معى من التقارير . . أعطانى كمية جديدة من التقارير . . لها نفس مواصفات التقارير السابقة ، وكلفنى أيضاً بدراستها . . وأعطيته التقارير السابقة وقد دونت عليها ملحوظاتى التى تفيد بأن المعلومات التى وردت بها كلها مزيفة ومدسوسة ، وسألته إن كانت هذه التقارير والتى تسلمتها منه لتوى . . قد تسلمها من الملحق العسكرى البريطانى . . الذى كان يزوره قبل دخولى عليه . . فضحك وعند ذلك واجهته بشكوكى ، ورجوته بضرورة معالجة مثل هذه التقارير بمنتهى الحذر .

وبعد عدة أيام من التحرى والاستقصاء ، علمنا أن هذا الضابط الكبير بالمخابرات . . كان مكلفاً بالاتصال بالملحقين العسكريين الأجانب ، ومن ضمنهم الملحق البريطانى . . وكان منذ ما قبل إلغاء معاهدة ٣٦ ، ومنذ سيطرة البعثة البريطانية على المخابرات المصرية والجيش المصرى ، يداوم شهرياً على إرسال يومية الحرب الخاصة بالجيش المصرى والتى تحتوى على أخطر المعلومات العسكرية السرية عن قوة الجيش العددية ومعداته الصالحة للعمل ، والتى تحت الإصلاح ، والتالفة ، وما إلى ذلك من أسرار . . المفروض أنه محظور اطلاع أى أجنبى عليها . وكان يرسلها بطريقة رسمية ومستمرة ودورية . وبطبيعة الحال فقد اتخذت الإجراءات اللازمة لوقف مثل هذه المهازل .

القطة التى تأكل بنيها

حادث عرضى حدث لى بعد اسبوعين على الأكثر من يوم ٢٣ يوليو وبعد أن استلمت عملى بالمخابرات . فقد اتصل بى يوماً بعد الظهر بالمنزل وأثناء

راحتى من العمل زميل الدراسة الثانوية والصديق الدكتور أبو الفتوح البدوى . . وكان يعد نفسه وقتها لرسالة الدكتوراة من فرنسا ، وحضر لمصر عندما علم أن الثورة قامت . . حيث كان من الشباب الذين يساهمون فى العمل الوطنى أيام الدراسة الثانوية ، وكان من ضمن لجنة الطلبة بالمدرسة عن حزب الأحرار الدستوريين . استأذنت يومها من العمل بعد الظهر فى المخابرات ، وخرجت مع الصديق أبو الفتوح البدوى للتنزه والحديث كما كنا نعمل أيام الدراسة ، وجلسنا على شاطىء النيل خلف كازينو بديعة ، وطال بنا الحديث إلى ما بعد العاشرة مساء . وعند عودتى إلى المنزل وجدت على الباب عربة عسكرية وبها سائق من المخابرات . . بادرنى السائق بأن مدير المخابرات أرسله فى طلبى وإحضارى فى أى وقت . استبدلت ملابسى ، وارتديت الزى العسكرى ، وركبت معه إلى أن وصلنا لمبنى المخابرات ، ولكنه لم يدخل المبنى بل دخل مبنى مجلس قيادة الثورة وكان مجاوراً لمبنى المخابرات . تعجبت لمدة قصيرة واستنتجت بسرعة سبب هذا الاستدعاء بهذا الأسلوب ودخلت غرفة كبيرة بها طاولة مستطيلة ، وأثناء انتظارى ـ لدقائق ـ على انفراد استرجعت واقعة اجتماع فى منزلى تم بينى وبين جميع الزملاء السابقين من تنظيم الضباط الوطنيين ، حدث بناء على طلبهم فى منزلى قبل يومين ، وتناولوا فيه مآخذ على بعض أعضاء مجلس الثورة وبالذات ضد أنور السادات الذى كان يلتقى فى مكتبه بدار الإذاعة بعدد من ملوك الأحزاب القديمة . ويبدأ يتوسط لهم كما كان يجرى فى دهاليز وكواليس الحكم قبل الثورة . . كما سجلوا مآخذ على تصرفات الثورة فى أنها تشغل نفسها بالكثير من توافه الأمور . . كانتداب أحد كبار ضباط الطيران (عبد الرحمن عبد العال) لمطاردة تجار الطماطم الذين يرفعون الأسعار وكان مندوب الثورة يجلدهم فى الشوارع والميادين مما يسىء إلى الثورة وكنت ـ

لخطورة الموقف ـ قد اقترحت على المجتمعين أن نسجل هذه المآخذ على شكل تقرير أوصله إلى مجلس الثورة حتى لا يؤول الاجتماع تأويلات أخرى . وفعلاً دونا هذه المآخذ فى ورقة وأخذتها معى فى اليوم التالى ، وذهبت بها إلى مجلس الثورة وكان المجلس فى اجتماع وأبلغت شمس بدران سكرتير المجلس بما حدث باختصار ، وبمنتهى الصدق والصراحة ، وأعطيته التقرير المكتوب ليوصله للمجلس وانصرفت وصدق ظنى فبعد فترة قصيرة حضر السيد زكريا محيى الدين وجلس على رأس مائدة الاجتماعات وأخذ يسألنى عن هذا الاجتماع بطريقة جعلتنى أشك فى وصول تقريرى الأصلى لهم . وجاءت أسئلته بأسلوب فهمت منه أن شمس بدران قد أخفى التقرير وادعى أنه اكتشف بنفسه شبه مؤامرة عن اجتماعنا فرويت لزكريا محيى الدين (والذى كان يأخذ وضع المحقق) بطريقة وبتسلسل وتفاصيل الدعوة للاجتماع ، وما تم فيه وواقعة كتابة المآخذ فى تقرير سلمته لشمس بدران وبه كل التفاصيل وأثناء هذا الحديث العاصف بينى وبين زكريا محيى الدين دخل إلى القاعة جميع أعضاء مجلس الثورة ، واحداً بعد الآخر ، والتفوا حول الطاولة وحولى أنا وزكريا محيى الدين . وكنت قد بدأت فى الانفعال والرد بشىء من التوتر ، حيث كنت لا أتصور إطلاقاً أن يصل تدهور مستوى الرجولة والأخلاق إلى هذا الحضيض من شمس بدران والذى من المفروض أنه كان ينتمى إلى رجال الثورة ويبدو أن حديثى بهذا التسلسل وهذه الصراحة والانفعال الصادق أثر على بعض الحاضرين لأنه بعد فترة وجيزة امتلأت القاعة بكل أعضاء مجلس الثورة بما فيهم أنور السادات وسمعنى وأنا أعدد المآخذ المسجلة عليه هو شخصياً .

وفى أثناء الحديث انفعل جمال سالم وأخذ يوجه لى ظلماً كلمات اعتبرتها غير لائقة فعنفته برجولة ، وكان لى به معرفة سابقة ، حيث كان صديقاً لأمين

الخشاب قائدى فى السجن الحربى وكان كثيراً ما يحضر لزيارته وتعارفنا جيداً هناك قبل الثورة . وفجأة ، وبدون سابق معرفة لى به إطلاقاً انبرى كمال الدين حسين مدافعاً عنى فى حين كان عبد الناصر صامتاً لا يتكلم وكان واقفاً ويضع أحد رجليه على كرسى ومكتفٍ بالإنصات . وقال لهم كمال حسين يجب ألا تعطلوا الرجل أكثر من ذلك . وشدنى من يدى وقال لى بعطف وأخوة ورجولة : مع السلامة يا عبد الفتاح ! .

وأنا فى طريق العودة إلى المنزل استعدت الصورة كاملة وتنبهت فجأة إلى خطورة وحساسية تصرفات رجال الثورة فى بادىء أيامها . ومر بخاطرى مثل عن طباع القطط « كقطة أكلت بنيها » فالثورة هى القطة . ومن شدة حرصها على أوضاعها وأسرتها تبدأ فى التهام أبنائها كما أننى استوعبت ذلك الدور الخسيس الذى لعبه شمس بدران . وللأسف انه استمر مقرباً من النظام حتى صار وزيراً كبيراً مسئولاً عن أمن البلاد إلى أن حاقت الهزيمة بنا فى ١٩٦٧ وكان هو أحد عناصرها الأساسية .

منشورات ضد البرجوازية المصرية

بعد أيام قليلة من الواقعة السابقة . أرسل عبد الناصر فى طلب المسئول عن النشاط الشيوعى فى المخابرات ، وكنت أنا هذا الشخص فى قسم الأمن بالمخابرات وطلب أن أحضر ومعى خبير الخطوط وأعداد من منشورات الضباط الأحرار ، والتى كان الزميل المرحوم كمال رفعت قد استولى عليها ضمن أرشيف القسم المخصوص (القلم السياسى بوزارة الداخلية) .

ذهبت وقابلت عبد الناصر فى مجلس قيادة الثورة ، وأخرج من مكتبه منشوراً أعطاه لى . . وكلفنى مع خبير الخطوط بمضاهاة هذا المنشور بخط

أى منشور للضباط الأحرار ، ومكثت مع خبير الخطوط فترة طويلة وهو يضاهى الخطوط ، ولكنه لم يجد أى منشور للضباط الأحرار مكتوباً بنفس ماكينة الكتابة المكتوب بها المنشور الذى سلمه لى عبد الناصر . بلغته النتيجة وانصرفت .

وعلمت ـ فيما بعد ـ من مدير مكتبه أن هذا المنشور الموجود مع عبد الناصر وزع على نطاق واسع شعبياً ، وكان كل ما جاء به هجوم على مجلس قيادة الثورة فى أيامها الأولى وهجوم على زمرة الضباط عندما يعملون بالسياسة واعتبرهم ممثلين للبرجوازية الصغيرة (طبقة صغار الرأسماليين المتطلعة للرأسمالية) وأخذ يحذر الشعب من تصرفاتهم منذ قيام الثورة إلى وقت صدور المنشور وكان عبد الناصر يشك فى هذا المنشور أن يكون محرراً بمعرفة الأستاذ الدكتور راشد البراوى ، لأنه كان يعاونه قبل الثورة ، وملماً بأسلوبه فى الكتابة ، وشك عبد الناصر أن تكون الآلة المكتوب بها المنشور هى نفس الآلة التى كان يستعملها الشيوعيون المتعاونون معه .

موقف الأحزاب

ناشدت الثورة الأحزاب إعادة تنظيم أنفسها وبرامجها ، ولما لم تستجب الأحزاب لنداء الثورة بل أخذت تشكك فى نوايا الثورة ، صدر قانون إعادة تنظيم الأحزاب مطالباً الأحزاب بتسجيل قيدها بشروط معينة مع تقديم برامجها الجديدة . وتقدم فعلاً ١٦ حزباً باخطارات تكوينها وبرامجها حتى ان الأستاذ فتحى الرملى اليسارى المعروف . . أخطر عن حزبه التقدمى فى ورقة تقدم بها بافتتاحية عنوانها « مرحباً بالصعاليك » يرحب فيه باتاحة الثورة للكادحين فرصة المشاركة فى الحكم فى الوقت الذى وصفهم فيه نظام ما قبل الثورة بالصعاليك أما الأحزاب فقد عاودت هجومها على نوايا الثورة

والتشكيك فيها ، وصدر قرار مجلس الثورة باعتقال بعض قيادات هذه الأحزاب بعد أن ثبت عدم جدوى التعامل معهم .

مقابلة مع فؤاد سراج الدين

كلفت قبل ذلك الوقت مع الزميل عيسى سراج الدين بمقابلة فؤاد سراج الدين سكرتير عام حزب الوفد فى معتقل الثانوية العسكرية ، حيث تم اعتقال كثير من السياسيين ، بعد صدور قانون تنظيم الأحزاب ، كما قابلنا معه هناك شقيقه يسن سراج الدين وكانت مهمتى أن أسألهما عن أفكارهما حول مستقبل التنظيم الجديد لحزبهما ، وأن نتركهما يتكلمان دون أن نناقشهما وندون أقوالهما كتابة . قابلناهما وتبادلت الكتابة مع عيسى سراج الدين فى جلسة مطولة ، وكانا فى غاية المرح ، وسلمنا الحديث المدون كتابة لمجلس قيادة الثورة ، وكانت أفكار فؤاد سراج الدين بالذات لا تخرج عن نفس الأسلوب الحزبى القديم ، وأنه لا يمكن للحزب أن يسير بغيره هو والنحاس باشا وتحدث عن أخطاء ومواقف زملاء له آخرين بحزب الوفد .

وعلمت أن هذا هو نفس ما جاء على ألسنة باقى الزعماء السياسيين غير المعتقلين . . عندما قابلوا أعضاء مجلس قيادة الثورة . . كلا على انفراد ، وخرج مجلس قيادة الثورة بأن كل السياسيين القدامى كانوا يشهرون ببعضهم لسبب بسيط أنهم جميعاً كانوا مشتركين فى هذه التجاوزات إما بالممارسة . . أو بالخضوع لها . . وكل منهم يحاول أن يوهم الثورة أنه الوحيد الذى يمكن أن يتعاون معها فى التكوين الجديد للأحزاب .

ويبدو أن هؤلاء الذين طعنوا بعضهم ، ولم يتقدموا ببرامج حقيقية لم يدركوا أن الثررة كانت تريد الحكم ، وما كان لها أن تسمح لأى منهم أن يلتصق بها ، وقد كان هذا النداء الثورى الحبل الذى أعطى لهؤلاء الزعماء

لشنق أنفسهم بانفسهم . ثم صدر قرار بحل الأحزاب والهيئات السياسية فى ١٧ / ١ / ١٩٥٣ .

الاتفاق مع السودانيين

بدأت قيادة الثورة فى الاتصال بجميع الطوائف والأحزاب فى السودان منذ آخر عام ١٩٥٢ لمحاولة جمع كلمتهم لحل مشكلة السودان مع مصر وقبل البدء فى مطالبة المستعمر البريطانى بالتفاوض . وفعلاً تم اجتماع بالقاهرة مع جميع الأحزاب السودانية . . ومع زعماء الطائفتين الرئيسيتين (المهدية والختمية) وكان للدور الذى قام به رئيس مجلس قيادة الثورة محمد نجيب أثر ناجح فى سرعة توحيد كلمة السودانيين أنفسهم .

وفى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ ، تم توقيع اتفاقية السودان وبذلك انتهت الثورة من أول عائق فى سبيل تحقيق الجلاء عن مصر .

عمليات المقاومة فى القناة

فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ بدأت مصر الترتيب للتمهيد لمطالبة البريطانيين بجلاء قواتهم كلية من الأراضى المصرية ، وذلك بتنظيم مقاومة فى قاعدة القنال للضغط على بريطانيا لإرغامها على البدء فى مفاوضات جادة من أجل تحقيق الجلاء الشامل . . بدأت السلطات المصرية بإصدار قرار بتكوين حرس وطنى لأجل تحقيق أمانى الوطن مع احتمال استخدامه فى المقاومة الشعبية ضد قاعدة القنال . كما تكون مكتب خاص للمقاومة فى إدارة المخابرات بالقاهرة ضم كل من سعد عفره وكمال رفعت وعبد المجيد فريد (ضابط المخابرات والذى عمل بعد ذلك رئيساً لمؤسسة الأدوية) كان بهذا المكتب قسم للمعلومات وقسم للعمليات . أما أنا فقد تم نقلى للعمل فى مكتب مخابرات القنال فى مدينة الاسماعيلية مع الزميل عمر لطفى والذى كان قائماً بالعمل بهذا المكتب قبل الثورة .

العنصر البشرى اللازم للمقاومة الشعبية

حيث إن العنصر البشرى هو أهم عناصر المقاومة الشعبية والكفاح المسلح ، فقد أمكننى ، عن طريق نواة من الفدائيين الذين عملوا سابقاً بالمنطقة بعد إلغاء معاهدة ٣٦ ، والتعرف على عناصر الإخوان المسلمين العاملين داخل المعسكرات بعد أن رفض قادة الجمعية فى كل من السويس الحاج طاهر منير والاسماعيلية المرحوم الشيخ فرغلى وبور سعيد الحاج

عبده ناجر الأدوات الرياضية التعاون المفتوح معنا . وتم الاتصال بعناصر الفلسطينيين الذين يعملون بالأماكن الحساسة فى المعسكرات والمكاتب والمنشآت البريطانية عن طريق الصديق الفلسطينى المجاهد « عليان المحتسب » وأيضاً بعض اليونانيين داخل المعسكرات . وبالتعاون مع المحافظين فى المحافظات الثلاث ، وبواسطة ضباط المباحث العامة والجنائية أن نستعين بجميع الأفراد المحليين ممن احترفوا السرقات من الجيش البريطانى وأصحاب سوابق سرقات العربات والقطارات العسكرية فأمكننا بعد خضوعهم لتدريب بسيط اكتشاف معدنهم الوطنى الأصيل حيث عملوا معنا فى المقاومة كفدائيين . كما اتصلنا بأحد أقطاب الإخوان بالمنطقة وكان زميلاً لجمال عبد الناصر فى التعليم الثانوى بالإسكندرية وهو المهندس ذو الهمة الشرقاوى والذى ــ عرفنى به اخوانى ــ هو سعد وفا ناظر محطة أبو سلطان .

التعاون مع العناصر التى سبق اشتراكها فى كفاح عام ١٩٥١

تقدم لى عند وصولى إلى عملى بالاسماعيلية الشاب غريب محمد خضيرى (الشهير بغريب تومى) حيث كان دائم الالتصاق بالمدفع اليومى أثناء قيادته لفصيلة من شباب المقاومة بالاسماعيلية سنة ١٩٥١ وكان يعمل وقتها رئيس عمال فى شركة القنال وقدم لى عدداً كبيراً من زملائه الذين اشتركوا معه فى المقاومة سنة ١٩٥١ وكانوا خير نواة فى ابتداء العمل الإيجابى ضد الانجليز .

أول الغيث قطرة

وفى بداية عملى بمكتب مخابرات الاسماعيلية سمعت كثيراً ومن معظم المترددين على المكتب سواء المندوبين أو أصدقاء المكتب عن زعيم عصابة

مشـهـور ، ظل يزاول ، بعصـابته الواسـعة الانتشـار فى منطقة القنـال منذ الحرب العـالمية الثـانية ، عمليات السـرقة والنهب للمخـازن البريطانية .

وكانت المعـلومات تفيد بأنه قد جمع ثروة من هذه العمـليات وزود عصابته بوسـائـل النقـل الـلازمـة من عربـات ولـوارى ، وأنـه يدبر لهذه السـرقات بالاتفـاق أحيانـاً مع ضـباط وجنود ومشـرفى مخازن الجيش البريطانى أنفسـهم برشـوتهم بمبالغ سـخية . هذا الرجل وإسـمه « صـبرى السـروجى » كان أيضـاً على علاقة صـداقة وثيقة بضـابط المخابرات البريطانى الشـهير وليـامز ، والذى كان يعطيه صـبرى السـروجى أجـراً شـهرياً ورشـاوى عديدة ؛ لذلك حامت بعض الشـبهـات حولـه ظناً بأنه يقوم بالتعـاون مع البريطانيين أيـام مقـاومة عام ١٩٥١ ولكن لم تتمكن المبـاحث الجنـائية من إثبـات أى شيء ضـده . وبدراسـة شـخصيته وسـمعته الوطنية ، وجدت أنه ليس عليه أى مأخذ ، فاتصـلت به وفى سـرعة غير منتظرة أبدى اسـتعداده للتعـاون ووجدته شـاباً شـديد الذكاء واللبـاقة . ودون تحفظ عرفنى صـبى « السـروجى » على شـبكتـه الـواسـعـة من أفراد عصـابته ، وكانوا فعلاً نواة طيبة جداً فى جميع العمـليات منذ بدء المقـاومـة ضـد الـبريطانيين كما سـاعدت هذه الشـبكة المدربة فى سـرعة البدء بتنظيم الكفـاح المسـلح ، ومن هذا الوقت لم أجرؤ على تسـميتهم باللصـوص إلا لضـرورة الـوصـف فى هذه المـذكـرات ولكنهم فى الحقيقة كانوا نعم الوطنيون المصـريون الذين لا يتخلفون عند الشـدائد .

اختطـاف الخـائن كنج صـبرى

لتـأمين عملية العمـل الفـدائى والكفـاح المسـلح تمكنا من واقع ما هو مسـجـل عن الشـخصيات التى سبق تعاونها مع البريطانيين أثناء الكفـاح المسـلح ١٩٥١ من اعتقـال عدد كبير منهم من المنطقة وكان معظمهم يعمل

فى الجيش البريطانى . وكان من أخطرهم الخائن المدعو كنج صبرى والذى ثبت من تحقيقات الإدارة والنيابة ، ومن أقوال الفدائيين الذين أعتقلهم الجيش البريطانى لفترات ، ثم أفرج عنهم أنه كان السبب الرئيسى فى عمليات العنف البريطانية ضد الفدائيين فى التل الكبير والقصاصين وعملية مذبحة عزبة أحمد عبده بالسويس ، وكان لدينا تصميم على اعتقاله ولكنه كان لا يخرج اطلاقاً من المعسكرات وتحت حماية السلطات البريطانية وكان دائم التحرك تحت حراسة البوليس الحربى البريطانى خوفاً من اختطافه . وكان يعمل فى نفس الوقت مع ضابط المخابرات وليامز :

وعن طريق « صبرى السروجى » صديق وليامز وزعيم العصابة الوطنية أمكننا متابعة تحركاته داخل وخارج المعسكرات . وفى أحد الأيام أبلغنا صبرى السروجى أن كنج صبرى سيخرج من المعسكر فى عربة جيب يقودها ضابط المخابرات وليامز بنفسه ومعهما اثنان من جنود الحراسة فى نفس العربة ، وسيكون خط سيرهم ما بين الساعة كذا والساعة كذا على الطريق بين مدينتى الإسماعيلية وفايد على طريق القنال . وبناء على ذلك استقل الزميلان كمال رفعت ومحمود حلمى ومعهما صبرى السروجى عربة فورد صالون سريعة يقودها « عم سيد » سائق الملك فاروق فى رحلات الصيد ثم استمر يعمل سائقاً بجهاز المخابرات العسكرية المصرى وعملوا كميناً على طريق سير عربة ويليامز وتعقبوها بعد تعرف « صبرى السروجى » على الخائن كنج صبرى معهم . اعترضت عربة المطاردة عربة الجيش البريطانية على الطريق فتوقفت وبسرعة ، وتحت تهديد السلاح ، أنزلوا « كنج صبرى » من العربة البريطانية . وقد أوقفت المفاجأة تفكير وسرعة بديهة ويليامز والحارسين فرفعوا أيديهم استسلاماً ، وسلموا أسلحتهم للمطاردين . وعادت عربة المطاردة المصرية بالصيد الثمين : الخائن كنج

صبرى إلى القاهرة ليحاكم أمام محكمة الثورة بموجب ما هو مسجل ضده وصدر حكم الإعدام بتهمة الخيانة العظمى .

تنظيم المخابرات فى القنال

وبعد فترة وجيزة أصبح قادة التنظيم فى منطقة القنال الشرقية كالآتى :

بور سعيد : الرائد / عاطف عبده سعد

الاسماعيلية : مكتب رسمى : رائد / عمر لطفى — رائد / عبد الفتاح أبو الفضل — يوزباشى / سمير محمد غانم . Under ground : رائد / محمد غانم — رائد / محمود سامى حافظ .

السويس : مكتب رسمى : رائد / محمود سليمان .

الشرقية : مكتب رسمى : رائد / لطفى واكد .

فى الرئاسة بالقاهرة : رائد / كمال رفعت — رائد / سعد عفره — رائد / محمود عبد الناصر — رائد / عبد المجيد فريد .

الاستيلاء على محطة توليد كهرباء متنقلة

فى أحد الأيام . كان أربعة من الفدائيين المصريين يستقلون عربة مدنية على طريق الاسماعيلية / التل الكبير ، وبعد مدينة أبو صوير بقليل لاحظوا أمامهم على الطريق مقطورة ضخمة عبارة عن محطة توليد كهرباء تجرها عربة أخرى ضخمة . قرر الفدائيون الاستيلاء عليها وعند مرورهم بجانب مقدمة العربة اكتشفوا أن عربة محطة الكهرباء يقوم بقيادتها سائق منهمك فى القيادة وبجانبه حارس بريطانى مسلح وليس على المقطورة الضخمة أى حراسة أخرى ، وضع الفدائيون الخطة بسرعة وبعد

اجتيازهم المحطة المتنقلة بمسافة هبط أكفأ الفدائيين وأفضلهم فى مستوى التدريب ، فانتظر مرور محطة الكهرباء . ونظراً لثقلها ولشدة بطئها فقد تمكن من أن يقفز على مؤخرتها ثم تسلل إلى الجانب الذى به الحارس فى كابينة السائق ، وعاجل الحارس المسلح بطلقة فى رأسه أردته قتيلاً فى الحال . انزعج السائق البريطانى عندما شاهد مصرع زميله الحارس وكانت عربة الفدائيين أمام المقطورة تراقب العملية فاعترضوا السائق وأرغموه على الوقوف . وبسرعة أجبروه على النزول . وكان غير مسلح فقاموا بتقييده ثم تركوه فى الأعشاب القائمة على جانب الطريق . وصعد أحدهم إلى المقطورة الضخمة وآخر قاد العربة المسروقة ، ومعه زميل بعد أن ألقوا بجثة الجندى البريطانى المقتول على جانب الطريق أيضاً ولزيادة الحماية تابع الفدائيان الآخران بسيارتها السيارة المسروقة واستمرا فى السير حتى وصلا إلى أحد الطرق الجانبية المؤدية إلى القاهرة . وبالفعل وصلت المحطة الكهربائية سالمة فى حراسة عربة الفدائيين إلى القاهرة

الانتقام لمقتل ضابط بوليس مصرى

فى مساء يوم ١١ مارس سنة ١٩٥٤ كانت مجموعة من الفدائيين المصريين تقوم بعملية الاستيلاء على ذخيرة من مخازن الجيش البريطانى فى أبى سلطان . بعد نجاح العملية تماماً ، فاجأتهم داورية بريطانية فى سيارة وهم يحملون صناديق الذخيرة خارج سور السلك الشائك للمخازن . ترك الفدائيون صناديق الذخيرة وفروا هاربين وطاردتهم الداورية عبر الصحراء بالسيارة ولحسن حظ الفدائيين كانت المزارع قريبة ، وتمكنوا من الجرى خلالها مما جعل مطاردة الانجليز لهم بالسيارة مستحيلة واستمر الفدائيون فى الجرى حتى وصلوا إلى نقطة بوليس فنارة ودخلوها للاحتماء بها . ويبدو أن

أحـد أفراد الداورية البريطانية كان قد ترجل خلفهم وراقبهم وهم يدخلون النقطة فأبلغ الداورية التى حضرت بعد فترة وجيزة . لما شعر ضابط النقطة « فريد ندا» بعربة الداورية خارج النقطة أسرع وأمر الفدائيين بالخروج من الباب الخلفى لنقطة البوليس وتمكنوا من عبور الترعة سباحة والفرار نهائياً من مطاردة الانجليز ولكن أفراد الداورية البريطانية أسرعوا بدخول مبنى النقطة ولم يكن موجوداً بها أحد غير الضابط « فريد ندا » وبعد مناقشة حادة قصيرة أطلقوا عليه نيرانهم وأردوه قتيلاً مدرجاً بدمائه الطاهرة معتقدين أنه ساعد على تهريب الفدائيين . وحين وصل خبر مقتل الضابط إلى محافظة الاسماعيلية قرب منتصف الليل ، استدعانى وكيل المحافظة وكان جميع ضباط بوليس المدينة مجتمعين فى مكتبه وكلهم ثورة على مقتل زميلهم بهذه الوحشية . وعلمت بتفاصيل الحادث من وكيل المحافظة . وفى هدوء غادرت مكتبه مشاركاً فى سكون ثورة إخواننا ضباط الشرطة . وسهرت طول الليل أدبر خطة محكمة ومؤثرة للثأر . وفى الصباح كان بالمكتب عشرة أطقم من الفدائيين ، تحدد لكل طاقم من العشرة مكان من أماكن تجمع البريطانيين خارج معسكراتهم أمام النوادى وشواطىء الاستحمام . وتحدد لكل طاقم هدف ليقتله ويحسن أن يكون ضابطاً بريطانياً . وقبل عصر اليوم التالى لمقتل الشهيد « فريد ندا » تم قتل عشرة ضباط بريطانيين .

عملية سيارة البريجادير

كان ثلاثة من الفدائيين قد خرجوا للبحث عن صيد جديد وعند شاطىء بحيرة التمساح وفى منطقة منعزلة . كان هناك عربة ملاكى ليس بها ركاب وبداخلها ملابس وبالقرب من العربة ، وعلى الشاطىء كانت هناك قبعة حريمى كبيرة وبشكير حمام وداخل مياه البحيرة كان شخص بريطانى

ومعه سيدة يسبحان فى مياه البحيرة . وانتظر الفدائيون حتى ابتعد الرجل والسيدة داخل البحيرة ثم اقتربوا من القبعة والفوط ووجدوا تحت القبعة شنطة كان بداخلها مفاتيح العربة ، فاستولوا على القبعة والبشكيرين والشنطة وأخذوا مفاتيح العربة وتنبه المستحمان فأخذا يشيران بأيديهما ويسرعان بالسباحة فى اتجاه الشاطىء ولكن الوقت كان قد فات .

بعد غروب شمس هذا اليوم (بعد الحادث بحوالى أربع ساعات) استدعانى وكيل محافظة الاسماعيلية لمكتبه ، وقال لى : إن قائد البوليس الحربى البريطانى كان عنده قبل وصولى وطلب منه أن يسمح المحافظ لأحد ضباط المحافظة بمصاحبته فى عربة الداورية البريطانية المكلفة بمطاردة لصوص عربة البريجادير (العربة المسروقة كان يملكها ضابط برتبة بريجادير بالجيش البريطانى) حيث أنه كان لديه معلومات أن العربة المسروقة لازالت داخل عزبة أبو جاموس ، وكان ضابط البوليس الحربى لديه أوامر بمطاردة لصوص العربة بالنيران ولكنه فضل وجود ضابط بوليس مصرى لمرافقة داورية المطاردة .

وافق المحافظ على طلب قائد البوليس الحربى البريطانى ، وكلف بذلك الضابط مصطفى شلبى مساعد مدير المباحث العامة . وذهبت أنا بعد ذلك مباشرة إلى عزبة أبوجاموس ، وترجلت قبل العربة ولاحظت جلبة وهرجاً والكل يحكى عن المطاردة المثيرة التى حدثت قبل أن أصل بعدة دقائق والتى تم فيها تبادل إطلاق النيران بين الفدائيين وعربتى الداورية البريطانية . علمت أن الفدائيين تمكنوا من الفرار بالعربة المسروقة فى آخر لحظة .

مهاجمة مكتب المخابرات البريطانى فى السويس

أمكن الزميل محمود سليمان المشرف على مكتب المخابرات المصرى بمدينة السويس الاتفاق مع بعض جنود الموريشيان (أفريقيون من سكان

جزائـر موريشيوس بالمحيط الهنـدى شرق مدغشـقـر) المجنـدين بالجيش البريطانى وكان معظمهم من المسـلمين ويقومون بالحراسـة على مكتب مخابرات الجيش الـبريطانى بالسـويس . اتفق معهم نظير مبلغ من المـال . وبعـد اقتنـاعهم بأن مصـر فى حالـة كفـاح ضـد البريطانيين على أن يسـاعدونا فى تسـهيل عملية الاسـتيلاء على جميع عربات هذا المكتب الموجودة بجراج المكتب بالسـويس ، وذلك أثناء حراسـتهم الليـلية . كان عدد العربات خمس عشـرة عربة . فتم تشـكيل طاقم كامل من عشـرين فدائياً متخصصـين فى سـرقة وتشـغيل العربات ، وسـبق لهـم القيـام بمثل هذه العمـلية . زودناهم قبل العمـلية بأسـلحة العصـابات . وكان مع هذه القوة طاقم آخر مدرب على فتح الثغـرات فى الأسـلاك الشـائكة المحيطة بجراج مخابرات السـويس لتسـهيل دخول طاقم السرقة . ذهبت معهم أنا والزميل محمود سـليمان بعد أن خططنا لهذه العمـلية . وكانت الخطة تقضى بالخروج بالعربات بعد فتح الثغرة بسـور السـلك الشـائك ، ثم نسـرع بالتوجه بالعربات إلى مكان معدية السـويس ثم نعبر إلى البر الشـرقى بسيناء . وكان موقع المعدية لحسـن الحظ قريباً جداً من موقع العمـلية . وانتشـر طاقم آخر من عشـرين فدائياً حول موقع المعدية من الغـرب ليؤمنـوا بأسـلحتهم عملية العبور من المطـاردة البريطانية . وفى الوقت نفسـه كان الجميع يتقنون قيادة العربات . وحيث أن العمـلية كانت سـتتم بعد العاشـرة مسـاء فقد صـار التفـاهم مسـبقاً ، والترتيب مع طاقم عمال المعدية المصـريين الذين كانوا تابعين لشـركة القنـال الفرنسـية . بدأت العمـلية بفتح الثغرة فى سـور السـلك الشـائك حسـب الاتفاق مع الحراس الموريشـيان الذين تركوا لنامواقعهم بالكـامل وقت العمـلية . وتم تشـغيل العربات ، وخرجنا بها مسـرعين متجهين إلى موقع المعدية . وبمجرد وصـولنا إلى المعدية قام عمال المعدية المصـريون بتشغيلها بأقصى طاقة وتم عبور الخمس

عشرة عربة على ثلاث دفعات فى زمن قصير جداً ، وفى حراسة طاقم الحراسة المنتشرين حول موقع المعدية الغربى . وقد سلم الله فلم يتعقبنا احد من الجيش البريطانى وتجمع الجميع بما فيهم طاقم الحراسة فى البر الشرقى بعد العبور وهناك كان ينتظرنا لورى مصرى به كمية كافية من الوقود .

وبعد إعادة ملء خزانات بنزين العربات المستولى عليها ، بدأنا السير بالعربات المسروقة على طريق القنال الشرقى متجهين إلى القنطرة شرق . واتجهنا من القنطرة شرق إلى معسكر الجيش المصرى هناك حيث سلمنا هذه العربات لهم . واحتفل بنا الزملاء ضباط رئاسة القوات المصرية فى القنطرة شرق . وجمعنا هذا اللقاء اثناء الافطار بإمام القوات الشيخ عبد المنعم الذى كان إماماً للكتيبة الرابعة مشاة أثناء خدمتى بها وكانت كلمة هذا الإمام المبجل كلها إيمان ووطنية .

وكان يتكلم ودموع التأثير تتساقط على وجنتيه من شدة التأثير لأن منظر العربات الخمس عشرة وعليها العلامات البريطانية وهى رابضة فى ساحة المعسكر المصرى الذى يرتفع عليه علم مصر ، كان يدعو حقاً للحماس والتأثر . وعدنا عن طريق القنال فى البر الغربى حيث كانت تنتظرنا عربات لتقلنا إلى مدينة الاسماعيلية .

اقتحام نادى الضباط الانجليز

قام الزميل اليوزباشى غانم بالاستكشاف والتخطيط لهذه العملية فتمكن من معاينة النادى المطل على بحيرة التمساح مباشرة فى مدينة الاسماعيلية ، كما تعرف على رجال الحراسة ، وكانوا من المجندين الأفارقة بالجيش البريطانى ، وعن طريقهم تمكن من جمع معلومات مفصلة عن مداخل ومخارج النادى ومنطقة انتظار السيارات . ومن حصيلة هذه المعلومات قام

بعمل رسم كروكى للنادى وما يحيط به . . وبناء على ذلك وضع خطة كاملة لاقتحامه . وكانت العادة قد جرت فى هذا النادى على أن يبدأ الضباط فى ارتياد ناديهم فى التاسعة مساء . ويقوموا بلعب الميسر الذى يستحوذ على كل تركيزهم وحواسهم . ولذلك تقرر أن يكون الهجوم بعد هذا الميعاد وبمدة كافية .

ما جاء بالمعلومات التى تم جمعها أن عدد العاملين فى النادى لا يتعدى خمسة أفراد . وبناء على ذلك قرر سمير أن تتكون قوته من ثمانية افراد من الفدائيين المصريين . وفى الموعد المحدد استقل سمير ومجموعته سيارة قادوها إلى قرب النادى ثم أخفوها تحت الاشجار . وترجل الفدائيون المسلحون حتى وصلوا إلى موقع النادى فى العاشرة مساء . وبهدوء وتحت ستار الظلام ، طوق الرجال النادى .

وحسب الخطة الموضوعة تسلل أربعة من الفدائيين من ناحية البحيرة عبر الشرفة الخلفية والأربعة الآخرون من ناحية الباب الإمامى . . وعندما أصبح الجميع متأهبين تماماً للاقتحام أصدر أحد الفدائيين من ناحية البحيرة صوتاً كصوت الضفدع وهى الاشارة الخاصة المتفق عليها . وعلى الفور اقتحم الفدائييون الثمانية وهم شاهرو السلاح مبنى النادى من الجهتين فى سرعة فاجأت رواد النادى .

وتقدم أربعة من الفدائيين فتولوا تهديد العاملين بالبوفيه والبار وقام الأربعة الآخرون بتهديد مجموعتين كبيرتين من الضباط العاكفين على لعبة الميسر . ورفع جميع الموجودين أيديهم مستسلمين . ولما كانت التعليمات فى هذه الفترة حاسمة بوقف الاغتيالات فقد قام الفدائيون بتقييد جميع البريطانيين والعاملين بحبال كانوا قد أتوا بها خصيصاً لهذا الغرض ثم أمروهم

بالانبطاح أرضاً على وجوههم فنفذوا صاغرين . وبسرعة استولى الفدائيون على إيراد النادى وما كان بخزينته وجميع متعلقات الضباط الانجليز ، وخرج الفدائيون مسرعين ليقيدوا جميع أفراد الحراسة الأفارقه تنفيذاً لما اتفق معهم عليه . واستولوا على أربع عربات بريطانية كانت فى مكان الانتظار وسلموا كل ذلك فى القاهرة إثباتاً لتمام نجاح عملية الاقتحام .

جمع المعلومات

كان لابد لتصعيد عمليات القتل والنسف من تجميع معلومات عن أهدافنا القادمة لزيادة أعمال العنف التى كان يقوم بها الفدائيون ، فإلى جانب عمليات التخريب والنسف والاغتيالات . كانت تحركات تجرى على نطاق واسع للحصول على معلومات دقيقة عن الجيش البريطانى بالقاعدة .

وبواسطة المندوبين الذين يعملون فى مكاتب الجيش البريطانى حصلنا على رسومات المعسكرات والمنشآت التفصيلية. وكان يدون على هذه الخرائط والرسومات أى تعديل يطرأ بموجب المعلومات التى كنا نحصل عليها أولاً بأول من المندوبين . وفى النهاية أصبح لدينا خرائط تفصيلية شاملة عن توزيع القوات والوحدات البريطانية بمنطقة القنال . وكنا عن طريق العاملين فى مكاتب الضباط والقيادات البريطانية نحصل على كميات هائلة من محتويات سلال المهملات التى تلقى فيها الاوراق من مكاتب القادة وضباط القاعدة ، كانت ترسل كما هى إلى مكتب معلومات القاهرة ، وهناك يعاد فحصها بدقة وأمكن أيضاً الحصول منها على معلومات فى غاية السرية .

تعيين الأهداف الحيوية

بعد أن حصلنا على عدد من خرائط ورسومات المعسكرات والمخازن والمنشآت كنا نعطى صورة من أجزاء هذه الرسومات والخرائط إلى المندوبين

المصريين العاملين بها ليقوموا بتعيين أماكن الأهداف الحيوية ، والمتحكمة بحيث يفيد تحديد اماكنها كثيراً فى عمليات التخريب والنسف والتدمير المؤثر . ثم يعاد وصل هذه الأجزاء لكل معسكر حتى تعطى تفصيلات وافية عن كل معسكر بالكامل على حدة .

الحصول على التقارير والمستندات السرية للغاية

أمكننا تجنيد (بالاتفاق مع العاملين فى مكاتب رئاسة القوات البريطانية وكان منهم شخص يعمل لدى العدو ليعمل لحسابنا) أحد الأجانب غير البريطانيين . وكان يعمل كاتباً بمكتب أحد الجنرالات فى الجيش البريطانى من القادة الكبار . . وعن طريق هذا المندوب واسمه الحركى (المندوب) « واطسون » والذى أمكنه أن يغافل هذا الجنرال ويحصل على مفاتيح خزينة المستندات لفترة زمنية بسيطة مكنته من طبع المفتاح على قالب من الشمع سلمه لنا بالخارج وامكننا عمل نسخة طبق الاصل من المفتاح . وتمكن بواسطة هذا المفتاح المصنع أن يحصل لنا على كمية هائلة من المستندات ذات الصفة السرية للغاية وكان يحملها معه بالخارج ليصورها فى أحد محال التصوير التابعة لنا فى السويس « مصوارتى كليوباتره السيد رشاد النقادى » ويعيد المستندات الاصليه بعد تصويرها ثانية فى اليوم التالى إلى مكانها فى الخزينة مستعيناً بالمفتاح المصطنع .

الأستيلاء على قطارات كاملة

من ضمن المهمات التى أمكن لمندوبينا الذين يعملون فى مخازن الجيش البريطانى فى التل الكبير مساعدتنا فيها أمكننا الحصول على كمية من الختامات الخاصة بعربات البضائع المشحونة بالمهمات العسكرية للجيش

البريطانى وكذلك كمية كبيرة من جهاز الختم الذى يطلق عليه صفارة . وهى عبارة عن شريط من الصلب ينتهى بعلبة تشبه الصفيح .

وكان المتبع أنه بعد أن تملأ عربة بضاعة السكة الحديد بالمهمات العسكرية بعد تفريغ السفن بميناء السويس أو بور سعيد ويغلق الباب على البضائع والمهمات يؤمن الباب لعربة بضائع السكة الحديد المشحونة بالبضائع العسكرية بإدخال طرف الشريط الصلب فى سقاطة الباب ثم يتم ادخال طرف الشريط الآخر فى العلبة الصفيح أو الصفارة المثبتة فى النهاية الأخرى للشريط ثم تعالج العلبة أو الصفارة بختامة من الصلب تحكم اغلاق الشريط ويصبح على الصفارة علامة مميزة للمهمات العسكرية البريطانية ، وبالتالى يؤمن الباب المغلق لعربة السكة الحديد .

وبدراسة سلسلة المهمات والأسلحة والمعدات العسكرية من ميناء الوصول فى بور سعيد أو السويس علمنا أن المهمات والأسلحة والذخائر البريطانية تنقل من ميناء الوصول إلى مخازن القاعدة فى القنال فى عربات السكة الحديد المصرية وتؤمن كل عربة بضاعة مشحونة بهذه الصفارة بعد ختمها وتتم هذه العملية بمعرفة أفراد مكتب انجليزى يطلق عليه R. T. O. وهو مكتب تسهيلات السكة الحديد بعد ختم ابواب عربات البضاعة بمعرفة الـ R. T. O. فى الميناء تسلم إلى مصلحة السكة الحديد المصرية لسائق القطار وعمال السكة الحديد المصريين وعلى السكة الحديد المصرية توصيل هذه العربات وتسليمها مختومة إلى مخازن الجيش البريطانى فى القاعدة دون أية مسئولية من جانب السكة الحديد المصرية مادام الختم سليماً .

بعد الحصول على الأختام والصفارت وهى مفتاح العملية . وبعد دراسة هذه السلسلة . أمكننا ــ بالاتفاق مع مدير الحركة المصرى المهندس

« ذو الهمة الشرقاوى » بالسكة الحديد بالاسماعيلية ــ ترتيب إيقاف قطارات المهمات والبضاعة العسكرية قبل دخولها مخازن الجيش البريطانى وفى مناطق مأمونة لنا وذلك بعد حصولنا على معلومات عن ميعاد مغادرتها للموانى فى طريقها إلى مخازن الجيش البريطانى وتجهيز عدد من العربات الفارغة مماثل لعدد عربات القطار المشحون بالمعدات العسكرية فى المناطق الآمنة المتفق عليها مع الحركة بالسكة الحديد ثم تختم ابوابها بالصفارات والختامات المسروقة من مخازن الجيش البريطانى وتقوم قاطرة بسحب عربات القطار الفارغة إلى مخازن الجيش البريطانى . وتقوم قاطرة أخرى بسحب عربات القطار المشحونة إلى مخاون الجيش المصرى إما بالعباسية أو المعادى ولحسن الحظ أنه فى احد هذه القطارات حصلنا على كميات كبيرة جداً وكافية من مواسير مدافع الميدان المصرية البريطانية الصنع ٢٥ رطل التى كانت شديدة الحاجة للتغيير . كما حصلنا على كميات هائلة من أجهزة القنابل الزمنية التى استخدمناها على نطاق واسع بعد ذلك .

مكافحة الجاسوسية

فى مساء أحد الأيام حضر إلى المكتب شخص مصرى يبدو من حديثه أنه مسلم ــ بخرائط لمنشآت عسكرية وقال لى إنه يعمل رساماً بمكتب الخرائط العسكرية البريطانية وأنه علم من بعض المصريين الذين يعملون معه أن مكتب المخابرات المصرى بالاسماعيلية فى حاجة إلى هذه الخرائط الموجودة تحت يده . وأبدى لهم استعدادت لذلك ولكنه فضل أن يسلمها للمخابرات المصرية بنفسه وعلم منهم عنوان المكتب المصرى وأن الشخص المسئول عن استلام هذا النوع من الخرائط هو ABU - El - FADEL .

(ابو الفادل) ونطقها كما ينطقها الانجليز بالدال وليس بالضاد

البريطانى وكذلك كمية كبيرة من جهاز الختم الذى يطلق عليه صفارة . وهى عبارة عن شريط من الصلب ينتهى بعلبة تشبه الصفيح .

وكان المتبع أنه بعد أن تملأ عربة بضاعة السكة الحديد بالمهمات العسكرية بعد تفريغ السفن بميناء السويس أو بور سعيد ويغلق الباب على البضائع والمهمات يؤمن الباب لعربة بضائع السكة الحديد المشحونة بالبضائع العسكرية بإدخال طرف الشريط الصلب فى سقاطة الباب ثم يتم ادخال طرف الشريط الآخر فى العلبة الصفيح أو الصفارة المثبتة فى النهاية الأخرى للشريط ثم تعالج العلبة أو الصفارة بختامة من الصلب تحكم اغلاق الشريط ويصبح على الصفارة علامة مميزة للمهمات العسكرية البريطانية ، وبالتالى يؤمن الباب المغلق لعربة السكة الحديد .

وبدراسة سلسلة المهمات والأسلحة والمعدات العسكرية من ميناء الوصول فى بور سعيد أو السويس علمنا أن المهمات والأسلحة والذخائر البريطانية تنقل من ميناء الوصول إلى مخازن القاعدة فى القنال فى عربات السكة الحديد المصرية وتؤمن كل عربة بضاعة مشحونة بهذه الصفارة بعد ختمها وتتم هذه العملية بمعرفة أفراد مكتب انجليزى يطلق عليه R. T. O. وهو مكتب تسهيلات السكة الحديد بعد ختم ابواب عربات البضاعة بمعرفة الـ R. T. O. فى الميناء تسلم إلى مصلحة السكة الحديد المصرية لسائق القطار وعمال السكة الحديد المصريين وعلى السكة الحديد المصرية توصيل هذه العربات وتسليمها مختومة إلى مخازن الجيش البريطانى فى القاعدة دون أية مسئولية من جانب السكة الحديد المصرية مادام الختم سليماً .

بعد الحصول على الأختام والصفارت وهى مفتاح العملية . وبعد دراسة هذه السلسلة . أمكننا ــ بالاتفاق مع مدير الحركة المصرى المهندس

« ذو الهمة الشرقاوى » بالسكة الحديد بالاسماعيلية ــ ترتيب إيقاف قطارات المهمات والبضاعة العسكرية قبل دخولها مخازن الجيش البريطانى وفى مناطق مأمونة لنا وذلك بعد حصولنا على معلومات عن ميعاد مغادرتها للموانى فى طريقها إلى مخازن الجيش البريطانى وتجهيز عدد من العربات الفارغة مماثل لعدد عربات القطار المشحون بالمعدات العسكرية فى المناطق الآمنة المتفق عليها مع الحركة بالسكة الحديد ثم تختم ابوابها بالصفارات والختامات المسروقة من مخازن الجيش البريطانى وتقوم قاطرة بسحب عربات القطار الفارغة إلى مخازن الجيش البريطانى . وتقوم قاطرة أخرى بسحب عربات القطار المشحونة إلى مخاون الجيش المصرى إما بالعباسية أو المعادى ولحسن الحظ أنه فى احد هذه القطارات حصلنا على كميات كبيرة جداً وكافية من مواسير مدافع الميدان المصرية البريطانية الصنع ٢٥ رطل التى كانت شديدة الحاجة للتغيير . كما حصلنا على كميات هائلة من أجهزة القنابل الزمنية التى استخدمناها على نطاق واسع بعد ذلك .

مكافحة الجاسوسية

فى مساء أحد الأيام حضر إلى المكتب شخص مصرى يبدو من حديثه أنه مسلم ــ بخرائط لمنشآت عسكرية وقال لى إنه يعمل رساماً بمكتب الخرائط العسكرية البريطانية وأنه علم من بعض المصريين الذين يعملون معه أن مكتب المخابرات المصرى بالاسماعيلية فى حاجة إلى هذه الخرائط الموجودة تحت يده . وأبدى لهم استعدادت لذلك ولكنه فضل أن يسلمها للمخابرات المصرية بنفسه وعلم منهم عنوان المكتب المصرى وأن الشخص المسئول عن استلام هذا النوع من الخرائط هو ABU - El - FADEL .

(ابو الفادل) ونطقها كما ينطقها الانجليز بالدال وليس بالضاد

(أبو الفضـل) وأصـر على أن يسـلمها لـ (أبو الفادل) نفسه واستنتجت فى الحـال أنه عميل بريطانى مكلف رأسـاً ومباشـرة من ضـباط انجليز لإجراء هذا الاتصـال وليس موفدامن أحد المواطنين المصـريين كما يدعى ــ وتظاهرت بأننى لسـت (أبـو الفـادل) وأننى سـانـاديه له ليقـابلة وخرجت إلى المكتب المجـاور وكان موجوداً به الزميل سـامى حافظ من مخابرات الطيران . وفى سرعة أفهمت الـزميل سـامى حافظ الوضــع وطلبت منه أن يمثل على العميل أنه أبـو الفـادل ويستدرجه فى الحديث حتى تكرر نطق هذا الأسـم عدة مرات ويجعله يعيد عليه الحديث الذى تحدث به إلى ثانية . وقمت أنا بتشـغيل جهاز التسـجيل من الغرفة المجـاورة والمتصـل بميكرفون فى الغرفة الموجود بها الزائر

وبعـد أن أعـاد عليه الزميل سـامى حافظ الكلام وتأكدت من سـلامة التسـجيل وأصـبـح لدى قرينـة صـوتية ضـده أمـرت باسـتمرار التسـجيل ودخلت عليهـما الغرفة عندما بدأ الزائر يخرج ثلاثة خرائط من تحت ملابسـه ليسـلمها للزميل سـامى حافظ على أنه هو أبو الفادل . وبالاطلاع على الخرائط وجدناها خرائط صحيحة وليست مزيفة . عند ذلك فاجأت الزائر المشـتبه فيه بسؤال مفـاجىء له تمامـاً قلت له : من الضـابط الانجليزى الـذى كلفـك بالحضـور إلينا ؟ ونظر إلى دهشـا وظل صـامتاً ، فأخبرته بأنى قد سـجلت كل كلمة قالهـا وأن نطقه لاسـم « أبو الفضل » يدل على أنه قد لقن بالاسـم عن طريق رجل انجليزى وأنه مكلف من قبل أعدائنا الانجليز بالتجسـس والخيـانة وأنه من الأفضـل له أن يعترف بكل شىء وبالحقيقة . . وأننا قد نسـتفيد منه بشـكـل أو بآخر وإلا قمت بتسـليمه للنيابة ليحاكم بتهمة الخيانه كما حوكم « كنج صـبرى » من قبل . أصـابته مفاجأتى له بالوجوم ثم انهار تماما . وبعد وقت قليـل بدأ يتمـالـك نفسـه معـترفـاً بأن الضـابط الـبريطانى الذى كلفه بالحضـور هو ضـابط المخابرات البريطانى ويليامز وهو نفس الضـابط الذى

كان يقوم بتشغيل الخائن كنج صبرى والذى كلفه بعدة مهام .

(أولاً) التأكد من أن المخابرات المصرية هى المهتمة فعلاً بهذا النوع من الخرائط .

(ثانياً) محاولة الوقوف من خلال الحديث مع (ابو الفادل) عن سبب جمع هذه الخرائط .

(ثالثاً) محاولة استدراج (أبو الفادل) لدخول معسكر الجيش البريطانى الموجودة به الخرائط بحجة إمكان تسليمه هناك عدداً كبيراً منها يصعب على المندوب الخروج بها بنفسه .

(رابعاً) أو استدراج (أبو الفادل) بالحديث عن بعض مندوبى المخابرات بدعوى تسليمهم هذه الخرائط عندما يحصل لهم عليها (وبذلك يتمكن من الوقوف على أسماء المندوبين المصريين داخل المعسكرات) .

(خامساً) أن يحاول أثناء دخوله وخروجه من مكتب المخابرات المصرى التعرف على المداخل والمخارج للمكتب وحجم ومواقع الحراسات حول المكتب وتسليحها وعددها بالتقريب .

بعد هذه الاعترافات أكدت له أنه قد تم تسجيلها أيضاً وأنه الآن أصبح متهماً يمكن محاكمته وإثبات تهمة الخيانة وعليه أن يختار إما المحاكمة بتسليمه إلى النيابة أو الموافقة على أن يعمل لحسابنا وتنفيذ كل ما نأمره به . عند سماعه هذا العرض وافق وهو لا يصدق أن حياة جديدة قد كتبت له ، ووافق بالعمل فى كل ما نأمره به . أخذت الخرائط وخرجت وتركته مع الزميل سامى وقمت بتصوير الخرائط الثلاث . أعدت إليه الخرائط وقلت له :

(أولاً) خـذ هذه الخـرائط وأعـدها إلى ويليـامـز وأفهمه بأن : لا أبو الفـادل ولا المخابرات المصـرية فى حاجة إلى هذه الخرائط .

(ثانياً) رداً على طلبه باستدراج « أبو الفـادل » لدخول المعسـكر أخبره أنك لم تجرؤ على ذلك ما دام أبو الفضـل ليس له أية رغبة فى الخرائط .

(ثالثـاً) أمـا عن استـدراج « أبـو الفـادل » للإفصـاح عن أسماء وشخصـيات بعض المنـدوبـين المصـريين داخـل المعسـكرات فأخبره بأنك أرجأت ذلك فيما بعد إذا أمكنـك معاودة الاتصـال بأبو الفادل خصـوصـاً وأنه أسلمك بعض المنشـورات ضـد الجيش البريطانى (وأعطيته كمية منها ليقوم بتـوزيعهـا داخـل المعسـكر) وعليـك أن تسـلم ويليـامـز هذه المنشـورات (هدية منى له) .

(رابعاً) أما عن عملية اسـتكشاف مداخـل ومخارج المكتب فإنى أسـمح لك باسـتخدام قوة ذاكرتك عند خروجك من عندنا فحاول أن ترسـم صـورة حسـب رؤيتك وتعيدها على الضـابط ويليـامز .

(خامساً) أما عن طلبه منك معرفة معلومات عن الحراسـة فعليـك أن تقول له : إنك لم تلاحظ أى حراسـة ظاهرة وأنه لم يعترض طريقك إلى المكتب أى حراس ولكنـك لاحـظت وجود كثير من الأفراد داخـل الشـجر الكثيف المحيط بالمكتب وأنـك خبرتهم من أصـواتهم وبـالغ فى هذا العدد . أما عن التسـليح فأخبرهم أنه لم يمكنـك رؤيتهم حتى تقف على تسـليحهم .

وأخـيراً كلفتـه بزيارتنـا مرة أخرى واتفقت معه على مكان معين يمكنه انتظارنا عنده بمدينة الاسـماعيلية ويسـتحسـن أن يكون ليـلاً بعد أن يتصـل تليفونياً وأعطيته اسـماً كودياً « مرزبان » على أن يرتدى عند الزيارة قبعة قماش

بيضاء كالتى اعتاد أن يلبسها أهل منطقة القنال ويحمل معه فى يده بشكل ظاهر علبة مربى ماركة قها .

واعتبرته من هذه اللحظة عميلاً مزدوجاً أحاول الاستفادة منه لأقصى حد وإذا ثبت إخلاصه يمكن اعتباره مندوباً وطنياً كاملاً .

وبعد ثلاثة أيام حضر بالأسلوب المتفق عليه وعرفنى بأن الضابط ويليامز صدقه فى كل ما قاله خصوصاً عندما سلمته المنشورات ، وصرف النظر كلية عن إعادة تشغيله كجاسوس . ولكنه أبدى استعداده لخدمة بلده . وأفهمنى أن الزيارة الأولى التى قام بها لنا كانت أول تجربة له مع الضابط ويليامز ، وأنه لم يكن مقدراً خطورتها حتى تمت مقابلته معنا التى علمته فيها درساً لن ينساه . وعلمت من الحديث معه أنه يتقن التصوير وسلمته أدوات التصوير اللازمة لتصوير المستندات ، وكلفته بتصوير أكبر عدد ممكن من الخرائط الموجودة . وفعلاً قام بهذه المأمورية خير قيام

تجنيد مندوب

فى إحدى زيارات المندوب (مرزبان) ـ مندوب الخرائط السابقه ـ علمت منه أنه على صلة بشخص اسمه شريف كيسون يعمل مع ضابط المخابرات ويليامز وكان لدينا بالمكتب ملف خاص عن شريف كيسون وأحضرت الملف وعند اطلاعى عليه علمت أنه سودانى الجنسية يعمل مع مكتب المخابرات البريطانى وأنه يتعاون معهم فى أعمال الترجمة واستجواب المعتقلين المصريين من المقاومة الشعبية فى عام ١٩٥١ وأنه مشتبه فى تعاونه الضار ضد مصر ، ولكن ليست هناك أى أدلة مادية ضده لأنه يمتاز بالحرص الشديد والذكاء الحاد . لكنه يعرف الكثير من المعلومات عن أعمال

المخابرات البريطانية وخاصة عن الجواسيس المصريين الذين يعملون معهم . وأنه ضمن المطلوب اعتقاهم ولكنه لا يخرج إطلاقاً من المعسكرات البريطانية ولا يتحرك إلا بحراسة . بالإضافة إلى هذه المعلومات كانت لدينا حصيلة معلومات عن شخصيته من واقع تقارير المندوبين الذين يعملون مع مكتب مخابرات الاسماعيلية المصرى وطرأت فى ذهنى فكرة احتمال التعاون مع شريف كيسون ، واتفقت مع مرزبان أن يحاول مكاشفة شريف كيسون عن إمكانية إقامة اتصال بينى وبينه ، وأنه من الممكن تأمينه إذا تمكن من تقديم خدمات للمخابرات المصرية فيمكننا عند ذلك إصدار عفو عنه فلا يحاكم .

فى لقاء بعد ذلك مع مندوب الخرائط (مرزبان) أبلغنى أن شريف كيسون وافق على اللقاء والتعاون مادام هناك عفو من أعلى المستويات المصرية سيصدر عنه ، ولكنه اشترط كبداية لبناء جسور الثقة أن يتم لقائى الأول به داخل المعسكرات ، ووعد بعمل التصريح Pass الخاص بذلك لى تحت اسم مستعار وطلب منى صورة بغطاء الرأس (البيريه) والذى يجب أن أرتديه عند حضورى داخل المعسكر . وكانت مغامرة منى أن أقبل هذا العرض على هذا النحو . لكن كان لدى اقتناع بامكان النجاح فى مأموريتى فمن دراسة جميع المعلومات عن شريف كيسون تكون لدى شعور داخلى فى إمكان الوثوق به حيث برزت لديه الشهامة والرجولة والوفاء بالوعد فى كثير من المواقف مع الذين تعامل معهم . وفعلاً تم اللقاء بأمان وأثبتت مجازفتى بدخول المعسكرات عن إمكان الثقة منه بى وبنفس القدر أثبتت تصرفات شريف كيسون بعدم الغدر بى أنه أصبح محل ثقة لدى .

قضية تجسس كاملة الأركان

فى أحد الأيام التالية حضر شريف كيسون مع (مرزبان) وللمفاجأة

أخرج لى من جيبه صورة فوتوغرافية لوثيقة تصميم أحد الألغام المصرية المضادة للدبابات من مستندات إدارة البحوث والتطورات العسكرية المصرية . وقال إن المستند الأصلى موجود فى هذه اللحظة فى حوزة الجاسوس المصرى (مكسيموس) الذى كان فى لقاء فى مخابرات الجيش البريطانى اليوم وقد قام هو بتصوير هذا المستند للمخابرات البريطانية وتمكن من تصوير صورة إضافية خلسة ، هى التى سلمها لى وغادر الجاسوس مكتب المخابرات البريطانى فى طريق عودته إلى القاهرة . و(مكسيموس) هذا هو موظف الأرشيف المصرى المسئول فى قسم إدارة البحوث والتطورات العسكرية المصرية عن حفظ مثل هذه المستندات وقد حضر به لتؤخذ له صورة فى المخابرات البريطانية . وسوف يعود بالأصل ليودعه ملفه فى الإدارة المصرية فى صباح اليوم التالى . وقد سبق وأحضر كثيراً من هذه المستندات للمخابرات البريطانية . واستنتاجاً فإن المستند الأصلى سيكون فى حوزة الجاسوس (مكسيموس) حتى صباح اليوم التالى وكان علينا أن نقبض عليه متلبساً بحيازة هذا المستند الأصلى وقبل إيداعه الملف . جعلت شريف كيسون يوقع على صورة المستند بما يفيد أنها صورة طبق الأصل من المستند . وتقديراً من شريف كيسون لأهمية عامل الوقت فقد زودنى بوصف كامل للجاسوس وصورة فوتوغرافية له وكذلك عنوانه بالقاهرة . وكان يقيم فى شبرا ، وأبلغنى أيضاً أن الجاسوس سيسافر إلى القاهرة فى قطار المساء من محطة الاسماعيلية فى الساعة كذا وكان موعد مغادرة القطار قد اقترب جداً . ولعدم إضاعة مزيد من الوقت أمرت بتجهيز عربة ورافقنى فيها الزميل سامى حافظ وتوجهنا إلى المحطة (الاسماعيلية) ووجدنا القطار قد غادر المحطة فأسرعنا بالسفر بالعربة إلى القاهرة وتوجهنا رأساً إلى مكتب مخابرات الطيران . وكان هناك قائد المكتب عصام خليل وزودنا بشخصين

مسلحين رافقانا فى العربة . وتوجهنا رأساً إلى مدخل منزل الجاسوس (مكسيموس) لأنه بحساب الزمن لم يكن قد وصل إلى منزله بعد .

حول مدخل المنزل انتشرنا نحن الأربعة وبعد مدة طويلة من المراقبة حضر شاب يطابق الوصف والصورة التى معنا . وعندما اقترب من باب المنزل اعتقلناه بسرعة وأرغمناه على ركوب العربة .

ذهبنا رأساً بالجاسوس إلى مكتب مخابرات الطيران وكان ينتظرنا قائد المكتب عصام خليل . وللمفاجأة التى تم بها اعتقاله وتفتيشه وعثورنا على المستند الأصلى سليماً انهار واعترف فى التحقيق بكل ما يدينه . وفى الصباح ذهبت مع الزميل سامى حافظ إلى إدارة البحوث والتطورات الحربية . وقابلنا المدير وسألناه عن ملف تصميم اللغم المصرى . وتأخر وصول الملف فترة ثم أحضره القائد وكان ينقصه تصميم اللغم . وبدت علامات الاستياء على المدير الذى أبلغنا أيضاً بتغيب الشخص المسئول عن حفظ الملف ، وزاد سوء موقفه عندما أبرزنا له صورة المستند المصورة فى مكاتب الانجليز .

بذلنا مجهوداً كبيراً لإعادة الطمأنينة إلى القائد وأفهمناه أننا قبضنا على الجاسوس متلبساً بحيازة المستند الأصلى ، ووافق كطلبنا بأن وقع على ورقة مكتوب بها شهادة بأن المستند الأصلى رقم كذا الخاص بتصميم اللغم المضاد للدبابات اختفى من الملف الخاص به رقم كذا وأن المسئول عن اختفائه هو موظف الأرشيف (مكسيموس) ، وبذلك استكملت حلقات التهمة حول مكسيموس حيث حول إلى محكمة الثورة ، وصدر عليه الحكم بالإعدام نظير خيانته .

كما وعدت شريف كيسون فقد صدر العفو عنه وترك العمل بالجيش

البريطانى لأن أمره لابد قد انكشف بعد إعلان هذه القضية فى الصحف .

القبض على شبكة كبيرة من الجواسيس

أثبت شريف كيسون أنه على درجة كبيرة من الذكاء . فقد سلمنى بعد محاكمة مكسيموس صور مستندات عديدة أمكنه أن يحصل عليها من داخل أرشيف مكتب المخابرات البريطانى بعد اتفاقه على التعاون معنا . كان من هذه المستندات والوثائق الأدلة الكافية على خيانة عدد كبير من جواسيس مصريين يعملون فى أماكن حساسة تحوى أسراراً هامة للدولة . وكان أغلبهم فى إدارة المباحث العامة . وفى بعض قيادات رئاسات أسلحة الجيش . وكان من أخطرها قسم التسليح بالسلاح البحرى المصرى بالاسكندرية ، تم اعتقالهم جميعاً وحوكموا وصدرت عليهم أحكام مختلفة ، بعضها مخففة ، وبرىء البعض منهم واستبعد البعض من العمل فى الأماكن الحساسة .

العميل المظلوم

بعد أن تمت محاكمة الخائن (مكسيموس) بالقاهرة عدت للعمل بمكتب الاسماعيلية ، وفوجئت بأن المباحث العامة بالاسماعيلية قد قامت بالقبض على المدعو محمود العدوى ورحلته إلى القاهرة ليحاكم أمام محكمة الثورة بتهمة الخيانة .

ولما كان محافظ الاسماعيلية قد سلم لى هذه القضية من بدايتها ، وكنت أنا المسئول عن السير فيها ، ولم تكن حلقاتها قد اكتملت بعد لإثبات تهمة الخيانة عليه بالأدلة المادية . فقد عجبت لذلك ، ولم أشأ أن أتدخل فى الموضوع على أساس احتمال قيام المباحث العامة باستكمال حلقاتها . ولكن

فى مساء ذلك اليوم اتصل بى تليفونياً السيد زكريا محيى الدين . وكان بجانب كونه مدير المخابرات يقوم بعمل المدعى العام فى قضايا محكمة الثورة . وطلب منى مقابلته بالمنزل فى صباح اليوم التالى لأهمية الموضوع .

وكانت قضية محمود العدوى تتلخص فى الآتى : فى أحد الأيام حضر لى فى مكتب الاسماعيلية وكيل المحافظ على عفيفى ومعه ضابط صغير يعمل فى المباحث الجنائية (مجدى) وأبلغنى أن هناك مواطناً مصرياً يدعى محمود العدوى يقيم فى منطقة فايد المتاخمة للمعسكرات البريطانية هناك . وليس له أى عمل ظاهر يتعيش منه . زار العدوى هذا الضابط (مجدى) فى مكتبه بالمباحث الجنائية . وبعد حديث طويل معه أغراه بأنه يمكنه تسليمه مبلغاً كبيراً من المال إذا ما قام هذا الضابط وحصل للعدوى على خطاب أو مستند رسمى من المحافظة أو من مديرية الأمن أو من المباحث فيه ما يدل على أن مكتب المخابرات فى الاسماعيلية هو الذى يدير عمليات المقاومة بكل أنواعها ، وكذا الاعتداءات على الجيش البريطانى فى محافظة الاسماعيلية ، وأفهم العدوى الضابط (مجدى) أن هذه العملية لحساب أحد ضباط المخابرات البريطانية وسيقابله به فى منزله لإجراء هذا الاتفاق . وقام الضابط بتبليغ ذلك إلى وكيل المحافظة الذى كلفه بمسايرة العدوى وأحضره لى للتصرف لأن لدى المخابرات إمكانيات لمثل هذا العمل أكثر مما لدى المباحث العامة . وأبديت استعدادى لتولى هذه القضية وزودت الضابط مجدى بجهاز تسجيل صغير يخفيه تحت ملابسه ويستخدمه فى الاجتماع إما مع العدوى منفرداً أو وهما مجتمعان مع ضابط المخابرات البريطانى لتسجيل كل أحاديثهم ، وأن يوالينى أولاً بأول عن كل اجتماع مدعماً بالتسجيل . قام الضابط بزيارة محمود العدوى فى مسكنه بقرية فايد واجتمع معه منفرداً وسجل له حديثاً لم يتعد ما قصه على وكيل المحافظة . وتوقفت القضية عند

هذا الحد ، وانشغلت فى قضية (مكسيموس) .

مقابلة المدعى العام لمحكمة الثورة

قابلت زكريا محيى الدين بمنزله حسب الاتفاق قبل أن يتوجه مباشرة إلى محكمة الثورة ، وذلك فى صباح اليوم الذى كانت ستنتهى فيه محاكمة محمود العدوى . يادرنى زكريا محيى الدين بسؤال محدد « هل المتهم محمود العدوى يعتبر فى نظرك خائناً حسب ما لديك من خيوط هذه القضية ؟

أجبته فى الحال وبدون تردد « كلا » لأنه « لا يمكن أن يحاكم العدوى على تهمة الخيانة بخصوص اتصاله بضابط المباحث الجنائية (مجدى) لأننى شخصياً لم يصلنى أى تسجيل لحديث له يدل على الخيانة » .

واستأنف زكريا محيى الدين كلامه قائلاً « ولكن لقد تم تسجيل حديث للضابط معه فى منزله وهو يطلب فيه من الضابط تكليفه بالحصول على الخطاب » .

وأجبته « مادام لم يتم تسجيل حديث بين الاثنين وبين ضابط المخابرات البريطانى والذى يمكن أن يدل على تواطؤ العدوى مع ضابط المخابرات البريطانى . فإن أركان الجريمة تكون غير قائمة ، وان رأيى ألا يحاكم محمود العدوى على تهمة الخيانة لأن الجريمة لم تحدث » . وقلت له « يمكن سؤال الضابط (مجدى) فى شهادته فى المحكمة عما إذا كان تقابل مع العدوى بحضور ضابط المخابرات البريطانى . وعلم منه أو سجل له أى كلام يدل على التواطؤ مع العدوى . فإذا كان رده بالنفى . فليس هناك أى جريمة أو تهمة خيانة ، ويجب أن يحكم ببراءته .

انتهت المقابلة عند هذا الحد وتركت زكريا محيى الدين وهو يهم بركوب

السيارة متجهاً إلى محكمة الثورة .

وتخلفت فى القاهرة حتى يمكننى التحقق من حكم البراءة ولكن صدر الحكم على محمود العدوى من محكمة الثورة بعشر سنوات أشغال شاقة . وتأثرت من هذا الحكم . وبلغنى أن محمود العدوى بالسجن الحربى يطلب مقابلتى . فقابلته وفوجئت به يشكرنى لأننى أنقذته من حبل المشنقة . ولم أعرف كيف بلغه موقفى .

التحرش السافر رغم تقدم مفاوضات الجلاء

بعد عدة أيام من إعلان محاكمات شبكات الجواسيس التى كانت تعمل مع المخابرات البريطانية بالقنال . توقعت أن يكون هناك تحرشاً من البريطانيين بمكتب المخابرات المصرى ولذلك كنت أوصى كل من يدخل المكتب أو يخرج منه من المندوبين أو الفدائيين أن يكون مسلحاً ، علاوة على وضع وتنفيذ خطة حراسة مكثفة بشكل ظاهر تعمدت أن تصل أخبارها للمخابرات البريطانية ..

وفى يوم كنت أركب عربة جيب عسكرية تابعة لمكتبنا يقودها الزميل كمال رفعت ومعنا الزميل سعد عفرة وثلاثة فدائيين آخرين وكلنا مسلحون . كنا فى طريقنا إلى القاهرة . عندما اتخذنا الطريق الموازى للترعة لنعبرها إلى الطريق المؤدى إلى القاهرة ، وفوجئنا بنقطة تفتيش بريطانية وضعت فجأة قبل الكوبرى . وكانت تقوم بتفتيش إحدى عربات الجيش المصرى وكانت تسبقنا ويقودها السائق بمفرده . أوقفنا عربتنا قبل نقطة التفتيش البريطانية لأننا توقعنا التحرش بنا ، فنزلت ومعى الثلاثة الفدائيون بأسلحتهم واتخذنا مواقع حاكمة على نقطة التفتيش البريطانية ، وذلك بعد أن اختفينا فى الاعشاب على جانبى الترعة . واستمر كمال رفعت وسعد عفرة فى السير بالعربة إلى أن

أوقفهما جنديان بريطانيان بأسلحتهما عند نقطة التفتيش وطالباهما بمغادرة العربة لتفتيشها ، وضع كمال رفعت يده على زناد مدفعه الرشاش ، بينما قال سعد عفرة للجنود : نحن ضباط مصريون ولا يجوز تفتيشنا وهو قابض على مدفعه لايضاح أننا سنقاومهم ، ذهب الجندى إلى رئيس الموقع الذى جاء إلى العربة وسمح لها بالمرور . وكانت المفاجأة أن العربة لم تتحرك ، فكرر السماح بالمرور وإذابه يرى أربعة مسلحين قادمين من جانب الترعة وقال له كمال رفعت لا شك أنها كانت ستصبح معركة حامية لومنعتمونا أو قمتم بالتفتيش .

عملية خطف العسكرى البريطانى ريجدن

قام طاقم من مجموعة الفدائيين باستدراج أحد الجنود من بار فى الاسماعيلية . وعندما هموا بإرغامه على ركوب عربتهم قاوم بعض الشىء ولاحظ ذلك جندى بوليس حربى بريطانى فأطلق طلقا نارياً على العربة بعد أن تحركت وأصابت الطلقة جسم العربة دون أن تصيب أحد الأفراد . وأبلغ الجنود البوليس الحربى القيادة البريطانية فى القنال وفى سرعة صدرت الأوامر للقوات البريطانية بمحاصرة جميع الطرق لمخارج الاسماعيلية وتفتيش جميع العربات المغادرة لها .

وأنا بالمكتب وخالى الذهن تماماً من كل ما حدث جاءتنى مكالمة تليفونية من إحدى قواعد تدريب الفدائيين وهى عزبة الاستاذ حسين فهمى المحامى فى القصاصين وكانت خارج نطاق الحصار المضروب على الاسماعيلية . أبلغنى أنه حضر إليه ثلاثة من الفدائيين المعروفين له ومعهم جندى بريطانى اختطفوه من أحد البارات ويريدون قتله ودفنه بعزبته . أصدرت أوامرى إليهم عن طريقه بعدم قتله والنزول بعربتهم ومعهم الجندى المختطف حياً إلى

رئاسة المخابرات بالقاهرة رأساً وألا يستعملوا أية أساليب عنف معه وسلموه هناك . تصاعد الموقف البريطانى بسرعة غير عادية ، وقبل أن تتخذ القاهرة قرارها بشأن الجندى المخطوف ، أصدرت القوات البريطانية انذاراً رسمياً لمحافظ الاسماعيلية لتبليغ السلطات المصرية « أنه إذا لم يسلم الجندى المختطف ريجدن إلى القيادة البريطانية قبل الساعة ٨ مساء اليوم التالى سيتم احتلال مدينة الاسماعيلية بكل مرافقها للبحث عن « ريجدن » .

ولما كنت متأكداً بأن الحكومة المصرية سوف ترفض الإنذار ، فقد قمت بعمل خطة سريعة مع الزميل عمر لطفى للدفاع عن مدينة الاسماعيلية ، وجمعت أكبر عدد ممكن من الفدائيين ، كما تطوع جمع كبير من شعب الاسماعيلية وأبدوا كامل الاستعداد للاشتراك فى الدفاع عن مدينتهم .

وذهبت لمقابلة فضيلة الشيخ محمد فرغلى رئيس الاخوان المسلمين بالاسماعيلية للمشاركة بشباب الاخوان فى الدفاع عن المدينة ، إلا أنه رفض وأخذ ينتقد عملية خطف الجندى البريطانى « ريجدن » وأكد أنه لم يكن لها أى مبرر أو معنى فشكرته على ذلك ، وانصرفت فى الحال .

وفى فترة زمنية قصيرة من صباح يوم الإنذار كان جميع أفراد المقاومة الشعبية بأسلحتهم فى أماكنهم الدفاعية عن المدينة .

وقبل موعد نهاية الإنذار بزمن قصير ــ وكنت أستمع إلى إذاعة القاهرة ــ إذا بيان من الحكومة المصرية يلقيه صلاح سالم وزير الارشاد القومى آنذاك وعضو مجلس قيادة الثورة ، ترفض فيه مصر الإنذار البريطانى .

وبعد إذاعة البيان ، اتصل بى تليفونياً الشيخ محمد فرغلى . تراجع وابدى استعداده وشباب الاخوان ، للدفاع عن المدينة وباركت ذلك ، وكلفته بإعطاء التعليمات لشباب الاخوان . بالنزول إلى الخطوط الدفاعية ، المخططه شعبياً بمدينة الاسماعيلية .

ويبدو أن جواسيس البريطانيين نقلوا للسلطات الانجليزية مدى استعدادات وقوة المقاومة الشعبية المصرية حول المدينة كذلك كان لرفض الحكومة المصرية لذلك الإنذار بهذه الصلابة ، تأثيره الفعال على العقلية البريطانية ، فقد صرفوا النظر عن احتلال المدينة كما جاء بإنذارهم لتوقعهم المقاومة العنيفة من أهالى الاسماعيلية .

وفى عملية مخطط لها ومحسوبة ، قامت المخابرات المصرية بتزويد ريجدن بالملابس المدنية وجواز سفر باسم مزيف ، وخرج من مصر برفقة أحد ضباط المخابرات إلى دولة أوروبية ، ومن هناك عاد إلى بلده انجلترا وأذاع من الإذاعة البريطانية بياناً بحسن معاملة المصريين له .

الحرب النفسية

بجانب أعمال المقاومة العنيفة التى يصحبها تبادل إطلاق النيران وبعض الخسائر فى الأرواح ، كان هناك أيضاً نوع اخر استمر من بدء عمليات المقاومة إلى آخر يوم ، وكان أثره فعالاً برغم أنه لا ينتج عنه أية خسائر فى الأرواح الا وهو الحرب النفسية التى تكلف العدو الكثير من الخسائر المادية . والأخطر من ذلك ما تسببه لنفسية جنود الاحتلال من انهيار عصبى وشعور بالقلق وعدم الاطمئنان . وقد مارسنا هذا النوع من أنواع المقاومة بأسلوب دقيق ومتقن ومدروس من بدء العمل الفدائى إلى يوم توقيع اتفاقية الجلاء .

ا ـ حرمان جنود القاعدة من صحافة يوم الأحد والمواد الغذائية

كانت صحافة يوم الأحد ولا تزال لها وضع خاص لدى كل بريطانى . وفى تلك الأيام فى قاعدة القناة كانت صحافة يوم الأحد هى وسيلة الجندى البريطانى الوحيدة تقريباً التى تحافظ له على صلته بناديه الرياضى وحياته الاجتماعية . وقد قررنا بناء على ذلك أن النجاح فى حرمان البريطانيين الموجودين بقاعدة القنال من الحصول على صحافة يوم الأحد قد يضيف شيئاً من الضيق النفسى لمجموع البريطانيين الموجودين . وكان الجيش البريطانى يعتمد فى الحصول على هذه الصحف على مكاتب التوزيع المصرية فتمكنا بعد الدراسة أن نوقف وصول هذه الصحف إليهم . وفى حالة انصراف الجيش البريطانى عن قنوات التوزيع المصرية أصبح إحضار الصحف خصيصاً للقاعدة يكلفهم الكثير .

وقد مارسنا مثل هذه العمليات المزعجة والمكلفة أيضاً بحرمانهم من كثير من مواد التموين التى كانوا يعتمدون على السوق المصرية فى إحضارها لهم .

ب ـ أساليب أخرى للحرب النفسية

تمكنا خلال هذه المرحلة من جمع معلومات مسبقة عن أماكن الترفيه التى يقيمون فيها حفلاتهم الساهرة وتواريخ ومواعيد هذه الحفلات مثل ليالى عيد الميلاد ورأس السنة ، بالإضافة إلى أماكن حفلات السينما ولذلك تم القيام باستكشاف لطرق الاقتراب من هذه الأماكن والمناطق المحيطة بها والحاكمة عليها من خارج معسكرات الجيش البريطانى . فكنا نقوم باحتلال هذه المواقع الحاكمة بأفراد قلائل من الفدائيين الذين تم تسليحهم بأسلحة أتوماتيكية سريعة الطلقات .

وفى الوقت الذى يبلغ فيه البريطانيون أعلى مراحل النشوة والاستمتاع يقوم الفدائيون بإطلاق نيران أسلحتهم على زجاج النوافذ والمصابيح الكهربائية لأكشاك الحراسة من الخارج والمصابيح الكهربائية بالداخل مع الحرص على عدم اطلاق النيران على الأفراد حتى تكون مثل هذه العمليات ذات طابع خاص ، للإزعاج فقط فينفض الحفل فى الحال ، فتنطلق صفارات الخطر . وقبل أن تخرج الدوريات للاستطلاع والمطاردة . ننسحب فى أمان تاركين المحتفلين والساهرين والساهرات فى حالة نفسية مزعجة .

حـ - عمليات التخريب

من الطريف أننا تمكنا من القيام بعمليات نسف وتدمير عديدة ضد المنشآت البريطانية بواسطة الأقلام الزمنية التى حصلنا عليها عن طريق السطو على مخازن وقطارات البضائع التابعة للجيش البريطانى وكان استخدام هذه الأقلام الزمنية بواسطتنا هو الاستخدام الأول لها فى مصر وضد أصحابها الأصليين . فتمكنا بواسطة هذا السلاح الجديد من تدمير مستودعات الذخيرة والبنزين والمهمات وطرق مواصلات الجيش البريطانى دون تواجد أفراد الفدائيين عند حدوث الانفجارات .

د - المنشورات

كان هناك طاقم فنى متخصص فى عمل المنشورات سواء من الفنيين المتخصصين فى الرسوم الكاريكاتورية أو فى الصياغة الانجليزية التى تخاطب العقلية البريطانية ، يكتبها مصريون عاشوا شبابهم فى انجلترا . ويتم كل ذلك فى شركة النيل للاعلان ومنهم السيد على زين العابدين والد الشهيد جواد حسنى وتحت اشراف الزميلين وجيه أباظة وجمال الليثى .

ونقوم نحن فى منطقة القنال بواسطة شبكة المندوبين المصريين والفلسطينيين والأجانب المنتشرة فى القاعدة البريطانية بتوزيع هذه المنشورات التى كانت تخاطب جنود وضباط الشعب البريطانى وتذكرهم بعدم جدوى الاستمرار فى احتلال مصر معرضين أنفسهم للمتاعب وعدم الاستقرار والقتل .

وقد وصل أمر توزيع هذه المنشورات لدرجة أن زوجة القائد العام البريطانى للقاعدة انتابها الذعر حين عثرت على أحد المنشورات تحت وسادها فى غرفة النوم .

ختام الكفاح

وفى مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٤ وكنا عائدين من السويس إلى الاسماعيلية فى عربة يقودها الزميل كمال رفعت ومعه سعد عفرة واثنان زملاء كمال رفعت هما الفدائيان : عباس دسوقى وضياء حسنين . وبعد استلامنا صورة من وثيقة هامة من مكتب السويس عبارة عن تقرير عسكرى بريطانى عن الاجراءات البريطانية التى سيتخذونها فى القاعدة إذا ما تمت عملية المفاوضات وإلى حين الجلاء الكامل . وضعنا هذه الوثيقة فى مظروف تحت المقعد الخلفى للعربة . وكقاعدة عامة كنا جميعاً مسلحين . اتخذنا طريقاً فرعياً عند أبى سلطان فى الصحراء حتى نتحاشى نقط التفتيش البريطانية خوفاً على الوثيقة . فوجئنا بأنوار قوية تضاء فجأة فى مواجهتنا صادرة من عربة داورية بريطانية . توقفنا بإشارة من أحد الجنود البريطانيين يعلق سلاحه (البندقية) على كتفه . نزلنا نحن الثلاثة كمال رفعت وسعد عفرة وأنا وانتظر فى المقعد الخلفى بالعربة الاثنان الآخران . وكان بالعربة البريطانية جنديان آخران لم يظهر أى سلاح معهما . تركنا الجندى البريطانى المترجل واقفين واتجه إلى عربتنا وعند ذلك تكلم كمال رفعت وأشار لنا بالاستعداد للمقاومة

وتفاهمنا على توزيع الأدوار بالاشارات بيننا نحن الثلاثة وأننا سنتعامل مع الجنديين الجالسين فى العربة إذا قام الجندى المترجل بتفتيش العربة وعلى عباس شوقى وضياء حسنين قتله فى الحال إذا حاول ارغامهما على النزول من العربة للتفتيش . نظر الجندى البريطانى داخل العربة فى الكرسى الأمامى وخاطب عباس وضياء ثم قال فجأة وبصوت عال مخاطباً زميليه فى العربة البريطانية O.K (لاتسىء هناك) واستأنفنا الرحلة إلى الاسماعيلية بأعصاب مشدودة من الموقف المفاجىء خصوصاً وأننا كنا نريد أن نضع هذه الوثيقة أمام المفاوض المصرى لأن بها تقديراً للموقف البريطانى يقول « إنه لا فائدة من القاعدة عند قيام حرب وسط شعب فعاد يقاومنا بهذه الضراوة » .

ولم يعد سراً أنه قد جاء بالوثيقة أيضاً أنهم كانوا سيعتمدون على المماطلة فى الجلاء حتى بعد توقيع الاتفاقية على أساس أنهم يتوقعون خلافات بين أعضاء مجلس قيادة الثورة بعد ذهاب محمد نجيب .

وفى نفس اليوم مساء عندما وصلنا إلى مكتب المخابرات بالاسماعيلية ، وكنا نستمع إلى أنباء الثامنة مساء أعلن المذيع عن اتمام التفاهم على جلاء الجيش البريطانى عن مصر نهائياً نتيجة المفاوضات وأن التوقيع الأولى على الاتفاقية قد تم ذلك اليوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ .

مقاومة اتفاقية الجلاء

بعد ابرام اتفاقية الجلاء ظهرت فى مصر بعض العناصر المتبرمة من الاتفاقية والمعارضة خصوصاً من البنود الخاصة بموافقة الجانب المصرى على وجود قاعدة بريطانية بجميع معداتها ومخازنها فى منطقة القنال يديرها عدد محدود من البريطانيين فى ملابسهم المدنية وكذا من البند الخاص بإعادة

النشـاط للقـاعدة فى حالة نشـوب الحرب أو فى حالة اشـتراك تركيا فى حرب . انعكس هذا الـرفض فى منـطقة القنـال واسـتمرت عناصـر الرفض ـ وكان معظمها من الاخوان المسـلمين ـ فى احداث قلاقـل فى منطقة القنـال كما تم نسف بعض الكبارى والطرق . وكان رد الدولة حاسـماً باعتقال الفاعـلين .

مراســل صـحفى فى الســودان

بعـد التوقيع على اتفـاقية الجـلاء فى ١٩٥٤/٧/٢٧ أنتهت أعمـالى فى مكتب مخابـرات الاسماعيلية ، وعـدت للعمـل بالقـاهرة وهناك علمت أن مهمتى القـادمة هى العمل فى السـودان وأننى سـأعمل كمراسـل صـحفى لجريدة الجمهورية ومندوباً لشركة الاعلانـات المصـرية التـابعة لدار الجمهورية .

وقبل توجهى إلى السـودان أمضـيت شـهر ديسـمبر سنة ١٩٥٤ فى التعرف على شخصـيات هامـة ، تعمل فى السـودان ولكنها كانت فى مصـر حينذاك بسبب مأموريات أو إجازات . وكان من أهم هذه الشخصـيات حسـين ذو الفقـار صـبرى عضـو مجلس السـيادة بالسـودان والمرحوم الاسـتاذ عبد العزيز السـيد وكان وقتها يشـغل منصـب المدير المصـرى لجـامعة الخرطوم قبل أن يصـبح وزيراً للتربية والتعـليم وهـو أصـلاً أسـتـاذى فى العـلوم الرياضـية بالكـلية الحربية ، كما تعرفت إلى الأستاذ صـلاح محمد على مدير وكالة الأنباء العـربية بالخـرطـوم وغـيرهم ممن أفـادونى كثيراً فى تسـهيل عملى الصـحفى والسـياسى فى السـودان بعد ذلك .

ومن خلال دراسـاتى ومقـابـلاتى وأحـاديثى التى قمت بها تمكنت من وضـع ملخص للموقف العـام فى السـودان وعلاقاته بمصـر .

وعلى أعتـاب توجهى إلى السـودان كانت عوامـل كثيرة تعمل فى صـالح مسـتقبل العلاقـات مع مصـر .

فالحزب الوطنى الاتحادى (حزب الأزهرى ونور الدين) وهو حزب الأغلبية البرلمانية تنكر لمبدئه وهو الوحدة مع مصر وأصبح ينادى بالانفصال عن مصر أملاً فى الاستقلال كلية . ونظام الحكم المصرى لا يحظى فى السودان برضا أحزاب الأغلبية ولا أحزاب الأقلية . وكذلك الرأى العام يؤيد الاتجاه الانفصالى لتأثره بتصرفات ثورة ٢٣ يوليو مع صديقهم الرئيس محمد نجيب . وبريطانياً تلعب دوراً مستتراً فى محاولة إقناع الرأى العام السودانى بأن أفضل الحلول للسودان هو الحصول على استقلال مرتبط بالتاج البريطانى ، ولو فى شكل بقاء الحاكم العام البريطانى كالنظام الذى كان معمولاً به فى الهند . وكانت بريطانيا على اتصال وتعاون وثيق مع أتباع المهدى زعيم طائفة الأنصار وحزب الأمة .

وعلى ضوء هذا الموقف تحددت تفاصيل مهمتى وعلى رأسها الإجابة عن سؤال هام جداً هل هنالك أمل فى الوحدة ؟ أم انقطع الأمل تماماً ؟ كما كان على أن أدرس جذور الوضع المتردى وموقف التيارات المختلفة ضد الوحدة وأسباب تلك الحقيقة وهى بالتحديد مواقف الأحزاب التى تنادى بالانفصال وتلك التى تنادى بالوحدة ، وكذلك مواقف طوائف أتباع المهدى والختمية أتباع الميرغنى .

ولكى أتمكن من الحصول على الإجابات الصحيحة لمهمتى كان لابد لى من تكوين دائرة واسعة من المعارف يكون لها اتصالات وثيقة وقريبة من معظم التيارات السياسية الموجودة فى السودان . وفى أول يناير سنة ١٩٥٥ سافرت إلى الخرطوم بعد أن سبقنى إلى هناك مساعداى ، صديقى زميل الدراسة محمد وكان أبوه سودانياً ومساعدى الآخر عبد الفتاح فرج وهو مصرى ، وأصلاً من قبيلة الدنكا بجنوب السودان .

وعند وصـولى للخرطوم توجهت لزيـارتهما وكانا قد اقامـا بفندق يملكه رجل سـودانى خفيف الظـل سـبق له العمـل فى البوليس المصـرى وشـهرته (كيشــو) . وكـان الفنـدق ملتقى الشـباب المثقف فى الخرطوم فهو مكانهم المفضـل وخـاصـة اليسـاريين السـودانيين . كما كان المكان المفضـل لإقـامة أعضـاء البرلمـان الجنوبيين .

وتـوطـدت علاقتى بعـدد كبـير من شبـاب السـودان المثقفـين ومعظم السياسـيين الجنـوبـيين والكثير من عناصـر الحزب الوطنى الاتحـادى الذين تمسـكـوا بمبـدأ « الـوحـدة مع مصـر ثم اسـتطعت من خلال المعـارف والأصـدقاء المقربين توسـيع دائرة معارفى أكثر لتشـمل عناصـر الجنـاح الموالى لمصـر (جنـاح نور الـدين) داخـل الحـزب الـوطنى الاتحـادى وتمكنت من التعرف إلى بعض أعضـاء البرلمـان الشـماليين والجنوبيين وكذلك شـملت دائرة معارفى العديد من المصـريين خاصـة المدرسين ، ومهندسى الرى .

وكـانت هذه الـدائـرة الـواسـعة المعـارف مصـدراً هامـاً لمعرفة حقيقـة الأوضـاع بالسـودان وبعد فترة أخرى وجيزة توطدت علاقاتى وصـداقاتى بكثير من العناصـر السـياسـية السـودانية الذين كانت لهم مواقف معادية من الوحدة مع مصـر ، ولذلك فقد كانوا فى كل المناسـبات يعبرون ـ بصـدق ـ عن حبهم لمصـر وللمصـريين . وكنت اعجب لذلك فى بادىء الأمر حتى نبهتنى الواقعة التـالية ، التى عبر فيها الشـعب السـودانى ـ تلقـائياً ـ عن ذلك التنـاقض .

واقعـة سـينما الخـرطوم

حضـرت فى إحـدى الأمسـيات عرضـاً سـينـمائياً بإحـدى دور العرض بالخرطوم وحين عرضـت الجريدة الإخبارية الناطقة فى بداية العرض،ظهرت ملكة بريطانيا فى إحدى الفقرات وفى إحدى المناسـبات البريطانية . وكانت

تمتطى صهوة جواد من خيول الحرس الملكى المطهمة وترتدى ملابس
الملكى الملونه الفخمة فتؤدى التحية العسكرية للحرس المصطف أ
خشوع ونظام . عند ذلك ضجت قاعة السينما المحتشدة ب
السودانى ، وأخذوا يصفقون أثناء هذه اللقطة تصفيقاً شديداً و
استحساناً وتلت هذه الفقرة أخرى ظهر فيها جمال عبد الناصر وه
فى الجماهير المصرية وركزت الجريدة الناطقة الأجنبية عليه وهو
عصبية ظاهرة ويضرب بيده على المنصة بحماس فما كان نفس ا
السودانى إلا أن ضج بالأصوات المعادية والسخرية لمرأى عبد النـ

كان هذا رد فعل تلقائياً لا يعبر عن حب أو سخط الشعب الـ
لبريطانيا أو مصر ، ولكنه انعكاس صادق لمدى ما صنعه الا
البريطانى فى نفسية الشعب السودانى بحيث شوه العلاقة
المصرية السودانية .

الرجوع إلى التاريخ

بعد هذه الواقعة راجعت تصرفات مجموعة الأصدقاء الـ
وبخاصة العناصر السياسية وقد تأكدت أن هناك تناقضاً فى جا
والشعب السودانى . ثمة أحداث تاريخية على مدى الزمن منذ
المصرى فى السودان حفرت بعمق فى هذه العلاقة التاريخية وتركـ
طيبة وأخرى سيئة ، كما أن هناك أسباباً تاريخية مفتعلة تسبب
الأطراف الخارجية وهو الذى طرأ على الوجود المصرى بالسودان
الاحتلال البريطانى لمصر والسودان . لذلك تفرغت كلية لقر
السودان الحديث منذ حملة محمد على باشا على السودان سنة ١٨٢٢
ما آثارنى فى هذا المجال سرعة التحول للرأى العام السودانى

شبه اجماعى للوحدة مع مصر عقب ابرام اتفاقية السودان فى ١٢ / ٢ / ١٩٥٣ ، إلى موقف شبه عدائى لمصر وللوحدة وقبل مضى أقل من سنتين على هذا التأييد .

القوى المؤثرة فى المجتمع السودانى

عبر تاريخ السودان منذ حملة محمد على باشا حتى تاريخنا المعاصر كانت تلك القوى ولا زالت حتى وقت وجودى بالسودان هى :

أولاً : الطوائف الدينية والتى توطد نفوذها من خلال موجة دخول الطرق الصوفية إلى السودان على أجنحة الدعوة الإسلامية .

ثانياً : الوجود المصرى الأخوى فى السودان منذ حملة محمد على .

ثالثاً : التيارات والتنظيمات والأحزاب السياسية التى أخذ دورها فى الوضوح والتكوين لفرض وجودها بجانب الطائفية ذات الجذور العميقة فى المجتمع السودانى .

رابعاً : الاحتلال البريطانى لمصر والسودان .

أولاً : الطوائف الدينية

انتشر الاسلام فى السودان عن طريق الطرق الصوفية . وحتى وقت حملة محمد على ، كانت الطرق الصوفية فى السودان هى البديل للحكومات المركزية . حيث كانت تجمع بين السلطتين الدينية والإدارية .

وقد دخل التصوف إلى السودان على يد الشريف أحمد أبو دنانة ، وبدأ من بربر ثم تعددت بعد ذلك مختلف الطرق الصوفية وكان من أبرزها فى هذا العصر .

الطـريقة الادريسـية

كانت هذه الـطريقـة أكثـر الـطرق الصـوفية تأثيراً فى السـودان والذى أدخلهـا هو السـيد أحمد بن إدريس الفـاسى دون أن ينزل أرض السـودان . وكان من أبرز تلاميذه محمد عثمان الميرغنى سنة ١٩٧٣ / ١٨٥٣ وهو الذى كون الطريقة (الختمية) والتى انتشـرت فى شـمال وشـرق السـودان (الميرغنية) .

وفى أثناء الحرب العـالمية الأولى تطوع على الميرغنى زعيم الختمية بتوقيع وثيقة ولاء لبريطانيا ونشـرت فى عدد خاص من جريدة (السـودان تايمز) (٤ اغسـطس سنة ١٩١٥) ووقعها معه الشـيخ محمد مصـطفى الميرغنى والسـيد الشـريف يوسـف الهنـدى جاء فيهـا « أننـا شـهدنا عيانـاً ما كان يجرى فيما سـلف مدة الأتـراك (يقصـد المصـريين) من الجور والفجور والاسـتبداد فى الأحكـام بدوام الـظلم والتنكيل والتمثيل والقـلاقـل والإهـلاك والإهـانـة وحكمنـا الاتراك (لم يدخل السـودان عسـكرى تركى أطـلاقاً) والدراويش (هذا التعبير ــ الدراويش ــ أشـاعه البريطانيون لأن محمد أحمد السـيد كان يعـارض بشـدة تسـمية انصـاره بالدراويش لأنهم جنود فكر وعقيدة وليسـوا جنـود دروشـة وغيبـوبـة وأحـلام) وغـيرهم فلم نجد عدلاً مثل ولاة أمورنا الانجليز الحاضـرين الوفيين العامـلين » .

هذه الطريقة الختمية بحكم تعاليمها الدينية كانت تقوم على يد مؤسـسـها محمـد عثـمان الـميرغنى بدورها الدينى ، ومع تصـاعد الاتصـال الحضـارى الـسـودانـى المصـرى من انتشـار التعـليم فى السـودان على يد الحكـومـة المصـرسـودانية والثقـافـة بواسـطة المـدارس العسـكـرية المصـرية السـودانية بالسـودان والمتعلمين السـودانيين بالأزهر ، سـايرت الطـائفة الختمية النهضـة الصـاعدة وكان لهـا دور يتمشى مع سـياسـة الحكومة ، وبالتـالى حتمت عليه

الظروف توطيد العلاقة مع مصر فيما قبل الثورة المهدية . وكان لها موقف سلبى من الحركة المهدية فى بدء ظهورها ثم انقلب إلى موقف معادى للمهدية خوفاً على مركزها الشعبى .

وبعد انتصار المهدى فى معركة الجزيرة (اغسطس سنة ١٨٨١) . أيدت المهدى وأخذت موقفاً سياسياً محايداً مع مصر على أساس التمشى مع ما يؤكده المهدى من أن حركته هى ثورة ضد الأتراك وجنود الأتراك الخاضعين للسيطرة البريطانية وبعد وفاة محمد أحمد المهدى تولى وزيره الأول الخليفة عبد الله التعايشى ووقف أخوات المهدى وأسرته وأقاربه ضد التعايشى تطلعاً لوراثة عرش المهدى وطمعاً فى الدنيا انحاز على الميرغنى زعيم الختيمية للتيار المضاد للخليفة وكانت الطائفة الختمية تسيطر على شرق السودان .

وعلى يد السياسة البريطانية انغمست الختمية فى السياسة بعد هزيمة المهدية فى المعارك الفاصلة فى كررى (١٨٩٨) .

وقامت بدور الانتهازية السياسية ، وأيدت المحتل البريطانى ضد الخليفة وضد مصر .

واستمرت الختيمة فى لعب هذا الدور الانتهازى ، فعندما تخلى عنها الاستعمار تماماً ، ووضع كل ثقله على عبد الرحمن المهدى ــ انقلب الميرغنى مرة أخرى لتأييد مصر سنة ١٩٥٣ وبعد عام سنة ١٩٤٨ ظهرت فى أفق القوة السياسية الصاعدة فى السودان ، رغبة الكثير من السودانيين فى الابتعاد عن الارتباط بمصر ، وتشكلت جهة وطنية لذلك ، وسرعان ما ركب موجتها على الميرغنى وساندها . وأخيراً ، عندما شرع محمد نجيب فى حل قضية السودان دعا الزعيميين الطائفيين وزعماء الاحزاب بمصر للحصول على تأييدالجميع لفكرة تقرير المصيروالاستفتاء على الوحدة أو الاستقلال .

حضر الجميع وراوغ على الميرغنى ولم يحضر . ولوح بأنه يبارك اتفاقية السودان (١٢ فبراير سنة ١٩٥٣) ولكنه سرعان ما حركته الأصابع الخفية ، ووقف وزراء حكومة الازهرى الخاضعين للختمية موقفاً معادياً للوحدة بصورة سافرة . ثم تظاهر الأزهرى بعد ذلك بموقف سليم من عملية تقرير المصير . وفى نفس الوقت كان مباركاً لعملية الانفصال !

الطريقة السمانية

أدخلها إلى السودان أحمد الطيب البشير ، وعندما تولاها حفيده محمد شريف الدايم كان أستاذاً للإمام محمد أحمد المهدى الكبير ، وعرفت بعد ذلك باسم الطريقة المهدية .

وبالاضافة إلى هاتين الطريقتين البارزتين ، كانت الطرق المجذوبية ، والقادرية ، والشاذلية ، والاسماعيلية . وجميع هذه الطرق الصوفية هى التى حفظت ونشرت الإسلام فى السودان . ومع زيادة التدخل الاستعمارى فى مصر فى أواخر عصر اسماعيل باشا انعكس ذلك على الوجود المصرى فى السودان .

أخذ محمد احمد المهدى منشىء الطائفة المهدية يواجه هذا الخط بالثورة على القهر والذل وهذا ما اعتبره التدخل الاستعمارى فى مصر فى أواخر عصر اسماعيل وأوائل عصر توفيق تمرداً مما جعل مصر المغلوبة على أمرها ترسل الحملات العسكرية المتتالية للقضاء على هذه الثورة (وكانت هذه الحملات ترسل إلى السودان تحت قيادة الضباط البريطانيين والأجانب . ويصرف عليها من أموال مصر) وكانت الطريقة أو الطائفة المهدية تقوم وحدها بهذا الدور إلى أن تحقق أول انتصار لها على قوات الحكومة فى معركة الجزيرة فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ ، فلفتت الأنظار إليها لأنها حققت كل ذلك تحت راية

الجهاد فآمنت بالثورة المهدية كل الطوائف والملل داخل السودان حتى القبائل الوثنية بالجنوب وتوحد الشعب السودانى تحت راية الجهاد .

وتفجرت أحداث ثورة عرابى فى مصر فتجاوبت الثورة المهدية مع كفاح عرابى ، وخاصة عندما قام شيخ الأزهر الشيخ محمد عليش بإدانة الخديو توفيق بالخيانة . وأصدر فتوى بخلع الخديو وعرف أن المهدى قبل وفاته كان قد أصدر أمره بحملة تتوجه إلى مصر لتحريرها (٢٦ مايو سنة ١٨٨٥) وهو ما فعله خليفته عبد الله التعايشى . وقد وصلت جيوش الخليفة إلى جرجا بمصر كما أن محمد احمد المهدى طلب إلى أعوانه المحاصرين للخرطوم . بأن يأتوا له بالقائد البريطانى جوردون حياً . إذا وقع فى أيديهم أسيراً ليفتدى به البطل المصرى المنفى احمد عرابى » ويستمر الثائر المسلم محمد احمد المهدى فى رفع راية الجهاد حتى وافته المنية بعد اربع سنوات من الكفاح وبعد تحرير الخرطوم بخمسة شهور فقط حقق فيها استقلال السودان لمدة ١٣ سنة تقريباً ، وأثبت عن جدارة أنه قام بثورته لتخليص المستضعفين من القهر والظلم والتخلف .

الخليفة عبد الله التعايشى

وقبل وفاة الثائر محمد أحمد المهدى بمدة قصيرة كان أحس بخطورة أقاربه وإخوانه وطمعهم فى وراثة دعوته وكفاحه لأجل المغانم فقط خصوصاً بعد ما تكشف له تواطؤهم مع حارس بيت المال أحمد سليمان . أعلن تبرأه منهم وبايع وزيره وقائده الأول عبد الله التعايشى . وبعد وفاته سنة ١٨٨٥ تحرك الحقد والغيرة وطمع الدنيا فى نفوس أهل المهدى وعشيرته فانقلبوا ضد الخليفة فى الوقت الذى كانة فيه الثورة فى أوجها . . ودارت معارك ضارية بين الأشراف (عشيرة المهدى وإخوانه) والخليفة التعايشى وبدل أن يركز

الخليفة على الخط الخارجى بذّد جهوداً جبارة فى مقاتلة الأشراف الذين ناصبوه العداء فى مختلف أنحاء السودان وانضمت إليهم بعض الطوائف والقبائل وكانت النتيجة الحتمية هزيمته على يد البريطانيين سنة (١٨٩٨) الذين لعبوا دوراً حاسماً فى بذر بذور الشقاق داخل السودان ووقف الختمية منه أيضاً موقفاً معادياً بتأليب أطماعهم ضده .

هزيمة مشرفة

حاصر الزحف البريطانى جيش الثورة المهدية بأحدث الأسلحة من الشمال والجنوب والشرق وفى مواجهة الأسلحة المتخلفة للثورة المهدية ، وأخيراً سقطت مزكة فى ٧ / ٦ / ١٨٩٦ ، ثم دنقلة وعطبرة فى ٨ أبريل سنة ١٨٩٨ ، وأخيراً كررى وهى المعركة الفاصلة فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وقام أبطال السودان فيها بخوض معركة ضارية وغير متكافئة بصدورهم وأسلحتهم المتخلفة بمشاركة الجماهير ، وصمدوا حتى الرمق الأخير .

عبد الرحمن المهدى وفترة التنكيل

ولد عبد الرحمن المهدى بعد وفاة والده محمد أحمد المهدى باثنين وعشرين يوماً فقط . لم ير والده الثائر ، ولم يتزود بتعاليمه وخلقه وتقشفه . وكانت سنوات طفولته هى سنوات الخلاف الحاد بين أهله والخليفة التعايشى .

امتلأت نفسه مرارة من السلطة الثورية كما عاصر استجداء أفراد أسرته لمرتباتهم المتواضعة من الخليفة وشاهد أهله يدخلون السجون ويوضعون فى القيود ، ثم عاصر حملة الانجليز الرهيبة بالتنكيل بعد هزيمة الخليفة حيث أعدموا على مرأى منه عمه وأخواته الكبار وحرموا عليهم دخول معقل المهدية فى (أبا) وشاهد بعينيه هدم الانجليز لمقبرة والده والتمثيل بجثته

وحرقها بعد فصل رأسه . وولد كل ذلك فى نفسه اليأس من معاندة الانجليز لأنه لا سبيل لمقاومتهم .

كان فى شبابه يقيم فى أم درمان ويتقاضى مرتباً من الحكومة خمسة عشر جنيهاً شهرياً . وتبعاً للمخطط البريطانى بعد تغير الظروف الدولية فى أوائل أيام الحرب العالمية الأولى وكانت بريطانيا قد قضت تماماً على مضمون الثورة المهدية .

كانت الأوضاع البريطانية الدولية والحربية تقضى باستمالة الطوائف السودانية الإسلامية بعد استئنائها ، وتلاقت الأهداف البريطانية مع نفسية عبد الرحمن المهدى اليائسة وذهب عبد الرحمن المهدى للانجليز بعرض خدماته وسمح له الانجليز بالعودة إلى جزيرة (أبا) لضمان ولاء الشيوخ والعشائر ضد الدعاية التركية التى كانت تنادى بالجهاد ضد المستعمرين وبعد نجاح عبد الرحمن المهدى فى مهمته الانجليزية أغدقوا عليه المال المغرى بعد أن أعمل سيفه فيهم بالتنكيل والتشريد والحرمان . وأعطى الانجليز عبد الرحمن المهدى ستمائة فدان ومبلغ ٤٥٠٠ جنيه كقرض ثم اعتبروه هبة فى ١٩٢٦ . وفى سنة ١٩٣٣ كان عبد الرحمن المهدى يمتلك ١٣ ألف فدان وجاء بأتباعه إلى الجزيرة لا ليتلقوا تعاليم الجهاد الإسلامى ولكن ليعملوا بالأجور الزهيدة فى أرضه كعمال حتى بلغ عددهم فى عام ١٩٣٣ حوالى ٤٥٠٠ عامل وتحول ابن الثائر إلى زعيم للثروة بدلاً من الثورة .

المهد ختمية

لم يقف المخطط البريطانى عند حد وخصوصاً فى غيبة من الوجود المصرى المحتل فى بلده . فعندما دخلت تركيا الحرب مع ألمانيا وناشدت تركيا دولة الخلافة بإيعاز من ألمانيا بنشر دعوة الجهاد الإسلامى فى الولايات

التركية اسماً والخاضعة للاستعمار البريطانى هادفة لإحداث القلاقل فى المستعمرات البريطانية ذات الأغلبية المسلمة ومن ضمنها بصفة خاصة السودان . أسرع البريطانيون بمواجهة المخطط الألمانى التركى خوفاً من تدهور الأوضاع فى السودان وبالتالى فى باقى مستعمراتهم الإسلامية واستخدموا نفس الطوائف الدينية فى السودان وعملوا على التقارب بين الطائفتين الكبيرتين فى السودان الختمية والمهدية .

وأعلن البريطانيون عودة السيد على الميرغنى من سواكن . وكوفىء هو الآخر بتخصيص مرتبات له ولعائلته ومنحه الأراضى الزراعية . وعاد ليبرز فضل المساعدات البريطانية وآلت ملكية جريدة « حضارة السودان » الناطقة بلسان السلطة البريطانية فى السودان إلى زعماء الطوائف على الميرغنى وعبد الرحمن المهدى والشريف يوسف الهندى على شكل شركة وجاء فى افتتاحية العدد الأول لهذه الجريدة « اما سياستها الداخلية فستدير رحاها على ركن التوفيق بين الحاكم (البريطانى) والمحكوم « الشعب السودانى » وفى مواجهة تجاوب الشعب السودانى مع ثورة مصر سنة ١٩١٩ أعلنت « صحيفة الحضارة » (يونيو سنة ١٩١٩) « أن وفداً من سراة البلاد سيتوجه إلى انجلترا لتهنئة الملك بانتصار انجلترا فى الحرب » (بعد أن انتهت الحرب بمدة) وفعلاً ذهب الزعماء السودانيون إلى لندن لمواجهة الوفد المصرى والذى يطرح « وحدة وادى النيل » وعبر وفد الولاء لبريطانيا « عن رغبتهم فى انفراد بريطانيا بحكم السودان » وعليه أكدت بريطانيا على استبعاد السودان من القضية المصرية فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

ثانياً : الحركة الوطنية وتخطى الطائفية

كان للوجود المصرى الحديث فى السودان وبنفس القدر الوجود

السـودانى فى مصـر أثر كبير فى نمو الحركة الوطنية الحديثة فى السـودان بما عمله من فكر ووعى ثقافى وطنى وسـياسى . وسـاعدت الأزمات السياسـية التى كان يفتعلها الاسـتعمار فى مصـر المحتلة والسـودان المحتل إلى اشـتعال جذوة الوطنية السـودانية وإلى الخروج من التقوقع داخـل الطرق الصـوفية والطـائفية التى أعلنت الـولاء فجأة للمسـتعمر البريطانى بعد كفاح طويل واسـتقلال دام على يدها لمدة ١٣ عامـاً عندما اندلعت الثورة المصـرية سنة ١٩١٩ وذهب الوفد المصـرى إلى مؤتمر باريس للمطالبة بالاسـتقلال .

تجاوبت الحـركـة الوطنية السـودانية الجديدة مع الثورة المصـرية وقامت المظاهرات الصـاخبة فى السـودان مطالبة بوحدة وادى النيل وكان على رأس المتظاهرين الضـابط السـودانى المتقاعد محمد أمين هديب .

عقب تصـريح بريطانيا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ قامت جمعية « الاتحاد السـودانى » وكان لأحد الضـباط المصريين (محمد فتوح) علاقة بها وهو فى نفس الوقت كان صـديقاً للبطل الضـابط السودانى على عبد اللطيف وكانت هذه الجمعية تجمـع المثقفين السودانيين ونظمت مظاهرة مطالبة أيضاً بوحدة وادى النيل ، وأحيل الضابط عبد اللطيف إلى المعاش . وكون جمعية سـرية جديدة اسـمهـا « اللواء الأبيض » وكـان من ضـمن تنـظيمها عدد كبير من موظفى البريد والتلغراف والتليفونات (حققوا سـرعة الاتصـال ونشـر الدعوة الـوطنية) . وفى مواجهـة التجمع الطائفى الاسـتعمارى عند نشـرهـم وثيقة الـولاء لبريطانيا ، وتـأكيدهـم فى هذه الـوثيقـة على اختيارهم لبريطانيا دون مصـر . وقادت « اللواء الأبيض » المظاهرات ضـد بريطانيا والطائفية المتعاونة معها خصـوصـاً بعد اعتقال السـلطات البريطانية لمندوبى « اللواء الأبيض » بسـبب السـفر إلى مصـر للمطالبة بوحدة وادى النيل .

عمت المظاهرات الخرطوم وأم درمان ووادى مدنى وحلفا والأبيض وبور سودان ومالكال وكسلا وكان المتظاهرون السودانيون يرفعون العلم الأبيض وخريطة النيل واعتقل على عبد اللطيف فى ٤ / ٧ / ١٩٢٤ وحكم عليه بالسجن واندلعت الثورة (سنة ١٩٢٤) فى السودان مؤكدة على المطالبة بوحدة « وادى النيل » ومتخطية عمال الطائفة المتعاونة مع الاستعمار . وخرج طلبة الكلية الحربية السودانية فى مظاهرات وطنية نظامية ويشتعل حماس الجماهير لمنظرهم ٩ / ٨ / ١٩٢٤ .

بعد انسحاب الجيش المصرى من السودان سنة ١٩٢٤ طبقا للإنذار الذى قدمه الانجليز لحكومة مصر على أثر اغتيال السردار ، انفرد الانجليز بالسودان ، وأخذوا يثيرون طائفتى الختمية والمهدية الجديدة (المهدى ختمية) لتوسيع شقة الخلاف بين مصر والسودان . ومع ذلك استمرت القوى الوطنية السياسية فى التجمع والانتشار إلى أن تكون أول تنظيم سياسى وطنى عام ١٩٣٨ .

فى عام ١٩٣٨ تكون المؤتمر القومى العام للخريجين يضم الخريجين السودانيين من مراحل التعليم المختلفة ووجد هذا التنظيم مقاومة من الحكومة
فى سنة ١٩٤٢ طالب مؤتمر الخريجين السلطة الحاكمة بحق تقرير المصير وقوبل بما يشبه الرفض وعلى أثر ذلك انشق مؤتمر الخريجين إلى :

(أ) المعتدلين وأغلبهم من العناصر ذات الولاء للمهدى ختمية وكان على رأسهم ابراهيم أحمد وكانوا على صلة بشكل أوبآخر بالحكومة ويؤيدونها .

(ب) المتشددين : وكانوا من القوى السياسية الوطنية وكانوا يطالبون بالحرية وحق تقرير المصير بزعامة اسماعيل الأزهرى وتجاوب الرأى العام

السـودانى مع الأزهرى فكون حزب الأشـقاء وكان هدفه الاتحاد مع مصـر . وكانت الختمية فى هذا الوقت تأخذ جانب التقارب مع مصـر غيرة من المهدية فكان حزب الأشـقاء تحت رعاية الختمية (على المرغنى) وكانت مصـر تؤيد هذا الحـزب . والجـانب الآخـر من الخريجين انضـم تحت لـواء عبد الرحمن المهـدى . وكونوا حزب الأمة برئاسـة ابنه صـديق المهدى وكان هذا الحزب ينادى باسـتقلال السـودان التـام (السـودان للسودانيين) . .

● سنة ١٩٤٨ قاطع حزب الأشـقاء انتخابات الجمعية التشـريعية التى أقـامها البريطانيون وعارضـتها حكومة مصـر ، ونظم الحزب المظاهرات ضـد الجمعية التشريعية واعتقل زعيم الحزب اسماعيل الأزهرى .

● ثم قامت الختمية بتبنى فكرة تكوين جبهة وطنية ، وكان ذلك نتيجة صراع داخـل حزب الأشـقـاء وكـانت هذه الجبهـة الـوطنية تدعو إلى عدم الارتباط الكامـل بمصـر . وكانت تحت رعاية الميرغنى .

● سـنة ١٩٥١ تكون الحزب الجمهورى الاشـتراكى يعارض الاتحاد مع مصـر .

● بعد ثورة ٢٣ يوليو سـنة ١٩٥٢ قام الرئيس محمد نجيب بالمبادرة لحـل قضـية السـودان وعمل على جمع الشـمل السـودانى واندمج حزب الأشـقاء مع الجبهة الوطنية فى الحزب الوطنى الاتحادى بزعامة الأزهرى .

وقـد خرج الحـزب الوطنى الاتحادى فجأة بإعـلان اسـتقلال السـودان الكامـل ومعارضـاً الوحدة مع مصـر مدعياً الظروف السـابق الإشـارة إليها .

(ثالثاً) تاريخ اللعبة البريطانية فى السـودان

بدأت الأطماع البريطانية فى السـودان عقب احتلالها لمصـر عام ١٨٨٢

وكان للسودان وضع خاص بالنسبة للوجود المصرى بها بموجب « الفرمان السلطانى التركى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بنقل ولاية مصر على السودان » . توالت على السودان أحداث الثورة المهدية حتى استطاع محمد أحمد المهدى أن يحقق انتصارات متتالية وكانت الجيوش المصرية تسيطر على أجزاء كثيرة من السودان . وبخاصة فى الشرق .

وانتهزت بريطانيا الفرصة لابتلاع السودان من يد الامبراطورية العثمانية المنهارة ، ومن الولاية المصرية المحتلة ففرضت على مصر إخلاء السودان . لكن رئيس الوزراء المصرى شريف باشا رفض إخلاء السودان بموجب فرمان ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ لأنه يحظر على مصر التصرف فى الأقاليم السودانية . كان ذلك بموجب مذكرة أرسلها شريف باشا إلى سير أفلين بارنج فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ثم استقال شريف باشا بضغط بريطانيا وتولى نوبار باشا الوزارة فنفذ ما طلبه الانجليز بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤ .

ولأجل الانفراد كاملاً باحتلال السودان فرض على الحكومة المصرية الخاضعة تماماً للإرادة البريطانية توقيع وثيقة استعمارية بين حكومتى بريطانيا ومصر ، ووجدت بريطانيا فى رئيس وزراء مصر الضعيف الشخصية بطرس غالى الرجل المناسب لتسليم مقدرات السودان إلى السلطة البريطانية .

وبعد ستة أشهر من توقيع الاتفاقية الأولى وكانت مادتها الأولى تعترف بحق رفع العلم المصرى فقط على سواكن والتى لم ينسحب منها الجيش المصرى طول فترة الثورة المهدية . أبرم كل من كرومر وبطرس غالى مرة أخرى فى ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ اتفاقاً آخر أنهى شكل الوجود المصرى كلية من سواكن أيضاً . وهذا هو ما يطلق عليه اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ .

اللعبة البريطانية بمياه النيل

- منذ تثبيت اوضاع الاستعمار البريطانى فى السودان وطبقاً لاتفاقيتى سنة ١٨٩٩ المشئومتين ، فقد أكدت هاتان الاتفاقيتان على أن يكون الحاكم العام للسودان بريطانياً . وفى نفس الوقت سردارا للجيش المصرى حتى يضمن الانجليز السيطرة على أوضاع الجيش المصرى أيام محمد على ، وبموجب هاتين الاتفاقيتين تنبه البريطانيون إلى أهمية مياه النيل بالنسبة لمصر بالمقام الأول ثم السودان وإمكان اللعب بها .

وكان المخطط البريطانى والمتحكم فى أمور مصر والسودان يختص مصر بالنصيب الأكبر من مياه النيل وبشكل مبالغ فيه لأسباب فى نفس يعقوب وليس من أجل مصالح مصر . فمصر اعتبرها الانجليز منذ الاحتلال مزرعة القطن التى تشغل مصانع الغزل والنسيج فى بريطانيا . . وكان من مصلحتهم ازدهار الزراعة فى مصر حتى تزدهر صناعة وتجارة المنسوجات فى بريطانيا وفى نفس الوقت لم تكن السودان وقتها فى حاجة إلى كميات كبيرة من المياه لتخلف الأمور الزراعية فيها . كما أن بريطانيا درست نفسية الشعب المصرى الذى تعد الزراعة بعداً أساسياً فى حياته فهى تقدر مدى حرصه على المياه .

فى عام ١٩٢٩ ابرمت اتفاقية مياه النيل مع مصر ونالت مصر نصيب الأسد من مياه النيل على حساب السودان . وهذا التميز ترك أثاراً سيئة على نفسية القوى الوطنية السودانية الحديثة على مر الزمن . فى نفس الوقت عمل البريطانيون منذ وجودهم فى السودان على إقامة مشروع الجزيرة وانشأوا فيها زراعة القطن بغرض منافسة السودان لمصر فى هذه الزراعة وطرح إمكانية حصول السودان على نصيب أكبر من مياه النيل على حساب حصة

مصـر المبـالغ فيها ، لذلك عقب مقتل سردار الجيش المصـرى وحاكم عام السـودان على يد الوطنيين فى القـاهرة .

قدم البريطانيون إنذاراً إلى حكومة سـعد زغلول ، ومن ضمن شـروطهم إعـطاء السـودان كمية مفتوحة من مياه النيـل ، مما أوجد بعض المرارة لدى المصـريين وأعـطت حقـاً مستقبلاً للسـودانيين يصـعب اسـترجـاعـه منهم بواسـطة المصـريين .

هذه اللعنة البريطانية الخبيثه خفيت ابعادها فى وقتها عن عقلية المصـريين والسـودانيين ، ولكن ثمارهـا ظهـرت بعـد اتفـاقية السـودان (٢ فبراير سنة ١٩٥٣) فعندما عقدت مفاوضـات مياه النيل بين مصـر والسـودان بالقـاهرة فى أبريل سنة ١٩٥٥ ظهرت جذور ما حفره الانجليز من تناقض بين المطالب المصـرية والحقوق السـودانية . وفشـلت هذه المفاوضـات بشـكل مأساوى مما كان له أثر بالغ على العـلاقات المصـرية السـودانية بل إنها كانت من الأسـباب الرئيسـية فى اسـتبعاد فكرة الوحدة مع مصـر .

أول عمليـة بالسـودان

كان الاسـتاذ صـلاح محمد على رئيس وكالة الأنباء العربية يعمل مع مدير جريدة (Morning News) وهـى جريدة بالـلغـة الانـجـليزية تصدر فى السـودان ، وكان المدير بريطانياً أقام بالسـودان مدة طويلة جداً . وعلمت من صـلاح محمد على أن لهذا الرجل نشـاطاً اجتماعياً ورياضـياً واسـعاً فهو حريص على سـباق الخيول ويقوم بالتحكيم أثناء السـباق وعند متابعة أخبار ونشـاطات هذا الـرجل سـاورنا : أنا وصـلاح شـك فى أن هذا البريطانى يقود شـبكة الجـاسـوسية البريطانية بالسـودان . وعن طريق صـديق لنا داخل مصـلحة التلفونات السـودانية وضـعت مكالمات هذا المدير تحت المراقبة .

وبعد مدة وجيزة من وضعه تحت المراقبة تأكدنا من أنه على اتصال مريب بجميع المستشارين البريطانيين فى حكومة السودان ، فهو يتلقى منهم أدق المعلومات وهم بدورهم يعملون بتعليماته . كما ثبت اتصاله بمعظم وكلاء الوزارة الدائمين بحكومة السودان ، وظهر أن معظمهم يتعاون تعاوناً كاملاً مع بريطانيا . إلا أن أخطر ما تأكدنا منه هو علاقته المريبة برئيس مكتب الاتصال الحبشى بالسودان (ملس عندوم) وكان يعتبر من أخطر عملاء الولايات المتحدة الأمريكية فى السودان .

وفى نفس الوقت تمكنا بعد مجهود شاق من استمالة سكرتير مدير جريدة (Morning Bews) السودانى للعمل معنا . وقد تمكن هذا السكرتير من الحصول على نسخة من مفتاح خزينة المدير الانجليزى التى يحتفظ فيها بالأوراق السرية فقمنا بتصويرها وإعادتها إلى مكانها ثانية .

وعن طريق هذه المستندات القيمة تأكدنا من أن هذا المدير رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان وبالتالى حصلنا على المعلومات التى أثبتت أن « ملس عندوم » الذى تعلم بمصر فى مدارس أسيوط على علاقة وثيقة بالمخابرات الأمريكية ، وعن طريق التصنت على مكالماته التليفونية تبين لنا أنه على اتصال ببعض العناصر المصرية الأصل والسودانية الجنسية التى يهمها بقاء الاستعمار البريطانى فى السودان لازدهار أعمالهم

وللأسف وعلى الرغم من كشف العلاقة المريبة « لملس عندوم » والتى سجلتها فى المخابرات المصرية إلا أن مصر وافقت فى وقت لاحق أن يكون سفيراً للحبشة بمصر ولفترة طويلة ، وكان عميداً للسلك الدبلوماسى الأجنبى فى مصر ثم أكرمته مصر فصار لاجئاً سياسياً بعد سقوط هيلاسلاسى . كذلك كشفت هذه المستندات السرية عن الخطط والتدابير

البريطانية لعزل السودان كلية عن مصر .

ولشغفى بالرحلات والاستكشافات قمت فيما بين فترات العمل بعدة رحلات استطلاعية إلى غرب السودان حتى الأبيض وإلى شرق السودان فوصلت حتى كسلا وبور سودان . ولحسن الحظ وبطريقة موفقة تكشف لى خلال إحدى هذه الرحلات ، أحد الاسرار الاقتصادية الذى جعل من السودان مركز اهتمام بريطانيا وبالتالى جعل بريطانيا تخشى التقارب المصرى السودانى .

خلال رحلتى للأبيض اصطحبت معى مساعدى فى المكتب عبد الفتاح فرج السودانى الأصل الجنوبى . . وفى أحد أيام الرحلة استيقظت مبكراً وبعد أن تناولنا الإفطار خرجنا معاً فى جولة بالمدينة ، واسترعى انتباهى مبنى على النمط الأوربى الحديث . وفى ملابسهم البيضاء الناصعة أحاطت جموع غفيرة من السودانيين بالمبنى . ولاحظت أحد الأجانب الذين يقيمون معنا بالفندق وهو يقف بجوار المبنى ويتحدث مع فريق من جموع السودانيين .

أثار الموقف فضولى فسألت عن سر المبنى وسبب تجمع الناس من حوله . فعلمت أننا فى موسم لتسويق محصول السودان من الصمغ العربى وأن السودان تستأثر بحوالى ٨٥ ٪ من حصة الانتاج العالمى لهذا المحصول .

أما المبنى الحديث هذا فهو مبنى بورصة الصمغ العربى . . والرجل الأجنبى الواقف فى وسط السودانيين مندوب الحكومة البريطانية ويعمل مستشاراً لشركات تجارة الصمغ العربى . . وقد اعتاد على الحضور كل عام فى هذا الموسم ليشرف على عملية تجارة الصمغ العربى . أما باقى السودانيين ذوى الملابس الوطنية البيضاء فمعظمهم مندوبون للشركات

الأجنبية التى تقوم بشراء الصمغ العربى من السودان .

« والأبيض » تعتبر مركز تجميع هذا المحصول .

ودفعنى الفضول لدخول مبنى البورصة فلم يعترضنى أحد إلا أن الجميع أخذوا ينظرون إلى مستغربين ومستفسرين عمن أكون . وتغاضيت عن هذا ووقفت أراقب ما يحدث ، فبدأت المزيدات لشراء وبيع الصمغ العربى ولاحظت أن ثلاثة فقط من مندوبى الشركات هم أنشط المندوبين حيث تمكنوا من الحصول على معظم المحصول المطروح فى البورصة وبأسعار متفاوته نسبة ضئيلة جداً . وعند الاستفسار علمت أن مندوب شركة جلاتلى و هانكى Glatly and Hanky هو الذى تمكن من الحصول على معظم الكمية المطروحة . وأن هذه الشركة البريطانية يرأس مجلس إدارتها الجاسوس البريطانى الشهير فى البلاد العربية « عبد الله فلبى » وكان يشغل فى الوقت نفسه منصب المستشار السياسى للملك سعود . أما ما تبقى من المحصول فقد حصلت عليه أيضاً شركتان بريطانيتان وهكذا احتكرت بريطانيا الصمغ العربى .

وعند وجودى فى أول إجازة بمصر اتصلت بالدكتور رياض تركى وكان رئيساً لمركز البحوث القومى وبعد سرد القصة كاملة عليه فكر قليلاً ثم أجاب إنه يعلم أن الصمغ العربى له استخدام هام فى تكنولوجيا استخراج البترول . وأشار على بزيارة حقول البترول البريطانية فى البحر الأحمر التابعة لشركة شل (Shell) وأعطانى اسم أحد المهندسين الجيولوجين المصريين العاملين هناك وهو من تلاميذه وعلمت بالفعل أن الصمغ العربى يستخدم فى عملية حفر آبار البترول ، فعندما تدور البريمة بسرعة فائقة خلال عملية الحفر ينتج عن تلك الحركة السريعة حرارة مرتفعة فيبرد بواسطة خليط من

الطفلة والصمغ العربى ويسمى هذا الخليط Draga Gum . وكذلك عندما يتأكد من وجود البترول تصنع ماسورة خاصة من نفس هذا الخليط ليمر من خلالها البترول المتدفق من البئر ، فهذه الماسورة الخاصة هى الوحيدة القادرة على مقاومة تيار البترول المتدفق واحتكاكاته كما تحمى البريمة أثناء عملية الحفر من التآكل والكسر .

وعند عودتى إلى القاهرة واطلاعى على إحصائيات التجارة الدولية تبين لى أن بريطانيا كانت وقتها هى المحتكر الوحيد لتجارة هذه المادة وأنها تعيد بعد ذلك توزيعه وبيعه إلى جميع الدول المنتجة للبترول . وبناء على ذلك رفعت تقريراً يتضمن قصة الصمغ الغربى كاملة مع التوصية بأن تحاول مصر فى السنة التالية وفى موسم المحصول أن تقوم بشراء الصمغ العربى عن طريق بنك مصر فرع السودان وهو فرع كان يرأسه الاستاذ عمارة .

وبالفعل فى السنة التالية . وكنت قد تركت العمل بالسودان ، علمت أن بنك مصر هناك قد تمكن من دخول المزاد . ونتيجة للمنافسة تسبب فى رفع السعر لصالح المنتج السودانى وحصلت مصر على حصة مجزية من النصيب الذى احتكرته بريطانيا طويلاً

من المطبخ السياسى إلى جزيرة آبا

خلال عملى فى السودان تناقلت أوساط شباب السودان أخبار صالون تتجمع فيه الشخصيات السياسية ورجال الأعمال السودانيين وبعض المستوطنين الأجانب وأعضاء البرلمان وبعض الدبلوماسيين الأجانب . وعلمت من هؤلاء الشباب أن ضيوف الصالون تقدم لهم الخمور وعندما تلعب الخمر برؤوسهم تنطلق ألسنتهم بأسرار الدولة السياسية والاجتماعية فتلقفها الآذان المتنبهة . وفى أمسيات هذا الصالون كان يتم طبخ سياسة

السـودان العـليا كما كان يحدث فى مصـر فى « كلوب » محمد على قبل الثورة .

وفى فيلا كبيرة تملكها أرملة أحد أثرياء الأجانب من الايطاليين الذين جمعوا أثناء عملهم بالسـودان ثروات طائلة . كانت تقام أمسـيات الصـالون . وكان لهذه الأرملة ابنة على جانب كبير من الجمال ، ولها نشـاط اجتماعى واسـع فى السـودان وكانت مخطوبة لأحد الشبان اللبنانيين الذى يعمل فى شـركة أجنبية كبيرة فى السـودان وكان صـديقاً لمحمود سـليم . وأوعزت لزميلى المصـرى أن يدخـل فيلا المطبخ السـياسى بصحبة صـديقه اللبنانى . تم ذلك بأسلوب طبيعى جداً .

وكان محمود سـليم وسـيماً وعلى درجة من الثقافة فأمكن بسهولة اكتسـاب ثقة أعضـاء هذا النـادى السـياسى الاجتماعى ، وأصـبح من أكثر أعضاء هذا المنتدى الاجتماعى محبة . وسـاعدتنى المعلومات التى كنت أحصـل عليهـا منه عما يدور من أحاديث وأسـرار فى هذا المطبخ السـياسى الفريد فى نوعه على الـوقـوف على حقيقـة أى حدث سـياسى أو اقتصـادى رسـمى لا تعلن عنه الصـحف . وكانت هذه المعلومات مادة صـحفية فى منتهى الكفـاءة . وكنت أرسلها إلى جريدة الجمهورية . أما المعلومات ذات الصـبغة السـرية فكنت أرسـلها أولاً بأول كتقـارير إلى رئاسـتى .

وثـائق اتفاقيـة ميـاه النيـل

عن طريق أحـد اعـضـاء هيئـة التـدريس المصـريين فى السـودان ، الاسـتاذ « نصر الدين السيد » والذى له صـلات اجتماعية ممتازة بكبار الموظفين فى الدوائر السـودانية المهمة تعرفت على شـخصية سـودانية بارزة ذات وعى كامل بألاعيب السـياسة الاسـتعمارية البريطانية فى السـودان .

وعندما شعر هذا الصديق السوداني بالدور الذى يقوم به المستشار البريطانى « كارل مايكل » ــ وخاصة أثناء مفاوضات اتفاقية مياه النيل والتى كانت تتم بالقاهرة بين وفد حكومة السودان برئاسة خضر حمد وزير الرى السودانى وعضوية مأمون بحيرى وبين الوفد المصرى برئاسة زكريا محيى الدين ــ أمكن هذا الصديق السودانى الوطنى أن يقدمنى إلى صديق له ، يعمل فى أرشيف وزارة الرى السوادنية ، وكان هو الآخر على درجة عالية من الوعى السياسى .

كان المستشار كارل مايكل يرسل إلى القاهرة يومياً ، ودورياً ، تقارير إلى وكيل الوزراة مأمون بحيرى . والذى كان يرافق وفد المفاوضات السودانى فى القاهرة ، وكان بتلك التقارير توجيهات واحصائيات كلها تدعو إلى التشدد فى موقف السودان من حصة مياه النيل ومصاغة بدهاء اشتهر به البريطانيون .

كانت كل هذه التقارير ذات السرية العالية تصلنى فى وقت مناسب جداً وكان يتم تصويرها وإعادة المستندات الأصلية . وبالاتفاق مع رجال شركة مصر للطيران كانت صور هذه الوثائق الهامة ترسل أولاً بأول لتكون فى متناول يد المفاوض المصرى قبل اجتماعات التفاوض ، مما كان له أثر كبير فى كشف المخطط البريطانى ، الذى كان يمثله المستشار البريطانى موريس ، المرافق لوفد السودان لمفاوضات مياه النيل بالقاهرة ، والذى تسبب فى إفشال هذه المفاوضات التى أجريت فى أبريل ١٩٥٥ . وتوقفت فى الشهر نفسه (نجحت تلك المفاوضات عام ١٩٥٥ عندما أبتعد الانجليز عن الوظائف) .

حادث اختناق العمال الفلاته

وفى مساء أحد الأيام أبلغنى الصديق المصرى صلاح محمد على مدير

وكـالـة الأنبـاء العربية بالسـودان وكان مكتبه بجوار مكتبى الذى اسـتأجرته بالخرطوم . أبلغنى أن برقية وصـلته حالاً تحمل نبأ سيئاً . فقد اختنق أكثر من مائـة عامل من الفلاته فى بلدة « كوستى » فى مديرية « النيـل الأزرق وعلى النيـل الأبيض » وهم عمال أفـارقـة يفـدون فى مواسم خاصـة إلى السـودان أو يمثلون القوة العـاملة الموسـمية وكانت تفرض عليهم الشـركات الزراعية السـودانية البريطانية أجوراً زهيدة يرضـون بها تحت وطأة ظروفهم السـيئة . وعنـدمـا طالب هؤلاء العـمال برفـع أجورهم رفضـت هيئة مشـروع الجزيرة طلبهم واسـتعـدت عليهم السـلطات السـودانية والبوليس ، فاعتقلوا لعدم امكـان التفـاهم معهم ، ووضـعهم البوليس مكدسـين فى عنبر واحد وكان عددهم حوالى ١٣٥ عامـلاً . وبعـد مدة من الحجـز فى هذا العنـبر العتيق المساحة ، ماتوا جميعاً مختنقين من شـدة الحرارة .

وأفادنى صـلاح محمد على أن هذا الحادث اهتمت به صـحافة ووكالات الأنباء العـالمية وكلفوا مندوبيهم بالتوجه إلى « كوستى » مكان الحادث لتغطية أنبائه . فاتخذت المبـادأة وأسرعت فى تجهيز نفسى وسافرت إلى هناك فى نفس الليلة . . وبصـحبتى زميل صحفى سـودانى هو الاسـتـاذ سـعـد الشيخ ومسـاعدى عبد الفتاح فرج ، ووصـلنا إلى هناك بعد منتصف الليل وعلى الفور توجهنا إلى مكان الحـادث واجتمعنا فور وصـولنا مع قائد البوليس السـودانى وجمع من أهالى (كوستى) وكانوا مجتمعين فى شـبه ثورة ضـد حكومتهم وجاء على لسـان أحدهـم « الله يرحم أيام الاسـتعـمار البريطانى » وتبادلت الحديث معهم ، وأقنعتهم بعد مناقشـة هادئة مستنكراً فضل الاسـتعـمار ، وأفهمتهم أن اسـتعداء السـلطة على هؤلاء المظلومين هو من فعل موظفين سـودانيين ولكنهم فى الحقيقة لحسـاب شـركة لازالت أصـبع بريطانيا تعمل فيها .

وفى الصـباح البـاكر خرجت من المنزل الذى اسـضافونى للإقامة به إلى

منطقة العنبر المشئوم ، وهناك أخذت أقيس العنبر الذى حجز فيه ١٣٥ بائسا اختنقوا عن آخرهم بالخطوة طولاً وعرضاً حتى يمكن أن أقف على الحجم الكلى له . وأخبرنى الأهالى أن العمال لم يقوموا بأى عمل من أعمال العنف ، ولكنهم توقفوا فقط عن العمل وتجمعوا فى أماكن إقامتهم المتواضعة حول الأكواخ فحضر رجال البوليس وأخذوا فى جرهم بقسوة . وربطهم بعضهم ببعض بالحبال وهم يصرخون من شدة الألم وعنف المعاملة ثم ساقوهم إلى هذا العنبر وأغلقوا عليهم الأبواب باحكام . وبعد نصف ساعة بالضبط أخذ المحجوزون داخل العنبر يستغيثون ولا من مجيب ثم بعد مدة أخرى علا صوتهم وأخذوا يدقون بشدة على الأبواب واعتقد حراس العنبر القلائل أن المحتجزين فى حالة ثورة فلم يبلغوا رؤساءهم . ورويداً أخذت أصوات الاستغاثة والاحتجاج تخفت إلى أن خمدت مرة واحدة ثم ساد صمت الموتى . وعندما علم الرؤساء بهذا الحادث المفجع أرادو التستر على الجريمة البشعة فقاموا أثناء الليل وقبل بزوغ النهار بنقل جثث الموتى إلى مقبرة كبيرة جداً بالقرب من العنبر وأهالوا عليها التراب . وقادنى الأهالى إلى مكان المقبرة . . . وتسمرت مكانى فقد هالنى ما رأيت فلم يسعف الوقت والامكانيات البوليس لتغطية الجثث بالتراب . . فكانت بعض الأذرع المتدلية والأرجل المستسلمة والعيون الجاحظة تطل من بين الأتربة تصرخ فى صمت بليغ ضد عنف الإنسان وعدم آدميته . وأبرقت من الخرطوم بتفاصيل الحادث المؤلم ، وأرسلت الصور إلى جريدتى وإلى إذاعة ركن السودان وهما المصدران اللذان انفردا بتفاصيل هذا الحادث المروع .

رحلة وحوار فى جزيرة ابا

استمرت جزيرة آبا مهد الحركة المهدية تلعب دورها فى تعميق جذور تعاليم المهدى الدينية . وأصبحت هذه الجزيرة أيضاً معقل الحركة المهدية

الاستعمارية الحديثة والتى ظهرت بشكل مخالف تماماً للحركة المهدية الأصلية حيث اشتهر الزعيم السيد عبد الرحمن المهدى قائد الأنصار وراعى حزب الأمة بمعاداته لمصر وتبنى الدعوة الانفصالية عن مصر . يعكس أفكار المهدى الكبير ، وقمت برحلة إلى الجزيرة يرافقنى الأستاذ سعد الشيخ وهو صاحب شركة اعلانات سودانية كانت مندمجة مع شركتنا المصرية ، وكان شاباً واسع الاطلاع بشئون وتاريخ بلده السودان . وأثناء الطريق روى قصة السيد عبد الرحمن المهدى ، وكيف كان يتقن القيام بدوره المزدوج وهو تعميق وتثبيت زعامته الدينية ليغرر بأتباعه لمسايرة السياسة البريطانية الاستعمارية . فبعد أن شبَّ السيد عبد الرحمن المهدى أعادته بريطانيا للحياة فى جزيرة آبا بين أتباعه وأنصاره الذين كانوا يتوافدون من جميع أنحاء السودان للتفرغ للعلم والعبادة حسب تعاليم المهدى الكبير داخل أروقة القصر المعد لهذا الغرض . وكان عبد الرحمن المهدى يتعمد الاختفاء قبل موعد الغروب ويتسلل خارجاً إلى البرارى والحقول ، يتجول فيها . وعندما يخيم الظلام كان يتعمد أن ينبر مصباح يد (بطارية يد) كهربائى من تحت عباءته فيبدو فى الليل ومن بُعد كأنه شبح منير . ويرى أتباعه المنتشرون فى أرجاء الجزيرة هذه الظاهرة الغريبة ويعتقدون أنها تدل على الخير والبركة والتقوى وأن روح سيدهم عبد الرحمن المهدى الطاهرة تتجول فى الليل ، ويصبح الأتباع بأعلى أصواتهم منادين : (سيدى بينور سيدى بينور) ولا يجرؤون على الاقتراب منه فترتفع مكانته عندهم ، وأصبح ايمانهم به واتباعهم له لا يربو إليه الشك .

وعند وصولنا إلى مقر المهدى بالجزيرة علمنا بالصدفة أن ابن السيد عبد الرحمن المهدى « الأستاذ الصادق المهدى قد حضر . وانتهزت هذه الفرصة وطلبت مقابلته ورحب هو بهذا اللقاء . وكنت علمت من زميلى

الاستاذ سعد الشيخ أنه خريج جامعات بريطانيا ووجدته شاباً لبقاً عالى الثقافة يتقن الحوار فى لغة عربية محببة باللكنة السودانية ذات النطق العربى السليم قدم إلينا الشاى على الطريقة البريطانية . ويدأ الحوار فسألته : « عن موقف حزب الأمة قبل بداية مفاوضات مصر مع بريطانيا على المسألة السودانية ، وتأييده لهذه الاتفاقية فى اجتماعهم بمحمد نجيب ثم تحولهم وتنكرهم للاتفاقية إلى المطالبة بالانفصال وأن يصبحوا أعضاء فى الكومنولث البريطانى علماً بأن تحرير وادى النيل شماله وجنوبه كوحدة واحدة كان هدف المهدى الكبير » . فقال : « إن مصر منذ احتلالها من وقت عرابى وجميع ساستها رغم وعيهم التام بأنهم غير مستقلين كانوا يعتبرون ويعاملون السودان على أنه مستعمرة مصرية ويتمسكون بحق الفتح وثابت ذلك من جميع محاضر جلسات المفاوضات المتعاقبة بين المصريين والبريطانيين فكان المصريون يؤكدون دائماً على حق مصر فى السودان (حق الفتح) وضرورة تبعيتها لمصر بشكل أو بآخر ولم يضع زعماؤكم وساستكم أى اعتبار أو وزن لرأى السودان والسودانيين أنفسهم . وحتى أيام الاحتلال البريطانى لمصر والسودان كان الاستعمار البريطانى يدعى أن وجوده فى السودان للمحافظة على حقوق مصر فى السودان وكنتم تصدقونه ، وهذا الخضوع الذى يعبر عنه الاستعمار البريطانى كنا فى السودان نعرف جيداً أنه خضوع شكلى . لكنكم كنتم فى مصر كالنعام تخبئون رؤوسكم أمام عدوكم معتقدين خطأ أنكم مادمتم لا ترون عدوكم فهو لا يراكم .

كنتم فى مصر تصدقون بريطانيا فيما تدعيه لحمايتكم حتى من مطالبة السودانيين بحقهم فى بلادهم ، وتتناسون أن فى السودان شعباً وساسة وقادة وزعماء وطنيين ينتمون إلى هذه الأرض . » وقال أيضاً : « إن الوجود البريطانى فى السودان حقيقة والوجود المصرى فى السودان منذ الاحتلال

البريطاني لمصر رمز وشكل دون المضمون . المفروض علينا نحن السودانيين أن نتعامل مع الحقيقة لا مع الشكل

عند هذا الحد من حديثه بدأ الانفعال يفرض نفسه على نبرات صوته ويبدو أن سؤالي في هذا الوقت بالذات أصاب منه موجعاً رغم أن رده كان به شيء من الواقع والحقيقة المرة فقررت أن أستمر في محاورته . فأعدت إلى ذاكرته أن مصر عندما أرادت التفاوض مع بريطانيا على الجلاء عن مصر بدأت أولاً بالمطالبة بالجلاء عن السودان ، وبادرت مصر بجمع شمل الأنصار (طائفتكم) وطائفة الختمية ومختلف الأحزاب في القاهرة وبذلت مصر خالص جهدها لتوحيد كلمتكم واعترفت بكيانكم وبإرادة الشعب السوداني ، وبحقكم الكامل في تقرير المصير لتختاروا الوضع الذي يحقق مصلحتكم . لكن للأسف كان لحزبكم (حزب الأمة) موقف أثر على مجريات الأمور بشكل عكسي مخالفاً بذلك لمبادىء وأهداف الحركة المهدية الأصلية على يد المهدي الكبير .

معظم النيران من مستصغر الشرر

كنت قد تقدمت منذ وصولي إلى السودان بأوراق رسمية لتسجيل مكتب الجمهورية للإعلانات والصحافة بمستندات سليمة عن طريق مكتب أحد كبار المحامين السودانيين (محمد أحمد محجوب أحد اقطاب حزب الأمة والذي أصبح وزيراً فيما بعد) . وقدمت مع صور هذه المستندات طلباً إلى وزارة الداخلية السودانية والجوازات والجنسية لأحصل على تصريح إقامة للعمل . وكنت أتردد على مكتب الوكيل الدائم لوزراة الداخلية السودانية « محمد عثمان يسن » للسؤال عن طلب الإقامة . وفجأة وبعد مرور أكثر من ستة شهور على وصولي للسودان استدعاني محمد عثمان

يسن وكيل الداخلية الدائم بمكتبه . وأخذ يسألنى عن حقيقة اسمى وعملى السابق قبل العمل الصحفى وأجبته بأننى كنت ضابطاً بالجيش المصرى برتبة اليوزباشى وقد استبعدت من العمل بالجيش بعد عملية التطهير بعد الثورة . ولكنى تمكنت من الحصول على عمل فى دار الجمهورية فى شركة الاعلانات الشرقية . وأخرج قصاصة ورق من درج مكتبه قرأ فيها اسم يوزباشى محمد عبد الفتاح أبو الفضل . ورقم التليفون وعنوان المنزل (ادعائى بأننى من الضباط المصريين فى التطهير كان تغطية فقط بطبيعة الحال) .

وبثبات كررت عليه ما قلت له ، وافهمته أنه ليس هناك ما يمنع ضابط الجيش بعد استقالته أو استبعاده من العمل العسكرى أن يمارس عملاً مدنياً وليس فى هذا ما يثير الشبهات وقد تركته وأنا شبه متأكد أن هناك وشاية أو تبليغ من أحد . وأنه أخذ يشك كباقى السودانيين أننى موفد من السلطات المصرية فى مأمورية خاصة . ولكنى قبل مغادرتى مكتبه قلت : إن السلطات المصرية إذا كانت هى التى رتبت وضعى بهذه الصورة لم يكن من الصعب عليها أن تزيف اسمى حتى تكتمل الصورة والغطاء .

وقال لى الزميل صلاح محمد على رئيس وكالة الأنباء العربية بالخرطوم انه فى لقاء خاص بينه وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية علم منه أن هناك أحد المدرسين المصريين المعينين بعقد مع حكومة السودان ، يتعاون مع الأمن السودانى وأنه هو الذى ابلغهم ذلك بعد أن رجع إلى دفتر التليفون المصرى ووجد به اسمى بالكامل وعنوان منزلى بالقاهرة وأمام الاسم رتبة اليوزباشى .

وتولانى غضب من هذا الشخص الذى وصل إلى هذه الدرجة من الخسة واردت أن ألقنه درساً بصورة أو بأخرى وكان يملك عربة فاخرة كثيراً

ما يتركها أمام منزله أثناء الليل فى حى الموجرن الهادىء فى السودان وتمكنت من وضع عدة اقراص من السكر فى تنك بنزين العربة . وعندما قام بتشغيل عربته بعد ذلك احترق الموتور وكبده ذلك مبالغ طائلة لاصلاحها .

وكان فى هذا التصرف شىء من الصبيانية . ولكنى كنت شاباً وفى بدء حياتى العملية ولكنى استدعيته بعد ذلك بمدة ، وحذرته من مثل هذه الأعمال الخطرة ، وأكدت له أننى الذى قمت بتخريب سيارته انتقاماً مما قام به من أعمال تصل إلى مستوى الخيانة .

الاحتكاك بالوكيل الدائم

بعد واقعة استدعائى فى الأمن السودانى ومواجهتى لشكوكهم ، دعيت إلى حفل عشاء فى منزل الصحفى صالح عرابى رئيس تحرير جريدة الصراحة السودانية وكانت تؤيد سياسة مصر إلى حد كبير . وبعد أن بدأ المدعوون فى تناول الأطعمة من البوفية وأثناء انتقائى لبعض الأطعمة وكنت بالمصادفة وقتها بجوار وكيل الداخلية الدائم محمد عثمان ياسين ، وكان يتبادل الحديث بالانجليزية مع رئيس تحرير جريدة المورننج نيوز Morning News . وهو فى نفس الوقت رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية فى السودان الذى أشرت إليه قبلاً وجه محمد عثمان يسن الكلام لى وهو فى حالة سكر : « كيف حال ولد البق » , وهذه إهانه بالغة درج عليها أهل السودان عندما يريدون توجيه إهانة إلى أى مصرى على أساس أن حشرة البق موجودة فى بعض البيوت المصرية الفقيرة وحاولت السيطرة على أعصابى وقلت له : إننى افتخر بأننى مصرى صميم لأنك وصفتنى بصفة مصرية صميمة لا نخجل منها ولكنك لا أكثر ولا أقل من خائن سودانى وولاؤك فى المقام الأول لهذا البريطانى ولبريطانيا . وكنت متأكداً أن رئيس تحرير المورننج نيوز ،

يتقن اللغة العربية وواصلت توجيه اللوم الشديد له وبصوت مرتفع وتجمع حولنا كثير من المدعوين من السودانيين والأجانب . وحضر الداعى صالح عرابى وأخذ يعتذر لى هو وجمع كبير من نواب البرلمان الأصدقاء . ورفعت الحرج عن موقف الداعى الأستاذ صالح عرابى وقلت له إننى فى منزلى وقد قمت بالتصرف نيابة عنه وفى اليوم التالى حضر لى فى المنزل الاستاذ صالح عرابى ومعه جمع كبير من الصحفيين السودانيين وكثير من أعضاء البرلمان . وكان الاجتماع مثمراً . قام الصديق العزيز محمد عبد الجواد نيابة عنهم بالكلام وقال : إنهم حضروا ليس للاعتذار ولكن بدافع حبهم وتقديرهم لمصر والمصريين وامتداداً لدور الوطنيين السودانيين الذين يؤمنون بضرورة الوحدة مع مصر . وإنهم على يقين من قدرتى على توصيل ما سيعبرون عنه إلى المسئولين فى مصر . وقال محمد عبد الجواد « إن السودان منذ احتلال البريطانيين لمصر وللسودان بعد إخماد ثورة عرابى اندلعت فيه ثورة محمد أحمد المهدى تحت علم الدعوة الدينية الصادقة بمعاداة المحتل الأجنبى .

وكان المهدى الكبير فى ثورته ضد الانجليز يقوم بمحاربة الإنجليز والاتراك ولم يقصد المصريين اطلاقاً لأنه فى نفس الوقت كان يعتبر ثورته امتداداً لثورة المصريين بقيادة أحمد عرابى . ورغم أن الثورة السودانية تمكنت من تحقيق الاستقلال لمدة حوالى ١٣ سنة . فقد قامت الجاسوسية البريطانية داخل صفوف الثورة المهدية بالفتن بعد أن تجاوبت معها الكثير من الدول العربية والاسلامية وتمكنت بريطانيا بعد ذلك بالاستعانة بالجيش المصرى المغلوب على أمره وبقيادة الضباط البريطانيين من إخماد ثورة المهدى ونجحت بريطانيا فى غرس بذور الخلاف بين السودانى والمصرى . ثم استدارت على المهدية نفسها وخلقت زعامة خائنة لتعاليم المهدى من أبنائه هو عبد الرحمن

المهدى . كما استعانت بالطائفة الميرغنية والشريف المهدى فى توطيد دعائم حكم بريطانيا ونفس الشىء تكرر بعد توقيع اتفاقية السودان ، وفى غفلة من المسئولين المصريين الذين لم يفطنوا لملابسات الألاعيب البريطانية فى تعاملهم مع الثورة المهدية . فقد قامت بريطانيا . وفى غفلة من المصريين باللعب داخل صفوف الاتحاديين بزعامة الأزهرى الذى كنتم تعتمدون عليه وفى زيارته لبريطانيا قبل تقرير المصير تم طبخ الدور بالكامل وعاد وهو ينادى بالاستقلال متخلياً عن المتفق عليه مع المصريين من تحقيق الوحدة . وبأموال أمريكا ، وبتغلغل النفوذ البريطانى فى السودان وسيطرتهم على الوزرات السودانية عن طريق وكلاء الوزارة السوادنيين الدائمين وكلهم عملاء لبريطانيا فشلت الوحدة . . . وبشكل مؤكد ولا أمل لمصر فى تغيير الوضع داخل السودان وكل مانرجوه منكم هو تحسين وتقوية العلاقات بين شعب مصر والسودان والذى عن طريقها يمكن تحقيق ما هو أقوى وأثبت من الوحدة .

الواقع أننى لم أجد ما أرد به على كلام هذا الصديق المدعم بالأسانيد التاريخية وكان هذا الحديث مجال تقرير لى شامل عن موضوع الوحدة أو الاستقلال . واعتقد أنه كان من ضمن الأوراق التى استندت إليها مصر فى مباركة رغبة السودان فى الاستقلال .

الصراع فى منطقة الشرق الأوسط

منذ وصولى إلى الخرطوم فى أول يناير سنة ١٩٥٥ وما قبلها بعد إبرام اتفاقية السودان والتطورات التى حدثت فى الرأى العام السودانى منذ إبرام الاتفاقية فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ . ومنذ ابرام اتفاقية الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ اتسم الموقف الداخلى فى مصر بالهدوء . كانت مصر مصممة على

التفرغ لمعركة التنمية وذلك بالبدء فى تنفيذ مشروع السد العالى . ومنذ عام ١٩٥٣ حاول دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة ثم إيدن فى فبراير سنة ١٩٥٤ إقناع مصر بضرورة وأهمية قيام حلف عسكرى دفاعى لمنطقة الشرق الأوسط (امتداداً لمشروع صدقى بيفن الذى سبق ورفضته مصر قبل الثورة) لسد الفراغ بعد جلاء القوات البريطانية عن مصر على أن يقوم العرب بمساندة هذا الحلف .

رفضت مصر وعارضت هذا الحلف لمشيرة وبكل وسيلة وبخاصة فى وسائل إعلامها وبشكل مركز فى إذاعة صوت العرب المسموعة فى العالم العربى كله يالإضافة إلى الإذاعات الموجهة لدول العالم الثالث وهى مناطق نفوذ الاستعمار القديم والكتلة الغربية . وفوجئت مصر بالدول الغربية العظمى تحاول استئناس مصر وتطويعها لتفرض عليها التبعية وكلما كانت تعارض مصر فى قبول ما رسمه لها الاستعمار القديم كالدخول فى أحلاف عسكرية تحتويها ، كانت الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة وطلبت مصر السلاح من الغرب لمواجهة الاعتداءات الاسرائيلية ، وأمعن الغرب فى الرفض وطلبت مصر المعونات الاقصادية ، وأصر الغرب على فرض الشروط المجحفة . وحاولت مصر طلب المعونات الاقتصادية والعسكرية من روسيا فلقيت من الغرب التهديد والوعيد . ودخلت مصر فى دوامة .

بعد أكتوبر سنة ١٩٥٤ استخدمت كل من بريطانيا وأمريكا شتى أساليب الضغوط على مصر لتعيد إلى منطقة الشرق الأوسط استكانتها السابقة للاستعمار الغربى خصوصاً مع ظهور النفوذ الروسى المتطلع للانتشار وكسر حصار التحالفات الغربية من حوله خاصة فى المناطق حديثة الاستقلال ذات التيارات الوطنية .

كانت المهمة هينة وبسيطة بالنسبة لانجلترا وأمريكا فى أغلب دول الشرق الأوسط ، ولكنها كانت صعبة ومستعصية فى تعاملهامع مصر .

تحسن الموقف فى السودان

كل هذه المواقف الصعبة التى واجهت بها مصر الضغوط المختلفة من الدول العظمى وبخاصة من الكتلة الغربية والولايات المتحدة جعلت الرأى العام العربى يتجاوب مع مواقف مصر المتطلعة لتحرير إرادتها من دوائر التبعية . وحيث أن السودان علاوة على انتمائه للوطن العربى ، فإنه رغم ما شاب علاقاته بمصر من تدهور فى فترة تقرير مصيره والتى عاصرت فترة منها ، فقد تغير الموقف كلية هناك فى أخر عام ١٩٥٥ ومطلع عام ١٩٥٦ سواء على المستوى الرسمى أو الشعبى . وعادت الثقة المتبادلة بين القطرين الشقيقين .

اجازة بلا عودة

فى الأيام الأخيرة من يونيو سنة ١٩٥٦ حضرت إلى القاهرة فى أجازة وقبل أن أغادر الخرطوم حصلت على فيزة (تصريح) العودة . (Re Estery Visa) بعد الخلاف المستمر بينى وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية الدائم محمد عثمان يسن تلافياً لاعتراض المسئولين فى قنصلية السودان بالقاهرة على إعطائى تأشيرة الدخول . ومع ذلك فقد كانت آخر إقامة لى بالسودان . وفى مساء ٢٦ يوليو وكنت فى غرفتى قرب ميدان السيدة زينب استمع من خلال راديو السيارة إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى احتفالات ٢٦ يوليو بالاسكندرية ، وأثناء الخطاب أخذ يشرح ملابسات فى تمويل السد والظروف والمراحل التى مرت بهذا التمويل ، وأعلن فى نهاية هذا الاستطراد قرارَ تأميم شركة القنال .

وفى يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٦ صدرت لى الاوامر بعدم العودة إلى السودان كى أقوم بمهمة فى مصر بعد تتابع الأحداث نتيجة تأميم قنال السويس . كلفت بإعادة تنظيم المقاومة السرية بمنطقة القنال لأن الموقف الدولى الغربى بدأ يشن حملة مسعورة ضد مصر .

وفى الأيام التالية شكلت بريطانيا وفرنسا وباقى دول الكتلة الغربية هيئة دولية مستقرة اسمتها « هيئة المنتفعين » وعن طريق هذه الهيئة مارس الغرب علينا ضغوطاً مختلفة جعلت القيادة فى مصر تعد العدة لأسوأ الاحتمالات .

المقاومة السرية ضد الاحتلال

فى النصف الثانى من يوليو سنة ١٩٥٦ ، تم انتقاء نخبة من الزملاء من ضباط الجيش والبوليس والمدنيين وتحدد لكل منهم منطقة لنشاطه للتحضير لعمل المقاومة السرية . كان فى منطقة أبو سلطان الزميل سعد ناظر محطة أبو سلطان والذى سبق عمله معى أثناء مقاومة البريطانيين فى القنال فى الأعوام السابقة لإقامة الجلاء ، وكانت له مدة خدمة طويلة بالمنطقة وله معارف فى كل مكان . وفى كل القرى المحيطة كلفته ومعه المواطن المكافح غريب تومى (غريب خضيرى) بإعادة الاتصال بالمندوبين السابقين بالمناطق الأخرى والمنتجة لقيادات المقاومة لإيوائهم . وتحضير غطاء مناسب لكل منهم . ثم تم تزويد كل منهم بموتوسيكل أوفيسبا . وتمت عملية تجهيز أماكن رئاسات المقاومة الفرعية والتجهيز ، وذلك فى مدة عشرة أيام وكان التوزيع كالآتى :

الإسماعيلية : عبد الفتاح أبو الفضل (رئاسة) ، القنطرة غرب : محمد الصلاحى والحاج محمد المعداوى ، الإسماعيلية : ضياء الدين حسنين ، فايد : م . أول يحيى راشد ، السويس : م . أول عبد القادر عبد العظيم ، الصالحية : الشيخ حسين اللق (شيخ البلد) ، بور سعيد : صاغ يحيى القاضى ، يوزباشى مصطفى كمال الصياد ، باشجاويش باراشوت حسنى عوض ، السيد / إبراهيم عبد الغفار ، السيد / محمد على الشاعر .

وبدأت القيادات فوراً فى تجنيد أفراد جماعات المقاومة ومن نفس أفراد المقاومة الشعبية الذين سبق تعاملهم ضد الجيش البريطانى قبل اتفاقية الجلاء . ولكن بشكل سرى . وكل قيادة جهزت فى منطقتها مخازن لتسويق الأسلحة والمتفجرات والمعدات التى ستستخدم فى المقاومة وإذا بدأ العدوان كان من المفروض أن تتحول هذه المقاومة السرية إلى مقاومة شعبية شاملة

شعرت بالموقف يتحرج وقد تسوء الأحوال فقد عجلت باستلام أكبر كمية من الأسلحة والمعدات ومواد من الجيش والحرس الوطنى — وقام الزميل صلاح بإعداد كميات كبيرة من زجاجات المولوتوف والقنابل القرطاسية (هولو تشارج Holow Sharge واعددت مقراً سرياً لرئاستى بالاسماعيلية فى إحدى الشقق هناك .

العدوان الثلاثى

فى يوم الأثنين ٢٩ أكتوبر مساء كنت بمدينة الإسماعيلية وعلمت هناك ومن خلال اتصال تليفونى مع رئاسة المخابرات بالقاهرة أن اسرائيل قامت بالاستيلاء أثناء الليل على منطقة ممر متلا فى سيناء وهى خالية من القوات المصرية وبها فقط بعض جنود الحدود مخترقة بذلك الحدود المصرية . وقد تمت الغارة على الممر باسقاط جنود المظلات . وكذلك تم الهجوم على سدر الحيطان بقوة تقدر بكتيبة وأن حجم العملية يدل على أنها مقدمة لعدوان شامل وليست عملية اسرائيلية محدودة .

وفى صباح يوم الثلاثاء ٣٠ / ١٠ / ٥٦ سافرت إلى القاهرة وقابلت المشير عبد الحكيم عامر الذى أمر بسرعة صرف جميع ما احتاجه من معدات وأسلحة من مخازن الجيش والحرس الوطنى لتوزيعها على المقاومة الشعبية . وفتحنا مركز تجميع لقوات المقاومة من خارج المنطقة بعزبة الاستاذ حسين

ذو الفقار عمدة قرية طويحر بالشرقية ومركز رئاسة فى نفيشة فى عزبة العمدة قاسم سلطان .

وفى مساء ٣٠ / ١٠ / ٥٦ ظهرت تمثيلية الأنذار البريطانى الفرنسى مطالباً الجانبين المصرى والاسرائيلى بإيقاف القتال براً وجواً وأن يسحب كل منها قواته بعيداً عن القنال بمسافة عشرة أميال على الأقل . وعلى أن توافق مصر على احتلال القوات البريطانية والفرنسية مؤقتاً للنقط الرئيسية فى كل من بور سعيد والاسماعيلية والسويس لضمان حرية الملاحة ، على أن ينفذ ذلك خلال ١٢ ساعة وإلا سيضطرون للتدخل العسكرى . ورفض مجلس الوزراء المصرى هذا الإنذار واستمر الطيران المعادى فى ضرب قواتنا طول النهار على طريق تقدمها إلى سيناء .

وفى يوم الأربعاء ٣١ / ١٠ / ٥٦ تأكدت لدينا المعلومات التى سبق أن رفعها جهاز المخابرات إلى الرئاسة عن الاستعدادات البريطانية فى قبرص ومالطة للنزول فى منطقة قناة السويس وذلك بقيام العدو بغارات جوية مركزه ومتلاحقة على جميع المطارات المصرية بمنطقة القناة وظهر جلياً أن الهدف هو تدمير السلاح الجوى المصرى الذى سيطر على سماء المعركة مع اسرائيل حتى هذا اليوم بالرغم من مساعدة الطيران الفرنسى للقوات الاسرائيلية .

وفى يوم الخميس ١ / ١١ / ١٩٥٦ استمرت الغارات المركزة على جميع الأهداف والمنشأت المصرية وبدأت الطائرات البريطانية والفرنسية فى اللجوء إلى الطيران المنخفض لتحقق دقة إصابة أهدافها . . وصدر فى صباح يوم ٥٦/١١/١ قرار مصرى بسحب القوات المصرية من سيناء لإفساد مخطط بقطع خط الرجعة على الجيش المصرى في سيناء واستمرت الطائرات المعادية فى ضرب القوات على طريق الانسحاب . وفى نفس

الوقت وصلت كميات هائلة من الأسلحة للتوزيع فى المنطقة على الشعب بأكمله ليقاتل بجانب الجيش .

وفى يوم الجمعة ١٩٥٩/١١/٢ ألقى الرئيس عبد الناصر خطابة الشهير فى الأزهر الشريف موضحاً للشعب المصرى وللعالم ، أبعاد التآمر الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى .

المنظر المؤلم

وفى يوم السبت ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ أثناء مرورى على طريق القاهرة الاسماعيلية مع قوى المقاومة الشعبية لمقاومة الغارات الجوية على الطريق دخلت محطة أبو صوير الجوية العسكرية وكان منظر العدد الكبير من الطائرات المصرية الميج الروسية الصنع وهى محطمة على أرض المطار مؤلم للغاية . وعلمت هناك من أحد الفنيين أن هذه الطائرات ما كان يجب أن تضرب وتحطم بهذه السهولة (أولاً) لأن الزمن الذى يستغرقه الطيار من وقت الإنذار حتى الصعود إلى الجو بهذا النوع من الطائرات زمن بسيط جداً . ولكن الطيارين المصريين وقت ضرب القاعدة كانوا يبيتون فى فندق بمدينة الاسماعيلية (فندق المسافرين) ولم يكن بالمحطة العسكرية أى طيار . (ثانياً) أنه كان من المفروض على المسئولين عن القاعدة أن يخفوا الطائرات تحت الأشجار الموجودة حول أرض المطار خصوصاً وأن هذا النوع يمكن سحبه بسهولة ولو بالأيدى لخفة هذه الطائرات . .

وفى نفس اليوم أرسلت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ومواد النسف إلى المقاومة الشعبية فى بور سعيد دخل بها الزميل سمير غانم وعاد .

وفى بور سعيد صباح يوم الأحد ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، بدأ الهجوم المركز من العدو وكانت القطع البحرية الفرنسية والبريطانية قد دخلت الغاطس أمام

بورسعيد حتى وصل بعضها إلى مسافة ٤٠٠ متر من الشاطىء ووجهت نيران مدافعها على شواطىء بورسعيد وبور فؤاد وكانت تسقط ألف دانة مدفعية فى الدقيقة على ساحة بورسعيد آنذاك وهى ٤ كيلو متر مربع وبذلك فاقت كثافة النيران المعادية ، أكبر تركيز بالنيران لأى معركة من معارك الحرب العالمية الثانية . فدمرت كافة الأسلحة المصرية الثقيلة المضادة للسفن والطائرات ، وأمست بورسعيد خالية من الأسلحة الثقيلة .

وبدأت قيادات المقاومة الشعبية بالمدينة : مصطفى كمال الصياد وحسنى عوض التنسيق مع ما تبقى من وحدات الجيش القليلة فى المدينة للتعاون معها والاشتراك فى خطة الدفاع بجمع طوائف الشعب . وكان قائد الكتيبة الرابعة مشاة العقيد حسين توفيق يسن وهو المسئول عن الدفاع على طول الشاطىء ووحداته منتشرة من منطقة مطار الجميل إلى الجبانات إلى البلاج إلى كوبرى الرسوة بأعداد بسيطة . كذلك كان هناك عدد محدود من رجال الجيش المصرى فى منطقة مكاتب شركة القنال وكان الموقف مؤثراً للغاية عندما رحب القائد حسين توفيق يسن باشتراك المقاومة مع قواته . وقال لمصطفى الصياد أنه كان يشعر قبل هذه المساهمة الشعبية بضعف وقلة قواته وبالوحدة القاتلة على طول هذه الجبهة . ولكن الشعب المسلح بالروح العالية رفع من روحه وروح جنوده المعنوية وأقسم بالله على المقاومة لآخر طلقة . استمرت الغارات الجوية ومدفعية الاسطول فى الضرب والإجهاز على مواقع المدفعية المصرية ومدفعية السواحل وبطارية الصواريخ والتى استشهد عدد كبير من جنودها . نظمت المقاومة طريقة لترحيل النساء وكبار السن والأطفال عبر البحيرات إلى دمياط والمطرية وفى مساء ٥٦/١١/٤ كانت وحدات الجيش المتبقية فى المدينة كلها من المشاة فقط ، وهى عبارة عن الأحياء من الكتيبة ٢٧٥ فى بور فؤاد والكتيبة ٢٩١ والكتيبة الرابعة وكذلك كانت هناك بطارية

مدافع صاروخية فى حى المناخ وكتيبة حرس وطنى بين مطار الجميل والبلاج .

ويوم الأثنين ٥/١١/٥٦ فى الساعات الأولى من الصباح استأنفت مدافع الأسطول والطائرات المعادية الضرب على مواقع وخنادق الجيش والمقاومة ثم توقفت مرة واحدة بما كان يوحى ببدء إنزال قوات العدو على الشاطىء . وفى الساعة التاسعة صباحاً أسقط العدو موجته الأولى من رجال المظلات بمنطقة مطار الجميل وتمكنت قواة المقاومة والجيش هناك من إبادتها عن أخرها . وفى التاسعة هبطت الموجة الثانية بشكل موسع على طول الشاطىء وعلى بور فؤاد ، وأبلى الجميع بلاء حسناً فى مقاومتها وأبيد معظمها إلا بعض هابطين منفردين تمكنوا من الهروب فى المناطق القريبة ولكن الشعب كان يتعقبهم ويجهز عليهم وحدثت خسائر كبيرة فى جنود الجيش واستشهد كثير من أفراد المقاومة .

فى نفس الوقت ضرب البطل القائد العقيد حسن توفيق يسن قائد القوات المصرية المدافعة ، المثل الأعلى فى الفداء ، واستشهد فى خندقة فى منطقة الجبانات . وكان القدوة فى سلوكه وقوة عزيمته لجنوده وإخوانه من أفراد الشعب المشترك معه فى الدفاع المجيد . ونظراً لكثرة خسائر العدو فى الهابطين من المظلات فى هذه المناطق الدفاعية المستميتة ، تم اسقاط الموجة الثالثة بشكل مكثف على المناطق الخالية من الدفاعات حول وابور المياه وموجة أخرى من المظليين المفرنسيين فى بور فؤاد فى منطقة بعيدة بعض الشىء عن الدفاعات المصرية وكونت رأس كوبرى بها بعد أن طاردها بعض أفراد المقاومة والجنود المصريين . وحدثت خسائر كثيرة بين الطرفين ، ولكن الفرنسيين تمكنوا أخيراً من احتلال بور فؤاد كما تمكنت القوات الهابطة عند وابور المياه واحتلته قبل غروب يوم ٥/١١/٥٦ .

وفى مساء يوم الأثنين ٥/١١/٥٦ وبينما أيدن يعلن كذباً فى مجلس العموم أن بور سعيد استسلمت ، أستأنفت الغارات الجوية المركزة على المدينة وبخاصة على مخازن الأخشاب ومستودعات البترول والكبائن الخشبية وحى المناخ وكل ما هو قابل للاشتعال . واشتعلت المدينة بشكل مخيف وتحولت إلى كتلة هائلة من النيران . وسيطر العدو فى مساء هذا اليوم على موقعين فقط هما موقع وابور المياه وموقع منعزل فى بور فؤاد .

بعد فجر يوم ٦/١١/٥٦ وعلى أول ضوء للصباح كانت شوارع المدينة مملوءة بجثث الشهداء من المدنيين ، وأستأنف العدو العمليات الجوية ومدفعية الاسطول الضرب بشكل مركز ومتواصل إلى أن أحدثوا ستارة كثيفة من الدخان على طول الساحل استطاع بها العدو الاقتراب والتقدم بقوارب انزال الجنود المحملة ، ونجح فى إنزال قوة مشاة الأسطول وعدد من الدبابات وتمكنت هذه القوات المعادية من احتلال مناطق متفرقة على الساحل .

فى نفس الوقت تمكنت قوات مظلات من احتلال مطار الجميل بعد تدمير كل دفاعاته . تحت ستار نيران الغارات الجوية ومدفعية الأسطول . تمكنت قوات الأسطول المعتدى من احتلال ميناء بور سعيد وأنزل العدو جميع وحداته ودباباته التى اتجهوا بها وخلفها الجنود المترجلون إلى المدينة بعد أن أحدثوا ثغرة فى سور الميناء ، وانتشروا فى أنحاء مدينة بور سعيد ، وكانت تقابلهم الجموع الشعبية المسلحة ، وأحدثوا فى الشعب خسائر كبيرة إلى أن وصلوا داخل الشوارع ، فكانت المعارك العنيفة مع الشعب الرابض فى كمائن فوق الأسطح وفوق أشجار الحدائق وخلف البواكى ومن داخل المنازل ، وكانت معركة رهيبة ولكن غير متكافئة ، حيث تمكن العدو من هدم كثير من المنازل بواسطة مدافع الدبابات . وكانت هناك بطولات كثيرة منها :

عملية الأشجار : انتشر بعض أفراد من الفدائيين المصريين فوق أشجار حديقة البلدية (حديقة الباشا) وانتظروا مرور احدى دبابات العدو وخلفها عدد من الجنود المترجلين ، وفجأة فتحوا عليهم النيران من فوق الأشجار فقضوا على جميع المترجلين من العدو وقبل أن توجه مدافع الدبابات إليهم النيران تمكنوا من النزول والهروب .

كمين خلف البواكى : كمن جمع من الفدائيين خلف البواكى عند المنزل ٤٥ شارع عبادى فى انتظار مرور إحدى داوريات الأعداء وعندما أخذوا يطلقون النيران على الداورية تمكنت الداورية من إصابة يسرى بخيت الذى استشهد فى الحال وسقط جنديان بريطانيان قتلى ، وتقدم شقيق الشهيد يسرى بخيت ليحمل جثته بعد انسحاب أفراد المقاومة واستشهد الشقيق الآخر وجدى بخيت وكانت والدتهما مقيمة فى نفس المنزل فخرجت تصيح على ولديها غير عابئة بجنود العدو اتجهت صوب الجثتين وقبل أن يصوب جنود الأعداء النار على الأم الثكلى تمكنت مجموعة أخرى رابضة فى إحدى النوافذ من الضرب على باقى أفراد الداورية البريطانية وقتل جميع أفرادها .

وعند تقاطع شارع محمد على بالقرب من شارع الحميدى أمام كنيسة الأقباط كانت هناك دبابة بريطانية مفتوحة البرج ويقف به ضابط يراقب المنطقة وخلفه دبابة أخرى وفجأة خرج الفدائى عبد الله ابراهيم وبيده قنبلة يدوية واندفع بسرعة فائقة بجانب الدبابة وقبل أن يأخذ الضابط حذره ألقى الفدائى بالقنبلة داخل فتحة الدبابة وأصيب الضابط ، وحدث انفجار داخل الدبابة أوقفها ، وأطلقت الدبابة الثانية النيران على البطل واستشهد الفدائى عبد الله ابراهيم .

احتل بعض القناصة البريطانيين أسطح كثير من المنزل ليؤمنوا تحركات قواتهم فى الشوارع . وفى منطقة حديقة زغلول أمام رصيف فرقة المطافىء

كانت مجموعة من الفدائيين تسير ولم يكن موجوداً أى جنود بريطانيين فى الشوارع ولم يتوقع الفدائيون وجود القناصة بأعلى المنازل المجاورة وفجأة أطلق القناصة النيران عليهم وأصابوا عدداً من الفدائيين واستشهد بعضهم ، ولكن كان معهم الفدائى اليونانى الأصل والمصرى الموطن بنايوتى مافروماتين وتأكد من مكان القناصة من فوق منزل نفوسه واحتمى بنايوتى بجانب أحد البواكى ومن موقعه وبمدفعه أخذ يطلق النيران عليهم وحضرت داورية بريطانية فى الحال وأطلقوا النيران على بنايوتى واستشهد مع زملائه المصريين بعد أن تمكن من قتل أحد القناصة البريطانيين .

فى مساء يوم ٥٦/١١/٦ قطعت القوات المعتدية مياه الشرب عن المدينة من وابور المياه حيث كانوا يحتلون منطقة محطة وخزان المياه .

وفى الساعة الثانية من صباح يوم ٧ نوفمبر سنة ٥٦ أوقف المعتدون إطلاق النار طبقاً لقرار هيئة الأمم ، ولكنهم استمروا فى اشعال الحرائق فى المبانى التى كانوا يعتقدون أن بها أوكارا للمقاومة الشعبية ، وباتت بور سعيد حزينة على شهدائها الأبطال عطشى بغير مصدر للمياه ، جرحى لا يجدون الرعاية الكافية من لتضميد الجراح ولكنها كانت رافعة الرأس لقيامها بواجبها المقدس فى الدفاع لآخر رمق .

عملية نسف طريقى القناة والمعاهدة

يوم ٥٦/١١/٦ أعلن همر شلد سكرتير الأمم المتحدة موافقة بريطانيا وفرنسا على إيقاف القتال فى مصر ابتداء من منتصف ليل ٥٦/١١/٦ ، ولعلمنا أن الكلام شىء والفعل شىء آخر توقعنا تقدم القوات المعادية واتصل كمال رفعت بالرئيس جمال عبد الناصر واقترح كمال نسف طريقى القنال والمعاهدة واستمرارنا فى المقاومة .

واتفق مبدئياً على نقطة دفاعية بمثابة عنق الزجاجة حددناها على الخرائط وسط الملاحات وأرض رخوة جداً يصعب تقدم الدبابات عليها إذا ما نسف الطريقان عندها ، لتعطيل أى تقدم للجيش البريطانى والفرنسى فى اتجاه الاسماعيلية . ثم التقدم فى اتجاه بور سعيد لاستعادة موقع جسر الحرس .

وأبلغنا بعض المتطوعين بالاسماعيلية بأن هناك عملية هامة سنقوم بها وتوافدت علينا أعداداً كبيرة من المتطوعين المدربين وغيرهم . وفى السابعة والنصف مساء تحركنا فى طابور كبير من العربات لاتقل عن ٧٠ عربة مدنية محملة بعضها بالأفراد من جميع الأعمار من سن ١٤ سنة إلى ٧٠ سنة ويحملون أسلحتهم ومواد النسف وأدوات الحفر .

واصلنا زحفنا إلى جسر الحرس بتكتيك قتالى تحرزا أن تكون القوات المعادية قد احتلته . وفى النهاية وجدناه خالياً ووزعت القوات عليه فى مواقع دفاعية وعدت بمفردى لموقع النسف . وأثناء حفر مواقع النسف خرج إلينا أهل القنطرة غرب وعلى رأسهم مأمور قسم القنطرة البكباشى عمر وهبى ومعه كل قوة البوليس هناك ، وقوة أخرى من خفر السواحل وقوة مسلحة من أهالى القنطرة وعندما شعروا بوجودنا ونحن نعمل على الطريق فى ظلمة الليل حضروا مقدمين أنفسهم للمقاومة فى أى عمل يساهمون به للدفاع عن بلادهم وعمل الجميع بعزيمة صادقة مما عجل بالانتهاء من عملية الحفر .

حضرت قوات الحرس الوطنى محملة على اللوارى وكان خليطاً من طلبة الجامعات وطلبة كلية البوليس وموظفين وتركنا لهم جميع أفراد المقاومة التى كانت معنا وكذلك قوات البوليس وخفر السواحل ليعاونوا فى عملية الدفاع لتعطيل أى تقدم للأعداء فى اتجاه الاسماعيلية وأثناء الانتظار حتى يتم الاحتلال ، فوجئت بصوت قائد قوات الحرس الوطنى فى الظلام ، ووجدتنى أتذكر هذا الصوت لأنى أعرف صاحبه تمام المعرفة واقتربت منه ،

فتحققت أنه كمال عزمى ، والذى يحمل رتبة يوزباشى احتياطى . كنت قبل هذه اللحظة أجهل كل شىء عن نشاطه الوطنى حيث كان المسئول عن تدريبى فى شركة الاعلانات المصرية دار الجمهورية قبل سفرى إلى السودان . أثناء فترة تدريبى كان يبدو لى أنه شخص مدنى أبعد ما يكون عن اختياره لعمل جاد كالتطوع والعمل الفدائى وعلمت أنه عمل ضابطاً احتياطياً متطوعاً فى حملة فلسطين مع قوات أحمد عبد العزيز .

سمعنا أن جى موليه رئيس وزارء فرنسا أعلن عن سقوط الاسماعيلية فى البرلمان الفرنسى ، فاستنتجنا أنهم قد يهاجمون الاسماعيلية ، فعدنا إلى الاسماعيلية لتجهيز مواقع فدائية حولها وبداخلها .

فى نفس الليلة (٥٦/١١/٦) وجهت روسيا إنذاراً جديداً إلى الدول المعتدية أعلنت فيه أنها ستسمح لعدد هائل من المتطوعين الطيارين ورجال الدبابات والمدفعية والضباط ، بالسفر إلى مصر . للقتال جنباً إلى جنب مع الشعب المصرى ، لطرد المعتدين إذا لم ينسحبوا .

وإزاء تباطؤ المعتدين فى الانسحاب ، أعلن الاتحاد السوفيتى أنه لن يقف مكتوف الأيدى أمام هذه القرصنة الدولية ، وأذيع أيضاً فى نفس الليلة نبأ نسف سورياً لأنابيب البترول التى تؤثر على تدفق بترول العرب المحلى إلى بلاد المعتدين . وكذلك نسف آبار البترول فى جميع انحاء مناطق البترول العربية وكان للأخوة الفلسطنيين الفضل فى كل ذلك .

وفى الساعات الأولى من صباح يوم ٥٦/١١/٧ وصلتنا إشارة من القوة التى احتلت جسر الحرش . [من الحرس الوطنى بقيادة كمال عزمى] أن هناك قوة معادية تتقدم ، سمعوا أصواتها من موقع الكاب أمامهم . وبعد

ساعة أخرى حوالى الساعة الثانية اشتبكت داورية من العدو مع قوة دفاع جسر الحرش واستشهد إثنان من طلبة الجامعات محمد محروس ، وبهجت قبودان وأصيب طالب الطب محمد صادق سامى ، وأسر طالب الجامعة جواد حسنى الذى استشهد بعد ذلك وهو فى معسكر الأسرى فى بور فؤاد . وقتل ثلاثة من الأعداء .

وتوقف تماماً ما تقدم العدو فى اتجاه القنطرة والاسماعيلية . وتبين على ضوء النهار وعلى مرمى البصر من موقع الحرش أن الفرنسيين كانوا يحتلون مبنى المدرسة فى محطة الكاب أمام مواقعنا . وبذلك نجحت خطة إيقاف التقدم .

لا راحة لعدو على أرضنا

أعلنت بريطانيا وفرنسا موافقتهما على إيقاف القتال الساعة الثانية صباح يوم ٧ / ١١ / ٥٦ ورغم ذلك فقد استمرنا فى القيام بعمليات عسكرية حول مداخل بو سعيد وكانت كلها ضد المقاومة الشعبية إلا أن المقاومة هى أيضاً لم تتوقف عن عملياتها ضد القوات المحتلة .

وحين اكتمل تنظيم المقاومة تكون أعلام شعبى داخل بور سعيد تحت اشراف محمد أبو نار الذى باشر اصدار نشرات بعد كل عملية من عمليات المقاومة أو عمليات التحرش بالأعداء ليطلع شعب بور سعيد أولاً بأول على مجريات أمور المقاومة . وفى رحلة لاحقة انضم إليهم طاقم اعلام من المقاومة التابعة لى وتسلل إلى داخل بور سعيد يقوده الأستاذ محسن لطفى وتمكنوا من إصدار جريدة « المقاومة الشعبية » وجريدة « الأنصار » من داخل بور سعيد .

وفى يوم ٨ / ١١ / ٥٦ تمكن الزميل اليوزباشى سمير غانم من دخول بور سعيد عن طريق المطرية والبحيرات لتولى قيادة السرية لبدء عمليات

قنالية وتخريبية ضد القوات البريطانية وإمداد القاهرة بالمعلومات عن القوات المصرية . وقد قام الفدائيون فى يوم ١١/١١ ولمدة أربع ساعات كاملة بالاشتباك مع موقع يحتله الفرنسيون فى بور سعيد .

وفى يوم ١١/١٤ وصلت إلى بور سعيد قوات من الصاعقة المصرية التابعة للجيش بقيادة جلال هريدى لتعزيز المقاومة الشعبية ومعها أسلحتها وذخائرها علاوة على ما تسلمته من داخل بور سعيد من الزميل سمير غانم .

وفى يوم ١١/١٥ اختبأت مجموعة من الفدائيين تحت البواكى وفى المنازل فى شارع سعد زغلول وانتظروا مرور داورية بريطانية أمام سينما مصبر . وفى الساعة التاسعة صباحاً مرت سيارة جيب وسيارة مدرعة وفتح الفدائيون النار عليها فى عملية خاطفة وانسحبوا فى الحال .

وفى نفس اليوم اشتبك عدد من الفدائيين مع داورية من الأعداء مترجلة وألقوا عليها القنابل اليدوية .

وفى المساء قامت جماعة أخرى من الفدائيين بإلقاء قنابل على معسكر للقوات المعتدية داخل المدرسة اليونانية بشارع سعد زغلول وقام تشكيل آخر من المقاومة بنسف سيارتين بريطانيتين بشارع الملكة فريدة .

وفى يوم ١١/١٧ قام تشكيل آخر بمهاجمة داورية بريطانية بشارع عباس وأصيب فى هذه العملية الفدائى عبد المنعم مختار وأثناء نقله بعربة الاسعاف إلى المستشفى الأميرى ومعه إخوانه قبض البريطانيون على كل من الفدائيين محمد شاكر مخلوف ومحمد مخلوف . وفى اليوم التالى مباشرة فتح الفدائيون النار على سيارة الإذاعة البريطانية التى كانت توجه نداءات للأهالى ، وتعطلت السيارة .

وجاء دوري لدخول بور سعيد

عندما وصلت أعمال المقاومة إلى هذه الدرجة تقرر أن تتوجه نصف القيادة الرئيسية للفدائيين من الإسماعيلية إلى داخل بور سعيد وجاء بذلك دوري لدخول بور سعيد .

بعد أن أستقرت أوضاع العدو هناك ، حاول المراوغة فى ميعاد الانسحاب فقمت ومعى الزميل محمد فائق والزميل ضابط اللاسلكى محمد فرج ومعنا جهاز لاسلكى . ووصلنا إلى المطرية تمهيداً لدخول بور سعيد فى يوم ١٩٥٦/١١/١٦ وأبحرنا من المطرية بملابس الصيادين على مركب صيد كبيرة يقودها الريس عبد المنعم فى اتجاه بور سعيد . وعندما أوشكت المركب على الوصول إلى مشارف المدينة لاحظنا على مرمى البصر وجود بعض نقاط الحراسة البريطانية على الشاطىء ولم يكن قد تم اكتشافها من قبل . فأسرع الريس عبد المنعم بإجراء مناورة بمركبته وأمر رجاله بالتظاهر بالصيد ، بينما طلب منا نحن الثلاثة النزول إلى قاع المركب وكان يستخدم كمخزن لكثير من أجولة السكر والدقيق ومواد التموين وبعض أقفاص السمك . قلت ضاحكاً للزميل محمد فائق « علينا أن نعتبر أنفسنا ثلاثة أجولة من أجولة السكر التى لا تفكر ولا تتكلم . ولكن بوصولها بور سعيد ستكون مادة حلوة . وشعرنا بالمركب وهى تدور وتلف كثيراً فى البحيرة وفعلاً كان الريس عبد المنعم يتجول بمركبه خلال الأعشاب الطويلة مناوراً متظاهراً بالبحث عن السمك والصيد وتمكن فى النهاية من الخروج من وسط الأعشاب مرة واحدة ومباشرة إلى موقع على شاطىء بور سعيد بعيداً عن نقط التفتيش البريطانية على بحيرة المنزلة . وأخيراً نادى علينا وخرجنا من قاع المركب واشتركنا مع باقى الركاب فى تفريغ حمولة البضائع من المركب .

وكانت تنتظرنا عربات كارو وعربات يد فوضع لنا الريس عبد المنعم كمية من أقفاص السمك على عربة اليد وسرنا مع صاحب العربة إلى مكان معين متفق عليه . أما جهاز اللاسلكى فقد كان مقسماً إلى أربعة أجزاء ملفوفة فى الخيش وموزعة داخل أربعة أجولة من السكر . وتولى الريس عبد المنعم مسئولية توصيلها إلى قيادة المقاومة داخل بور سعيد .

وتركنا الريس وسرنا خلف عربة اليد كما يفعل أصحاب البضائع الأخرى الأخرى وروريداً رويداً ابتعدنا عن شاطىء البحيرة بعيداً عن نقط المراقبة البريطانية حتى دخلنا شوارع المدينة الضيقة وبعد مدة توقف بنا صاحب العربة أمام مطعم فول وطعمية نادى على صاحب المطعم الحاج محمد شلاطة وكان رجلاً مهيباً كبير السن عليه سمات الصلاح والتقوى وصعدنا إلى منزل نأخذ قسطاً من الراحة . تناولنا بالمنزل وجبة إفطار شهية من الفول والطعمية وكان ضابط اللاسلكى فرج محمد فرج قلقاً على جهازه وفجأة دخل علينا الغرفة الغرفة الزميل سمير غانم . فبدلنا ملابس الصيادين بملابس عادية أحضرها سمير . وذهبنا معه إلى مركز قيادته بمكتبة محمود العربى وكان من أفراد المقاومة بالحى الافرنجى . وهناك وجدنا أجزاء الجهاز الأربعة ملفوفة داخل أوراق الجرائد وجاهزة للتوصيل إلى أحد المنازل ليتم تركيبه وتشغيله من هناك . وفى صمت دخل علينا الشاب يحيى الشاعر وعمره آنذاك لا يتعدى ثمانية عشر عاماً فأخذ إحدى اللفافات الأربع وخرج بها فوضعها على دراجة وانطلق ، وعلى التوالى حضر ثلاثة شبان آخرون من إخوانه وزملائه فكرروا نفس ما فعله ما فعله زميلهم يحيى الشاعر . وانزعج صاحب الجهاز فرج محمد فرج فطمأنه بأن الجهاز سيتم تجميعه فى منزل يحيى الشاعر وأخذنا نضحك . وبعد وقت كاف توجهنا إلى المنزل المحدد واستقبلتنا والدته السيدة أمينة محمد الغريب بترحاب وبشاشة وأمومة محببة للنفس . وقد ساهمت هذه السيدة

الفاضلة بشجاعتها وأبنائها الثلاثة فى أعمال المقاومة وكانت مثلاً للمرأة المصرية فى الأزمات الوطنية . قامت السيدة فأفرغت جزءاً من دولاب ملابسها لإخفاء الجهاز داخله ، وفى نفس الوقت قام ضابط اللاسلكى فرج بتجميع أجزاء الجهاز داخل الدولاب وصعد إلى سطح المنزل وثبت الهوائى بحيث لا يسترعى الانتباه . ثم قام بتشغيله حتى تم الاتصال بالقاهرة والاسماعيلية . واستمر فرج محمد فرج ملازماً هذا المنزل وجهازه ولم يغادر هذا المكان إطلاقاً حتى انسحبت القوات المعتدية من بور سعيد .

كان هذا هو الجهاز الوحيد الذى نقل أخبار بور سعيد بشفرة خاصة إلى مراكز القيادات ، إلا أننا لم نستخدمه فى نقل أية أخبار عن المقاومة حتى لا نقع فى المحظور ، لو أمكن للبريطانيين حل شفرة الجهاز . أما أنا فقد أقمت مع محمد فائق فى إحدى الشقق بالحى الإفرنجى وهى شقة سامى خضير ضابط البوليس المكلف من المحافظة للاتصال بالمقاومة . كما اتخذت لنفسى اسماً مستعاراً لأحد أصحاب محلات الدراجات التى تهدمت من آثار العدوان ، وكان المحل يقع أمام مكتبة العدنى فانتحلت اسم صاحب المحل وهو محمد غريب خليل ، بينما اتخذ الزميل محمد فائق اسماً آخر لاحد المدرسين بالمدرسة الثانوية ببور سعيد والذى كان قد هاجر مع أسرته إلى القاهرة واستخرجنا بطاقات شخصية بذلك عن طريق سامى خضير .

عملية مخططة

كان هناك معسكر تابع للبوليس الحربى البريطانى وبعد الاستطلاع التفصيلى للموقع تبين أن أفراد البوليس الحربى يقيمون بأحد المبانى وهو يطل على شارع الاسكندر الأكبر والسلطان حسين وخلف المبنى توجد أرض فضاء . وقد لوحظ يومياً عودة ثمانى سيارات عسكرية لتقف فى الأرض

الفضـاء بعد حلول موعد منع التجول . والأرض الفضـاء . . . على كل ركن من أركانها الأربعة توجد دشـمة مرتفعة تكسـوها أكياس الرمال ويقف داخلها حارس مسلح للحراسة يقوم بتشغيل كشافات الإضـاءة الليلية .

وفى مسـاء يوم ٢ / ١٢ / ١٩٥٦ م وبعد أن تم وضـع خطة دقيقة لمهاجمة هذا المعسـكر تسـللت أربعة أطقم من الفدائيين إلى أسـطح المنازل الأربعة المشـرفة على هذا المعسـكر وكان قد طلب من كل فرد دور خاص ففتح الجميع نيران أسـلحتهم المختلفة فى وقت واحد . فقام بعضـهم بضـرب السـيارات الثمانى بالأسـلحة المضـادة للدبابات ال R.B.J . وفى نفس اللحظة قام أفراد آخـرون من القناصـة بإصـابة الحراس الموجودين بكشـك الحراسـة ثم هبط الجميع إلى أسـفل المنازل وانسـحبوا عن طريق الشـوارع الخـلفية ثم تجمعوا جميعاً فى مكان متفق عليه ، وظلوا بأحد المنازل المهجورة حتى الصـباح . وقد كللت هذه العملية بالنجاح دون أدنى خسـائر فى جانب الفدائيين .

وفى المسـاء احتلت أطقم الفدائيين مواقعها المختارة بدقة . وكان الملجأ به سـبع عشـرة دبابة وعربة مدرعة بريطانية وهو موقع فى أرض فضـاء بطرح البحـر فى شـارع ٢٣ يوليو أمـام المـبرة وتقـوم على حراسـتـه نقط بريطانية مسـلحة . وكان مبنى السـجن قريباً من الموقع فتم قيد أفراد الصـاعقة فى دفاتر مسـاجين بمعرفة ضـابط الإتصـال سـامى خضـير وبعد موعد منع التجول أطـلق سـراح رجال الصـاعقة من السـجن . وكان الطريق المؤدى إلى الموقع يصـعب سـير العربات فيه نظراً لكثرة أنقاض المنازل المهدمة لذلك تم اختياره ليكون طريق تقدم وانسـحاب المهاجمين .

وفى منتصـف الليـل هاجم رجـال الصـاعقـة الـدبـابـات الرابضـة فى ملاجئهـا بأسـلحتهم المضـادة للدبابـات « البلاندسيت » فتمكنوا من تدمير

أربع دبابات وجميع العربات المدرعة كما أصابوا معظم أفراد الحراسة البريطانية ودوت فى أرجاء المدينة أصوات تبادل النيران وانطلاق مدافع « البلاندسيت » وانفجار الدبابات البريطانية وأخذت المدينة تهتز من تأثير الانفجارات .

وانسحبت قوات الصاعقة عبر الطريق المهدم إلى مبنى السجن حيث بقوا فيه كمساجين حتى الصباح . إلا أن الدوريات البريطانية قامت بالتجول لقطع خط الرجعة على المهاجمين ومطاردتهم فاشتبكت معهم قوات المقاومة الشعبية حسب الخطة لتعيق تقدم الدوريات التى تطارد أفراد الصاعقة وقد حدثت بعض الخسائر فى الأفراد .

وللأسف كانت هذه العملية آخر العمليات التى قامت بها الصاعقة فى بور سعيد ، لأن السلطات البريطانية استشعرت أن هذه العملية وغيرها من العمليات المخططة تمت بيد رجال مدربين على مستوى عال فتمكنت من معرفة مكان مبيتهم وداهمته فى ليلة ١٢/١٥ واعتقلت سبعة من ضباط الصاعقة ومعهم الدكتور حسن جودة الذى كان يقيم معهم فى عيادته المطلة على شارع صفية زغلول ورمسيس . وأخذوهم أسرى ورحلوا معهم عند الجلاء على البوارج البريطانية فأنزلوهم فى قبرص حيث عادوا منها إلى القاهرة بعد تمام انسحاب القوات .

عملية قرب ملجأ الدبابات البريطانية

عقدت اجتماعاً بحضور سمير غانم والرائد جلال هريدى قائد الصاعقة ، ومصطفى الصياد المشرف على الجماعات الفدائية ، لوضع خطة مشتركة لضرب ملجأ الدبابات البريطانية وتقضى الخطة أن تقدم قوات الصاعقة بقيادة الملازم حسين مختار على مهاجمة ملجأ الدبابات بالتنسيق مع

قيادة المقاومة الشعبية ، فتتولى المقاومة تأمين انسحاب قوات الصاعقة بعد تنفيذ الهجوم .

اختطاف الضابط مور هاوس

قام اليوزباشي سمير غانم ، بالاتصال بالعميد الموجي (الذى وقع أسيراً فى أيدى القوات البريطانية أثناء الغزو) فى المعتقل . أبدى العميد الموجي تخوفه من قيام القوات البريطانية باصطحابه هو وباقى الأسرى من الضباط المصريين إلى قبرص ، بعد انسحاب القوات البريطانية من مصر ، وعلى أثر ذلك أصدر سمير غانم تعليمات بخطف بعض الضباط البريطانيين ، حتى يمكن المبادلة بالضباط المصريين . وقامت مجموعة من الفدائيين بخطف أحد الضباط . وكان يقود عربة بمفرده عند ناصية شارع رمسيس بالقرب من ميدان ديلسبس فاستولوا منه على بطاقته ووضعوه فى عربة لأحد الفدائيين تصادف وجودها فى نفس المكان وصعدوا به بسرعة لأحد المنازل الخالية من السكان بشارع ابراهيم توفيق وكان اسم الضابط أنتونى مورهاوس وقيدوه ووضعوه فى صندوق لحمله خارج المنزل .

وعند استطلاع الطريق للنزول به فوجئوا بقوات كبيرة من البوليس الحربى البريطانى تقوم بتمشيط المنطقة بحثاً عن الضابط المخطوف . عادوا وصعدوا إلى أعلى المنزل ، ومن هناك قفزوا على سطح أحد المنازل المجاورة وتمكنوا من الهروب . ولكن أحد الفدائيين من أهالى الحى علم بوجود الضابط البريطانى فى هذا المنزل ووجد أن البوليس الحربى البريطانى يقوم بعمل علامة بالجير على كل منزل يتم تفتيشه فقام بسرعة خاطر بتقليد هذه العلامة على المنزل الموجود به الضابط المخطوف ولم يقم البريطانيون بتفتيش المنزل واستمرت عملية الحصار البريطانى على المنطقة عدة أيام فى خلالها مات

الضبـاط « مورهـاوس » حيث لم يتمكن مختطفـوه من العودة لإخراجه من الصنـدوق وإنقـاذه . وبعـد رفع الحصـار عن المنطقة قام الفدائيون بدفن الصنـدوق وبـه جثـة « مورهاوس » فى الحوش أسـفل المنزل . وبعد جلاء القوات المعتـدية عن مصر طالب البريطانيون به حياً أو ميتاً وسـلمت لهم الجثة . وعلم فيما بعد سـر اهتمام القوات البريطانية بهذا الضـابط فقد كان يمت بصـلة قرابة للأسـرة المالكة البريطانية .

قتـل ضـابط المخابرات الشـهير ويليامز

كان هنـاك مجمـوعة من الفدائيين صـغار السـن يقودهم عسـران وكان لا يتعدى سـنة ١٥ سـنة وله شـقيق اسـتشهد فى عمليات ضـرب بور سعيد . نصـب كميناً مع زملائه على الطريق المؤدى إلى الرسـوة وخلف صـندوق كبير انتـظروا مرور عربة عسـكرية منفردة فألقوا عليهـا وابلا من القنابل اليدوية وفروا هاربين . وعلمنا فى نفس اليوم أن ضـابطين بريطانيين كانا بهذه العربة وقتلا وكان أحدهما الكولونيل جريس والثانى الكولونيل ويليامز وهو الضـابط الـذى قام باعتقـال ضـباط الصـاعقة وكان ضـابطاً للمخابرات فى القاعدة البريطانية . ولعب دوراً كبيراً فى اعتقال كثير من الفدائيين عام ١٩٥١ ، وكان يحمى الخـونـة المصـريين داخـل المعسـكـرات البـريطانية أمثال كنج صبرى ومكسيموس ، وحضـر مع قوات الغزو وكلف بأن يعمل ضـابط اتصـال مع محافظة بور سعيد بعد احتلالها لأنه يتكلم اللغة العربية ورفض المحافظ محمد رياض ذلك .

البحـث عن جهـاز اللاسـلكى

وفى مسـاء أحد الأيام وبعد موعد منع التجول كنت مع محمد فائق وسـمير غانم فى البشـقة التى نقيم فيها بشـارع الملكة فريدة . وكان سـمير غانم يقوم

بالارسال على جهاز لاسلكى قديم . أما نحن فكنا نراقب الشارع أثناء الإرسال ومرت عربة بريطانية متخصصة فى تحديد اتجاه أجهزة اللاسلكى ومثبت بأعلاها هوائى مربع يتحرك حول نفسه فى بطء . وقد قصدنا بذلك أن تلتقط العربة صوت إرسال جهازنا فيبتعدوا عن موقع الجهاز الرئيسى مع فرج محمد فرج ولما اقتربت العربة ، طلبت من سمير غانم التوقف عن الإرسال والصعود بالجهاز إلى سطح المنزل وبعد قليل غادرت العربة المنطقة . فنزل سمير والجهاز معه إلى منزل آخر لتكرار الخداع مرة أخرى حتى يبتعدوا تماماً عن الجهاز الأصلى فى منزل السيدة فاطمة الغريب والدة يحيى الشاعر .

الختم المزور

فى صباح أحد الأيام ، وقبل أن أغادر المنزل الذى أقيم فيه سمعت أصوات حركة غير عادية فى الشارع وخطوات سير جنود وعندما أطللت من النافذة وجدت أن البريطانيين ، أثناء الليل أقاموا سوراً كاملاً من الأسلاك الشائكة بطول شارع الملكة فريدة ونزلت مع الزميل محمد فائق فوجدنا أن هذا النطاق من الأسلاك الشائكة يحيط تماماً بالمنطقة المتاخمة وعلى السور داوريات وحراسة مركزة لحماية قواتهم أثناء الانسحاب عن طريق الميناء وقد عزلوا هذه المنطقة تماماً عن باقى مدينة بور سعيد حتى لا يدخلها المزيد من الفدائيين المصريين فيسببون لهم خسائر أثناء الانسحاب .

ووجدنا أنفسنا داخل السور معزولين عن بور سعيد ، تجولنا حول السور فوجدت فتحة وأمامها طابور من أهالى المنطقة المعزولة ، تسمح لهم السلطات البريطانية بالخروج من المنطقة لشراء حاجياتهم من بور سعيد والعودة . وكانوا يختمون على ذراع كل فرد يريد الخروج حتى يتعرفوا عليه عند

العودة ولا يدخل غيرهم . وقفنا فى الطابور وتم طبع الختم البريطانى على ذراعى أنا ومحمد فايق . وذهبنا إلى مركز قيادة المقاومة وهناك أمكننا الاستعانة بأحد عمال الزنكوغراف وصنع ختماً مماثلاً . ختمنا به أذرع عدد كبير من أفراد المقاومة تمكنوا من دخول المنطقة المعزولة فى نفس اليوم ، وقاموا فى الأيام التالية بعمليات للازعاج ضد الجيش البريطانى أثناء عمل الانسحاب حتى آخر يوم لهم قبل الجلاء الكامل .

الأسر

فى يوم ١٤ ديسمبر وصلتنى اشارة شفرية عن طريق جهاز اللاسلكى لأعود من بور سعيد ، ومعى الزميل محمد فائق ليحل محلنا سعد عفرة بمجموعة أخرى رتبت طريقة العودة مع الريس عبد المنعم الذى سبق أن حضرنا معه من المطرية . وغادرنا بور سعيد عن طريق القابوطى صباح يوم ١٥ ديسمبر مبكرين بعد ارتداء ملابس الصيادين وكان معنا الاستاذ الطناحى من مجموعة الاعلام حيث كان مريضاً . قادنا الريس عبد المنعم عن طريق آخر فى مياه البحيرة الضحلة مسافة طويلة لنصل إلى مركبه فى (الغاطس) بعد جزيرة صغيرة هى جزيرة الخندق ، وعندما وصلنا إلى هذه الجزيرة ظهرت فجأة طائرة اسكتشاف بريطانية تطير فوق الملاحة وأخذت تحوم حولنا على ارتفاع منخفض . وقبل أن نصل إلى القارب مباشرة خرجت علينا من داخل أعشاب البحيرة داورية بريطانية فاحتجزتنا جميعاً وكان معنا عدد كبير من الصيادين والعمال وأمرونا بالجلوس على الأرض . كنت ارتدى سويتر وضعت فى جيوبه الداخلية نماذج من المنشورات والصحف التى كنا نطبعها ونقوم بتوزيعها داخل بور سعيد ضد الاحتلال .

وتوقعنا المتاعب فخلعت السويتر وبه المنشورات ووضعته داخل

الأعشاب وأخذت فقط بطاقتي المزيفة ومائة جنية كانت معى أعطيتها للريس عبد المنعم واحتفظت بالبطاقة فى جيب الجلابية . وعلى الفور بدأوا بتفتيشنا وعثروا مع الريس عبد المنعم على النقود فاستولوا عليها أما أنا فقد سلبونى دبلة الزواج وأخذوا من الاستاذ الطناحى علبة الدواء . أما محمد فايق فوجدوا فى يده ساعة سلبوه إياها ، وأخذ محمد فايق يصيح بالانجليزية Give me my wotch I'am a school teacher, I'need my wotch أعطونى ساعتى — أعطونى ساعتى أنا مدرس وفى حاجة إلىّ ساعتى . وأخذ الانجليز يضحكون وبالطبع لم يعيدوها له .

ثم جاءت مرحلة الاستجواب وكان يوجه السؤال بالانجليزية ضابط بريطانى وبجانبه مترجم يتكلم اللغة العربية باللهجة الشامية . ولما جاء دورى كان الضابط بعد أن أطلع على البطاقة يوجه لى السؤال باللغة الانجليزية وكنت لا أعيره اهتماماً لأنى صاحب محل دراجات لا يفهم الانجليزية . وقد تم الإفراج عن الريس عبد المنعم والاستاذ الطناحى والزميل محمد فايق وركبوا المركب إلى المطرية . أما أنا فقد كشفوا على باطن كفى ووجدوها غير خشنة بدرجة كافية كعامل يعمل بيديه . واحتجزونى مع عدد آخر من المعتقلين ، وأرسلوا فى الاستفسار عن صحة المعلومات التى بالبطاقة . واحتجزت لمدة ثلاث ساعات قاموا بتشغيلى مع باقى الأسرى فى نقل الحجارة « دشمة مدفع » كانوا يقومون بتحصينها وكان العمل متواصلاً . ثم أفرج عنى وحدى وعدت مسرعاً إلى بور سعيد مرة ثانية لأبلغ باللاسلكى اننى لا زلت محتجزاً فى بور سعيد وكانوا قلقين على حتى أبلغهم محمد فايق بما حدث .

وفى يوم ١٧ ديسمبر قبل الغروب فوجئت وأنا برئاسة المقاومة بمكتبة العدنى بحضور سعد عفرة فى زى رجال الاسعاف وبصحبته آخرون من

رجال اسعاف الاسماعيلية ومعهم عربة اسعاف جاءت بتصريح من البوليس الدولى عبر طريق الاسماعيلية بورسعيد خلال نقط تفتيش الجيش الفرنسى . استبدلت ملابسى بملابس أحد أفراد الاسعاف لأعود بدلاً من سعد عفرة .

وفى يوم ٢٣ ديسمبر احتفلنا جميعاً بجلاء العدو .

التهامى .. والقلعة الغامضة

بعد الثورة مباشرة كان من الزملاء الذين عينوا معنا حديثاً بالمخابرات : حسن التهامى . ولم يكن له مكتب خاص بمبنى المخابرات . ولا نعلم عن عمل محدد يقوم به ، إلا مساهمته فى إحضار بعض خبراء المخابرت الأمريكيين لعقد حلقات دراسية لأربعة من ضباط المخابرات المصريين، للاستفادة بخبراتهم فقط ، كما أشرت سابقاً

وفى فترة متقدمة ـ بعد البدء فى إنشاء برج القاهرة بحيث أخذ يرتفع عن الأرض ، علمنا أن حسن التهامى احتل الدور الأول ، وأحاط جزءاً من هذا المبنى بأسوار عالية . وجعل له بوابات ضخمة وكان مقره فى مجموعه يشبه قلاع الأمراء فى العصور الوسطى . وحتى بعد احتلاله لهذه القلعة كنا نسميها قلعة الأسرار حيث عجزنا كضباط مخابرات وزملاء أن نعرف أى شىء عن العمل الذى يجريه داخل هذا الحصن .

بعد أن قام على صبرى باستلام العمل بالمخابرات العامة محل زكريا محيى الدين بعد العدوان الثلاثى علمت وأنا أعمل بالمقاومة الشعبية فى الإسماعيلية أن حسن التهامى قد صدر قرار بنقله من قوة المخابرات .

ورفض حسن التهامى أن يغادر قلعته الغامضة بأسفل البرج واعتصم بها هو وأعوانه ، وأرسل له على صبرى رئيس المخابرات مجموعة مسلحة من ضباط المخابرات أرغمته على مغادرة قلعته . وبعد أن أنهينا عملنا بمنطقة

القنال ، وعدت إلى عملى بالقاهرة علمت من كمال رفعت ــ وكان زميل دراسة لحسن التهامى ــ أن الرئيس عبد الناصر وصله نسخة من شرائط تسجيل مسجل عليها بعض أحاديث عبد الناصر التليفونية ذات الطابع السرى وكان هذا هو السبب فى طرده من القلعة وعلمت أيضاً أن حسن التهامى كان منذ بداية الثورة يعمل وهو موظف بالمخابرات فى عمل خاص مكلف به من عبد الناصر .

هذا العمل لم نعرف به إلا مؤخراً بعد إرغام حسن التهامى على مغادرة هذا المكان ، وكان مسئولاً أمام الرئيس عبد الناصر عن مراقبة تليفونات أعضاء مجلس الثورة والوزراء والشخصيات ذات الصفة العامة وأنه يسجل هذه الأحاديث لعرضها على عبد الناصر فقط .

وكانت النتيجة أنه قام بتسجيل أحاديث عبد الناصر نفسه . وكانت حجة حسن التهامى عندما طالبوه بإخلاء القلعة أنه هو صاحب الفضل فى الحصول على تكاليف إنشاء البرج من الأمريكان .

وكان من المفروض أن يجازى حسن التهامى على الأقل بإبعاده عن المراكز الحساسة بعد كشف عملية تجسسه على مكالمات الرئيس عبد الناصر . وهنا يثور التساؤل لمصلحة وحساب من كانت تسجل مكالمات رئيس الجمهورية ؟! ومع ذلك ، فقد نقل حسن التهامى معززاً مكرماً للعمل برئاسة الجمهورية وفى أعمال لا يعلمها أحد ، وفى هذه الفترة تظاهر بالتدين الشديد وأطلق لحيته . ثم أرغمه عبد الناصر على إزالتها بعد أن أحضر له الحلاق .

وبداية من هذا التاريخ بدأ فى الهلوسة وخلط الواقع بالغيبيات سواء أكان عن عمد أو تمادياً فى تغطية شىء لا يعلمه إلا الله والعالمون ببواطن الأمور .

بعد وفاة الرئيس عبد الناصر أبلغنى المرحوم كمال رفعت أن حسن التهامى أثناء عمله بالرئاسة ، بعد طرده من قلعة برج القاهرة ، فاجأه عبد الناصر بالوثائق التى تسلمها من الاتحاد السوفيتى التى تؤكد أن أحد أعضاء سفارتنا فى موسكو وكان يعمل لحساب حسن التهامى قام بتجميع معلومات عن الجيش السوفيتى وتدريباته من الضباط المصريين الذين يتدربون فى الاتحاد السوفيتى . وعلمت بذلك المخابرات السوفيتية بواسطة عملائها فى الولايات المتحدة الأمريكية وأبلغ عبد الناصر هذه الواقعة للمرحوم كمال رفعت وعلمت بعد فترة بنفس هذا المضمون من صلاح دسوقى ، وهو على قيد الحياة أطال الله فى عمره . والغريب فى الأمر رغم كل هذه الأعمال من حسن التهامى فقد عين فى فترة لاحقة سفيراً بوزارة الخارجية وصدر قرار جمهورى يسمح له بالزواج من أجنبية .

وبعد وفاة الزعيم عبد الناصر كنت أزور حسن التهامى فى منزله للحصول منه على دراسات وقرارات المؤتمر الإسلامى حيث كان يشغل مركز سكرتير عام المؤتمر الإسلامى ، وفى هذه المقابلة الطريفة أخذ يقص على حقيقة قصة صفقة الأسلحة التشيكية . ومن ضمن حديثه أن الرئيس عبد الناصر قبل توقيع اتفاقية صفقة الأسلحة التشيكية أرسل حسن التهامى فى مأمورية خاصة إلى الولايات المتحدة ليستطلع رد فعل رجال المخابرات الأمريكية CIA فى أثر هذه الصفقة على السياسة الأمريكية إذا ما تمت ولما عاد من هناك طمأن الرئيس عبد الناصر بأنه قام باستجلاء الموضوع مع المسئولين فى الولايات المتحدة ، وأن توقيع وإعلان هذه الصفقة سوف لا يحدث أى انزعاج لواشنطن وقال للرئيس عبد الناصر وقع الاتفاقية ولا تخش شيئاً . وتردد عبد الناصر ، فما كان من حسن التهامى إلا أن صرخ فى وجهه قائلاً « امض ياجبان !!! » وكان ردى على حسن

التهامى « أنه يجوز لك أن تقص مثل هذه القصص على أى إنسان آخر إلا على حيث إنى أعلم جيداً أنه لا يجرؤ أى إنسان مهما كان قريباً من الرئيس عبد الناصر أن يحدثه ويأمره بهذه اللهجة المهينة » .

وجاءت فترة حكم الرئيس السادات وكان حسن التهامى من أقرب المقربين للسادات رغم ما اشتهر عنه من عدم الاتزان وتفسير الأحلام والغيبيات علاوة على أنه كان قد بلغنى من أحد المقربين لأنور السادات عندما كان يرأس المؤتمر الإسلامى ويعمل معه حسن التهامى أن حسن التهامى دخل عليه مرة يراجع أنور السادات فى موضوع وأخرج له مسدسه الذى يتباهى دائماً بحمله أينما كان وهدد به أنور السادات . فما كان من أنور السادات إلا أن نظر له فى هدوء وقال له « اجر يا ولد والعب اللعبة دى مع أحد غيرى لأنه فاتك أننى أتقن هذه اللعبة أكثر منك » ووصلت العلاقة بينهما لدرجة أنه اختاره كمندوب له للتقارب مع حكام إسرائيل وقابل موشى ديان فى قصر الملك الحسن ملك المغرب للتمهيد لزيارة الرئيس السادات للقدس ، وإعلان مبادرته .

والأخطر من كل هذا أن يعين أنور السادات حسن التهامى ذى الشخصية المهزوزة فى الظاهر والغامضة فى الباطن فى الوفد المصرى للتفاوض مع إسرائيل فى قلعة ليدز فى بريطانيا ثم يعينه فى وفد المفاوضات الرسمى فى كامب ديفيد وكان له مكانة عند السادات أثناء المفاوضات الجانبية تفوق صلاحيات وزير الخارجية المصرى محمد ابراهيم كامل الذى استقال من قبل إبرام اتفاقية كامب ديفيد وجاء فى مذكراته عن هذه الفترة فقرات كلها تهكم وسخرية مما كان يدعيه حسن التهامى أثناء المفاوضات أو فى وقت الراحة . عاد حسن التهامى بأكاليل الغار بعد كامب ديفيد

وألبسه الرئيس السادات ريش الطاووس فى الاحتفالات العسكرية وبوأه مكاناً عالياً فى يوم الزينة الكبرى بحيث كان يوازى أو يتخطى نائب رئيس الجمهورية .

كل هذه المتناقضات تدعونا للعجب ولكن هذا العجب زال بعد رفع الحجاب عن أسرار المخابرات الأمريكية فى الشرق الأوسط وبعد أن نشرت بعض وثائق السفارة الإيرانية فى طهران بعد أن احتلتها منظمات طلبه إيران واحتجزت رجال السفارة فقد تناولت صلة حسن التهامى الوثيقة بالمخابرات الأمريكية وأنه كان هناك تنظيم سرى يجمع بين مخابرات إيران والسعودية ومصر والمغرب يطلق عليه نادى السفارى Safary Club وكانت سكرتاريته الدائمة بالقاهرة وقد تكلف إنشاؤها وتجهيزها المبالغ الطائلة وكانت مهمتها مقاومة الشيوعية فى المنطقة وكان من ضمن المهام التى كُلفت بها هذا النادى الإعداد لاجتماع بين مصر وإسرائيل فى قصر ملك المغرب .

وأخيراً وفى الأيام الأخيرة قبل حادث اغتيال أنور السادات ساءت العلاقات بين حسن التهامى وأنور السادات بسبب تصريحاته لبعض الصحف العربية بما يشوه اتفاقية كامب ديفيد ، ولكن حسن التهامى بقدرة قادر استمر فى العمل وبدرجة نائب رئيس وزراء فى رئاسة الجمهورية إلى أن أحيل إلى المعاش فى عهد الرئيس مبارك . وتخلصت المسئوليات العامة فى مصر من هلوسة صاحب قلعة الأسرار (القلعة الغامضة) والذى كان قادراً على تبوء أعلى المراكز رغم ما حوله من شبهات .

المخابرات .. وإعادة التنظيم

منذ بدء ، وإشراك « المخابرات الحربية » فى مهام كثيرة لتأمينها من الداخل وتأمن البلاد من خطر القاعدة البريطانية التى كان يربض فيها أكثر من مائة ألف جندى بريطانى بأسلحتهم ، كان على المخابرات أن تجدد شبابها وتعيد تنظيم نفسها . لم يعد أمام المخابرات إلا المساعدة فى مواجهة التحديات الخارجية والمصاعب الداخلية إلى أن تحقق إبرام اتفاقية الجلاء وبذلك استكملت المخابرات تنظيمها حتى يلائم متطلبات الاستقلال الكامل وما يحتاجه ذلك منْ تأمين سياسة مصر الخارجية وأوضاعها الداخلية واستلزم ذلك :

(أ) محاولة تدريب ضباط فى الاتحاد السوفيتى

حاولت مصر بعد الثورة مباشرة عن طريق سفير مصر فى الاتحاد السوفيتى فى ذاك الوقت (عزيز المصرى باشا) أن تعقد اتفاقاً مع الاتحاد السوفيتى لإرسال بعثة من بعض ضباط المخابرات المصريين تحت ستار العمل الديبلوماسى . وحضور تدريب فى المخابرات الروسية ولكن السلطات السوفيتية لم توافق على الفكرة حينذاك .

(ب) الاستعانة بالخبراء الألمان

كانت المحاولة الثانية مبكرة . وعقب الثورة مباشرة حيث قام جهاز المخابرات باستدعاء عدد من أكفأ رجال المخابرات والجاسوسية الألمانية أثناء

الحرب العالمية الثانية عن طريق استدعائهم بواسطة الملحقين العسكريين المصريين فى سفاراتنا بالخارج وفى البلاد التى كان هؤلاء الألمان يختبئون ويعيشون فيها . وقد استؤجرت لهم فيلا بعيداً عن جميع مبانى المخابرات أقاموا فيها . وكانوا مكلفين فقط بكتابة مذكراتهم وخبراتهم فى المخابرات والجاسوسية الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها . وخصصت المخابرات لهم طاقماً محدوداً من ضباط المخابرات لقراءة ومراجعة هذه التقارير والمذكرات وانتهوا منها بوضع المبادىء العامة لتنظيم أسلوب عمل المخابرات بما يلائم ظروف مصر وأمنها ثم أضفنا خبرات أخرى . حصلنا عليها من بعض الخبراء الأمريكان . وحسب معلوماتى وقتها فإن حسن التهامى فقط هو الذى كان يتصل بالأمريكان .

(جـ) الاعتماد على النفس

وتجدر الإشارة إلى أنه منذ بدء العمل فى إدارة المخابرات بعد الثورة مباشرة . كان هناك تصميم بالاعتماد على النفس بالإضافة إلى الاس... بالمخابرات الأجنبية . وأعد ترتيب للحصول على مختلف المراجع والكتب التى تناولت أعمال المخابرات والجاسوسية فى مختلف الدول قبل الحرب العالمية الثانية وأثنائها . ووجدنا بمكتبة المخابرات مجموعة لا بأس بها من هذه المراجع . قمنا بترجمتها وطبعها وتوزيعها على جميع العاملين بالمخابرات . ثم حصلنا على الكثير من المراجع والكتب عن طريق سفاراتنا وملحقينا العسكريين بالخارج وعكف على دراستها نخبة من الزملاء المصريين ضباط المخابرات واستخلصوا منها ما يفيد التنظيم وأسلوب العمل ، ثم وزعت ترجمتها على جميع ضباط المخابرات ليعكفوا على قراءتها والاستفادة من الخبرات التى تحويها . وكانت هذه الكتب هى المراجع الأساسية فى حصولنا على أصول علم المخابرات وحققت لنا مبدأ الاعتماد على النفس .

(د) الاستفادة من المتخصصين الأمريكان (سنة ١٩٥٣)

بعد الحصول على مذكرات الألمان والمراجع العلنية ودراستها بدقة وقع الاختيار على مجموعة من ضباط المخابرات المصريين ليضعوا تنظيماً يلائم إمكانيات وظروف مصر كما ظهرت الحاجة الملحة لتطوير برامج مدرسة المخابرات ولتدريب ضباط المخابرات المصريين الجدد . وكان الضباط الموجودون بالخدمة أيضاً يتلقون هذا التدريب . كما أعد برنامج تدريب لضباط المخابرات بالقوات المسلحة حتى مستوى الكتيبة . وأثناء التطوير وإعادة التنظيم أمكن للزميل حسن التهامى عضو المخابرات والذى كان على علاقة مع أحد رجال المخابرات الأمريكية ، واسمه مايلز كوبلاند . أن يستدعى مجموعة خبراء أمريكان فى علم المخابرات .

قامت المخابرات المصرية بتجهيز منزل أمن لهم Safe House بالقرب من شارع الهرم وتكونت المجموعة المصرية من أربعة ضباط مخابرات فقط لعقد ندوات مع طاقم المخابرات الأمريكية فى جميع أوجه التخصصات لمدة ثمانية أشهر .

وكان من المفروض أن يتلقى حسن التهامى المحاضرات معهم ولكنه كان يحضر من وقت لآخر بمصاحبة مايلز كوبلاند (وهو المؤلف المشهور لكتاب لعبة الأمم Lyame of Nations أثناء هذه الدورة . وبانتهاء الحلقات أو الندوات انقطعت صلة هؤلاء الخبراء الأمريكان كلية بجهاز المخابرات والمجموعة المصرية . وتم تكليف اثنين من الضباط المصريين الأربعة بإعادة تنظيم مدرسة المخابرات والتى عرفت فيها بعد باسم « معهد العلوم الاستراتيجية » والتى كان يتلقى فيها رجال وزارة الخارجية الجدد الدراسة أيضاً .

التنظيم الجديد

بعد أن تقرر إنشاء جهاز المخابرات الاستراتيجية بقيت المخابرات الحربية تابعة للجيش ، وبها قسم الملحقين العسكريين وأنشئت المخابرات الاستراتيجية (العامة) . وكان تنظيمها نابعاً مما حصلنا عليه من بعض أفكار خبراء المخابرات الألمانية ومن المصادر العلمية الخاصة بالمخابرات من واقع الكتب والمراجع بالإضافة إلى ما حصلت عليه مجموعة الضباط المصريين الذين شاركوا فى ندوات خبراء المخابرات الأمريكيين والذين اقترحوا تنظيماً عرضوه فى ندوة على السيد زكريا محيى الدين رئيس الجهاز فى ٣ / ١٢ / ١٩٥٣ .

وفى النهاية وضع تنظيم مثالى بمعرفة رجال المخابرات المصريين يلائم إمكانيات وظروف مصر آنذاك وصدر فى مارس سنة ١٩٥٤ بقرار جمهورى على شكل قانون باسم المخابرات العامة . ومن وقت التحاقى بالمخابرات العامة فى يوليو سنة ١٩٥٢ إلى أن غادرتها للعمل برئاسة الجمهورية سنة ١٩٦٨ لم يطأ عتباتها ولم يتدخل فى تنظيمها أويشارك فى برامج تدريب مدرستها أى أجنبى . ومنذ نشأة معهد العلوم الاستراتيجية توسع فى التدريس والتدريب ليشمل ضباط القوات المسلحة ونخبة من الديبلوماسيين بوزارة الخارجية ، وضباط المباحث العامة فى وزارة الداخلية ورئاسات مكاتب الأمن بالوزارات والإدارات الهامة فى الدولة ، واعتقد أن هذا الجمع الهائل من الدارسين خير شاهد على استقلال جهاز ومدرسة المخابرات بعيداً عن أى تبعية أجنبية . وكان المعهد يستعين بأساتذة الجامعات المصرية فى تدريس المواد المدنية التى لها صلة بالعلوم الاستراتيجية كل فى تخصصه مما ساهم بشكل أساسى فى إقامة البناء كاملاً على أكتاف المصريين فقط سواء كانوا عسكريين أو مدنيين .

مهمـــــة فى تركيـــــا

بعد جلاء القوات المعتدية عن الأراضى المصرية أخطرت بأننى سأعمل فى تركيا . وهى منطقة شديدة الحساسية بالنسبة للسياسة المصرية آنذاك لأنها كانت إحدى دول حلف بغداد (الحلف المركزى) الذى يتبناه الغرب وأمريكا فى الشرق الأوسط بغرض الانفراد به بعيداً عن سياسة التحرر التى كانت تحرض مصر عليها باقى الدول العربية .

وكانت السكرتارية الدائمة للحلف مقرها تركيا . كما كان لتركيا علاقات دبلوماسية مع إسرائيل وحدود مشتركة مع كل من الاتحاد السوفيتى وإيران وسوريا والعراق . ولها علاقات وطيدة مع إيران والعراق زميلتيها فى حلف بغداد ولها سياسة وعلاقات متقلبة مع سوريا لموقفها الرافض لحلف بغداد وعلاقة الشك وعدم الاطمئنان مع الاتحاد السوفيتى

ومصر بحكم أهدافها الاستراتيجية حينذاك كانت لها علاقات طيبة مع سوريا والاتحاد السوفيتى ، وعلاقات شبه عدائية مع حليفتى تركيا إيران والعراق .

وفوق كل ذلك كانت علاقة تركيا وثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية ، التى ورثت الاستعمار القديم فى الشرق الأوسط وكان لها قواعد عسكرية فى تركيا وهى من أكبر المحرضين والمباركين لنشر فكرة حلف بغداد على أساس سياسة احتواء الاتحاد السوفيتى Policy of containment . وتركيا

فى نفس الـوقت دولة إسـلامية لها روابط إسـلامية وعرقية وتاريخية مع مصـر والعـالم العربى . فى نفس الوقت كانت مفتوحة سياسـياً واقتصـادياً وتمثيلاً مع عدوتنا وعدوة العرب إسـرائيل وشـعب تركيا المسـلم يسـهل تفاهمنا وتعاملنا معه رغم المظهر العدائى للحكومة التركية حينذاك بالنسـبة للعرب بصـفة عامة ولمصـر بصفة خاصـة .

وليس أدل على مدى عمق العـلاقة الإسـلامية بين تركيا ومصـر من هذه القصـة التى رواهـا لى المـلحق العسـكرى المصـرى فى تركيا فى ذاك الوقت زكريا العـادلى إمـام قال « إنه قبل العدوان الثـلاثى بمدة عندما كانت فرنسـا وانجلترا تتحفـزان وتهـددان مصـر على أثـر تأميم قناة السـويس كان لزكريا العـادلى صـديق تركى يشـغل مركزاً هامـاً بالأمن التركى العـام .

وصـلت معلومـات لهذا المـوظف الـتركى الكبـير بحكم وظيفتـه تؤكـد استعدادات فرنسـا وانجلترا لشـن هجوم على مصـر وان مناطق وطوابير التجمع للغـزو العـدوانى متجمعـة فى قاعـدة قبرص . ذهب الصـديق التركى بعد منتصـف الليـل إلى منزل ملحقنا العسـكرى فى تركيا وأبلغه بتفاصـيل هذه الاستعـدادات شـعوراً بانتمائه الإسـلامى الذى يحتم عليه إعانة ومسـاعدة إخوانه المسـلمين فى مصـر ودون أى مقابـل » . كذلك كنا جميعاً نعلـم مدى تدفق المتطوعين الأتراك على القنصـلية المصـرية . والسـفارة فى تركيا للمسـاهمة فى مقاومة العدوان الثـلاثى .

الواجبـات

عملت فى تركيا كمستشـار صـحفى فى سـفارتنا وكان لى مكتب صـحفى فى اسـتانبول ، بالإضـافة إلى مكتبى الصـحفى فى العاصـمة أنقره . وبدأت العمل فى ٥ أغسـطس سنة ١٩٥٧ وكان المطلوب منى :

(أولاً) العمل داخل إسرائيل نفسها عن طريق العلاقات المفتوحة بين تركيا وإسرائيل .

(ثانياً) مراقبة النشاط الاقتصادى والسياسى والاستراتيجى الإسرائيلى فى تركيا ومدى علاقة إسرائيل العسكرية بحلف بغداد .

(ثالثاً) مراقبة نشاط حلف بغداد وبخاصة ما له تأثير على سياسة مصر ومدى علاقة حلف بغداد بالسياسة العربية ونشاط وتفاصيل قواعد الحلف العسكرية وبالذات سكرتارية الحلف الدائمة فى تركيا .

أهمية التزود بالمعلومات

كالعادة . وكمبدأ فى عملى فقد زودت نفسى بكثير من المراجع عن تاريخ تركيا القديم والحديث ، وقمت فى نفس الوقت بالحصول من وزارة الخارجية ، ومن أرشيف المعلومات بالمخابرات على كل ما يخص حلف بغداد والحلف المركزى وعلاقة تركيا بإسرائيل . وأمضيت فترة الاستعداد للعمل بتركيا بالاطلاع بدقة على هذه المصادر .

عملت فى تركيا فى وظيفة سكرتير صحفى بالسفارة المصرية . أنشأت مكتباً صحفياً بالسفارة بأنقرة وآخر فى استانبول إسلام بول (أى موطن الإسلام) ، وهى ميناء تركى هام وكانت عاصمة الدولة العثمانية قبل أنقرة . وطدت صلتى بالمراسلين الأجانب وبرؤساء تحرير الصحف ووكالات الأنباء المحلية والأجنبية . ونظمت إصدار نشرة أخبار أسبوعية أحلل فيها سياسة مصر إزاء كل ما يصدر من الحلف المركزى ، وإزاء مواقف مصر فى مواجهة هذا الحلف بأسلوب تحليلى وقد حازت هذه النشرات رضى كل من كانت توزع عليهم من المواطنين الأتراك والعناصر الديبلوماسية .

تسلمت عملى فى تركيا فى ٥ / ٨ / ١٩٥٨ ووثقت صلتى بالتنظيمات الوطنية التركية المعادية لإسرائيل بحكم أوضاعها الدينية (الإسلامية وكان أهمها جمعية مكافحة الصهيونية التى كان يرأسها الجنرال التركى المتقاعد المرحوم جواد رفعت أتلهان . وكان فى شبابه ضابط مخابرات القائد التركى جمال باشا (الشهير بالسفاح) فى سوريا . وكان له العديد من المؤلفات ضد الصهيونية والماسونية ، علاوة على كتبه التى ألفها عن الدوّنما وكان له الفضل فى أنه أعطانا تفاصيل هذا التنظيم الصهيونى فى تركيا وفى معظم البلدان الإسلامية والعربية .

وعن طريق الجمعيات المناهضة للصهيونية أمكن تجنيد عدد لا بأس به من الشباب التركى كانوا يقومون لحسابنا بالسفر إلى إسرائيل ، ويحصلون لنا منها على المعلومات . أو يجيبون لنا عن الاحتياجات التى كانت تطلب منا من رئاسة المخابرات فى مصر . ويقومون بمأموريات سرية .

كذلك عن طريق البلاد التى لها تمثيل ديبلوماسى فى إسرائيل وتركيا ، تعاونت مع كثير من العناصر الديبلوماسية الأجنبية فى مثل هذا العمل . كما تم تجنيد بعض الصحفيين الأتراك والمصورين الصحفيين .

الجالية العربية

يوجد فى تركيا جالية عربية كبيرة جداً خصوصاً من العراقيين والسوريين والأوروبيين ومعظمهم من الطلبة الذين يدرسون فى جامعات تركيا . وتوجد مصاهرات بين العرب والأتراك . هذه الجالية الكبيرة من الطلبة تعرفت عليها عن طريق الملحق العسكرى المصرى المرحوم زكريا العادلى ، وكان يسبقنى فى العمل بتركيا بمدة طويلة . وقد أثثت وخصصت لهم صالة كبيرة بمكتبى كناد لهم . كانوا يترددون عليه كثيراً ويقيمون فيه حفلاتهم الوطنية وبذلك

ازدادت أعدادهم حتى كان هذا النادى فى وقت ما يجمع الطلبة العرب وبعض العرب العاملين فى تركيا . وعن طريق هؤلاء ومعارفهم من شباب الأتراك أمكن تكوين شبكة معلومات لا بأس بها . للعمل داخل تركيا وخارجها وكان هدفنا الرئيسى العمل على إسرائيل التى لها تمثيل ديبلوماسى مع تركيا وعلاقات اقتصادية متشعبة . وكان الطلبة العرب بتركيا يتميزون بوعى وطنى وقومى على مستوى عال بصرف النظر عن اتجاهاتهم العقائدية أو اتجاهات حكوماتهم ، وكانوا يؤيدون على طول الخط سياسة مصر ويتباهون بالانتماء إليها بشكل أو بآخر .

الجمعيات الإسلامية

حضر الزميل أبو المكارم عبد الحى فى زيارة لتركيا ، وزارنى هو وأسرته . وهو ضابط سابق ومن الوطنيين الذين كانوا ينتمون إلى جمعية الإخوان المسلمين ، وكان قد صدر عليه حكم فى قضية الإخوان وظل هارباً بالدول العربية مدة طويلة . ولشدة غيرته على بلده وقومه عرض على التعاون فى تعريفى بأهم رجال ورؤساء الجمعيات الإسلامية التركية بحكم صلاته الدينية بهم . وقد أمكن الاستفادة بأعضاء هذه الجمعيات فى العمل ضد إسرائيل .

المياه الثقيلة

كانت قد وصلتنى معلومات غير مؤكدة أن لإسرائيل أبحاثاً فى مجال المياه الثقيلة التى تستخدم فى صنع القنبلة النووية من الهيدروجين . وكان المطلوب التأكد من ذلك ومدى ما وصلت إليه إسرائيل من أبحاث فى تصنيع هذه القنبلة النووية .

أمكننى الاتفاق مع المندوب « فاوست » (الاسم الكودى) وهو شاب

تركى خريج كلية العلوم وله معرفة بأحد الدروز بإسرائيل وهو زميل دراسة فى إحدى الحلقات العلمية فى فترة من الفترات ويعمل فى مركز البحوث بمعهد رحبوت الإسرائيلى .

سافر المندوب « فاوست » إلى إسرائيل وأمكنه الاتصال بالعالم الدرزى الإسرائيلى الجنسية . وكان فاوست يتجول فى إسرائيل بصفته سائح ضمن وفد سياحى تركى . أمكنه بعد الاتصال بصديقه الدرزى وبالمناقشات العلمية أن يحفظ فى الذاكرة عن ظهر قلب جميع المعلومات التى استنتجها من الأحاديث واكتفى بكتابة بعض رموز قليلة فى صفحات متفرقة فى نوتة التليفونات الخاصة به لتساعده على تذكر هذه المعلومات .

وعندما عاد إلى تركيا أمكنه وضع تقرير مفصل عن بعض المطلوب منه بعد إعادة تجميع كل ذلك من واقع الذاكرة وما دونه من رموز . وكانت عبارة عن معادلات كيمائية لمشروع تحضير المياه الثقيلة فى إسرائيل .

وقد أمكن استكمال هذه المعلومات من مندوب آخر أجنبى . أما مندوب (فاوست) فقد تكررت زياراته على فترات متباعدة لإسرائيل للحصول على معلومات أخرى ذات أهمية علمية واستراتيجية طلبت الرئاسة منى الحصول عليها وكانت على شكل أسئلة علمية فنية محددة .

المقايضة

قبل ظهر أحد الأيام وكنت بمكتبى بأنقرة اتصل بى القنصل المصرى باستانبول الزميل خيرى العيوطى ، وطلب منى ضرورة الحضور إليه فى استانبول بأسرع ما يمكن لأن لديه موضوعاً لا يحتمل التأخير . سافرت بالطائرة ووصلت إلى مكتب القنصلية المصرية قبل الغروب . ووجدت

القنصل فى مكتبه . نادى القنصل المصرى على شخص كان ينتظر بالغرفة المجاورة وعرفنى به وهو يونانى الجنسية وكانت ملابسه متواضعة جداً ويتكلم اللغة الانجليزية ببطء ولكنه مفهوم .

وكان يضع يده اليمنى بصفة دائمة فى جيب بنطلونه . أفهمنى القنصل أنه منذ وصوله لم يخرج يده من جيب بنطلونه ويشك فى أنه يحمل سلاحاً يخفيه فى جيب بنطلونه . وأفهمنى أيضاً أنه حضر بخصوص مهمة مكلف بها من تنظيم يسارى فى اليونان لتوصيل معلومات فى غاية السرية إلى أى من القنصليتين المصرية أو السورية (وكانت القنصلية السورية فعلاً تشغل شقة فى نفس مبنى القنصلية المصرية وفوقها وكان وقت الوحدة مع سوريا) .

وناديت الزائر اليونانى وأمرته مبدئياً أن يخرج يده اليمنى من جيب بنطلونه . والمفاجأة أنى وجدت أن ساعده الأيمن بدون كف وبرر ذلك بأنه فقدها أثناء مقاومة المظليين الألمان فى معركة كريت فى الحرب العالمية الثانية .
وبدأ حديثه بعد أن اطمأن بعض الشىء وقال إن هناك فى اليونان تنظيماً أمريكياً بريطانياً يقوم بتوصيل الهاربين المجريين أنصار إمرى ناجى (الزعيم المجرى ١٩٥٦ أثناء العدوان الثلاثى على مصر) وكان رئيس وزراء المجر فى وقت حركة المجر المعادية للاتحاد السوفيتى . ولكن اتباع إمرى ناجى ورؤساء التنظيمات السرية المجرية المناهضة للشيوعية وللاتحاد السوفيتى وفى أنحاء متفرقة ومعروفة على حدود المجر هاربون من بطش السلطات السوفيتية .
وقال أيضاً إن هناك تنظيمات ومنظمات أخرى مناهضة خارج المجر وخصوصاً فى يوغوسلافيا واليونان ، وتقوم بالتعاون مع التنظيم الأمريكى البريطانى فى مساعدة العناصر المجرية الثائرة والهاربة فى عبور الحدود اليوغوسلافية ثم إلى اليونان لانقاذهم من بطش السلطة الحاكمة فى المجر .

وأضاف الزائر أنه عضو فى الحركة اليونانية اليسارية ، ومكلف بتبليغ السفارة الروسية بتركيا عن طريق القنصل المصرى أو السورى كل هذه المعلومات الاولية وقد حذره التنظيم التابع له من الاتصال المباشر بالسفارة أو القنصليه السوفيتية وأن عليه فقط تبليغ قنصيلتى مصر أو سوريا لتقوم إحداهما بتوصيل هذه المعلومات إلى سفارة الاتحاد السوفيتى .

وأفادنى أيضاً أن لديه باقى المعلومات التفصيلية عن هذا التنظيم الانجلو أمريكى فى مدينة قوله اليونانية حيث يقيم وأن هذه المعلومات فى وثائق فيها جميع أسماء وعناوين اعضاء المنظمة الانجلو أمريكية وأماكن التسرب على الحدود وقال إنه ينتظر وصول أحد المصريين لاستلام هذه الوثائق ليسلمها بدوره إلى سفارة الاتحاد السوفيتى بأنقره .

وعدت الزائر اليونانى بأننى سأقوم بالاتصال به فى « قوله » فى أقرب وقت وغادر هو مبنى مكتب القنصلية عائداً إلى بلاده على أساس أننى ساسلم هذه المعلومات الى الاتحاد السوفيتى ولكن اشترطت عليه ألا أسلمها إلا بعد الحصول على التفاصيل منه . سافرت فى اليوم التالى إلى اليونان ومعى مساعدى الزميل سعد وفا ، وتقابلنا مع الزائر اليونانى فى منزله فى « قوله » .

وكان يقطن فى أعلى منزل قديم بحجرة متواضعة بالسطح واستلمت منه جميع الوثائق وعدت إلى أنقره ، وبفحص الوثائق بدقة وجدت بها معلومات مفصلة عن التنظيم الانجلو أمريكى ورئاسته فى القنصلية الأمريكية فى اثينا وموقعه فى يوغوسلافيا ومناطق التسلل عبر الحدود اليوغوسلافية المجرية ومراكز تجمع الهاربين داخل وخارج يوغوسلافيا وأسماء أفراد ومندوبى التنظيم الانجلو أمريكى وبعض أسماء المجريين المهمين المطلوب تهريبهم وأسلوب ووسيلة تسللهم لاجتياز الحدود عبر يوغوسلافيا .

وتبين لى من مجمل المقابلة والمعلومات التى معى أن الحزب الشيوعى اليونانى هو الذى قام بتجميع هذه المعلومات الدقيقة عن طريق مندوبين له داخل التنظيم الانجلو أمريكى ولشعوره بأنه مراقب من سلطات الأمن اليونانية المخالفة مع الأمريكان فقد تعمد أن يكون توصيل هذه المعلومات إلى الاتحاد السوفيتى عن طريق طرف ثالث مصرى أو سورى وفى دولة غير اليونان وهى تركيا ، وأن الشخص اليونانى (المندوب الزائر) بحالته المتواضعة ولمعرفته اللغة الإنجليزية قد يكون أنسب الأشخاص لتغطية هذه العملية . قررت الإستفادة لحساب مصر من هذه المعلومات وتأجيل تسليمها إلى الاتحاد السوفيتى . واجتمعت مع الملحق العسكرى المصرى الزميل زكريا العادلى إمام واطلعته على الموضوع وكان التعاون بيننا على ما يرام . قسمت كمية المعلومات بينى وبينه واتفقت معه على أن يُعطى هو هذه المعلومات على دفعات وفترات متتابعة إلى الملحق العسكرى السوفيتى وأنا أعطى للمستشار الصحفى التشيكى نظير تكليفهما بالحصول لنا على معلومات سرية للغاية ومطلوبة لمصر عن أدق الاستعدادات والأسرار الإسرائيلية وكان لدى كثير من هذه الاحتياجات . على أن تكون المقايضة جزءاً جزءاً بحيث عندما تصلنا معلومات صحيحة نعطى الجزء التالى مقابل طلب آخر وهكذا (الاحتياجات هى المعلومات المطلوب الحصول عليها عن العدو بأسلوب أو بآخر) . وكان المطلوب منى لرئاستى معلومات فى غاية الأهمية بالنسبة للكتلة الشرقية فقد قايضنا عليها بهذا الأسلوب .

تقابلت أنا والملحق الصحفى التشيكى وكان لى به صداقة ومعرفة وأعطيته جزءاً من المعلومات على أن يوافينى بكل ما هو مطلوب عن أبحاث المياه الثقيلة الإسرائيلية . ولا يمكن تصور مدى السعادة التى ظهرت على وجه الملحق الصحفى التشيكى عندما تسلم منى المعلومات فقد شد على

يدى وأبـدى اسـتعـداده الكـامـل لتلبيه طلبى . كذلـك أبلغنى الملحق العسـكرى المصـرى أن الملحق العسـكرى السـوفيتى الجنرال العجوز وكان من أبـطال الحـرب العـالمية الثانية كان فى غاية السـعادة وأخذ يقبل الملحق العسـكرى المصرى عندما تسـلم هذه المعلومات .

بعد يومين بالضبط وبسـرعة غير متوقعة حضـر لى المـلحق الصـحفى التشيكى وبابتسـامة عريضـة سـلمنى مجموعة أوراق مكتوبة بالآلة الكـاتبة باللغة الإنجليزية . أخذت أقـرأها بتمهل فى حضـوره وتذكرت أثناء القراءة أننى سـبق وقرأت مثل هذه المعلومات عن أبحاث المياه الثقيلة الإسـرائيلية من أحد المراجع العـلنية وبنفس الألفاظ والمعلومات تقريباً . وسـريعاً تذكرت أن ذلـك جاء فى الكتاب السـنوى لإسـرائيل المطبوع والذى نحصـل عليه كل سـنـة من الجناح الإسـرائيلى فى معرض أزمير الدولى وبمنتهى السـهولة لأنه كتـاب دعـاية عن منجـزات إسـرائيل فى جميع المجـالات Year Book وتقوم إسـرائيل بتوزيعه على كل من يطلبه وأخرجت الكتاب السـنوى الإسـرائيلى من رف المكتبة وقلبت إلى أن وجدت الجزء الخاص بأبحاث المياه الثقيلة من واقع نشـاط معهد أبحاث رحبوت الإسـرائيلى واسـتعدت قراءة السـطور بسـرعة ووجدتها منقولة فى الأوراق التى تسـلمتها من المـلحق التشـيكى دون حتى تصـرف معقول .

انتبـه المـلحق التشـيكى فجأة أثناء شـربه القهوة ووجدنى أقوم بعملية المضـاهاة وفهم الموقف . تلعثم فى الكـلام وأنا صـامت تمامـاً وأنظر إليه فى لوم صـامت أيضـاً . وتمالك نفسـه وقال ضـاحكاً : إنه لم يكن يتصـور أبداً أن مثل هذا الكتاب الإسـرائيلى فى حوزتنا ووعد أنه مسـتعد لتصـحيح الغلطة . ونصـحته بإعادة النظر عند تقدير مسـتوانا كعرب متعلمين وبالطبع لم أسـلمه أى كمية أخـرى من المعلومات ولكنه بعد عدة أيام عاد سـعيداً ومعه تقرير

حقيقى عن أدق المعلومات عن أبحاث المياه الثقيلة فى إسرائيل . وأفهمته أنها معلومات صحيحة وقيمة حيث أن لدى بعضاً منها من مصادر أخرى . وعن طريق هذا الملحق الصحفى التشيكى أمكننى الحصول بعد ذلك عن طريق المقايضة أيضاً على معلومات كثيرة وأخرى عن إسرائيل . وكان الفرق بينى وبينه أن المعلومات التى أحصل عليها أقايض عليها بمعلومات كان من المفروض أن تصل إليهم إن آجلاً أو عاجلاً من مندوبيهم الشيوعيين فى اليونان . وبنفس الأسلوب والطريقة أمكن الملحق العسكرى المصرى زكريا العادلى إمام أن يحصل من الجنرال السوفيتى العجوز على كل ما كلفه به وبنفس أسلوب المقايضة .

وبعد مدة كشف الاتحاد السوفيتى اللعبة حيث وصلته أخبار العملية عن طريق الحزب الشيوعى اليونانى .

وقام السفير السوفيتى فى القاهرة بتكليف من حكومته بالاتصال بالرئيس عبد الناصر وأبلغه بكل شىء عن لعبتنا هذه ، وقام السيد على صبرى وزير شئون رئاسة الجمهورية وقتها بإرسال خطاب لى وللملحق العسكرى زكريا العادلى فيه لوم حيث كان علينا أن نرسل مثل هذه المعلومات إلى القاهرة للتصرف فيها على أعلى مستوى بين مصر والاتحاد السوفيتى . ولم يكن اللوم منصباً على الطريقة ولكنه كان يشير إلى مكاسب أكبر لو أن اللعبة تمت على أعلى مستوى .

المعلومات والفودكا

أثناء فترة تبادل المقايضة مع الاتحاد السوفيتى والسفارة التشيكية بأنقرة بخصوص معلومات المجر . دعيت إلى حفل أعياد أكتوبر فى سفارة الاتحاد السوفيتى بأنقرة . وقرب نهاية الحفل وكان أغلب الحاضرين من رجال

السلك الديبلوماسى فى تركيا فى حالة سكر . لاحظت حلقة كبيرة من رجال السفارة الروسية والكتلة الشرقية يحيطون بسيدة أمريكية رأيتها فى هذا الحفل لأول مرة فى تركيا وعلمت بعد الاستفهام أنها القنصل الأمريكى الجديد الذى وصل حديثاً من القنصلية الأمريكية بيوجوسلافيا للعمل بالقنصلية الأمريكية فى تركيا . وكانت السيدة الأمريكية فى حالة سكر بين وتتكلم بصوت مرتفع . وانضممت للحلقة المحيطة بالسيدة وكانت بدأت تفقد السيطرة على لسانها وتخوض فى الكلام عن عملية هروب كثير من زعماء حركة المجر وبعض تفاصيل عن حركة هروبهم .

تأكدت فى هذه اللحظة أن المعلومات السابق حصولى عليها هى مجال الحديث من أسئلة الروس بهذه السيدة المخمورة والتى كانت على علم بعملية مساعدة الهاربين من المجر عبر يوغوسلافيا التى كانت تعمل بها قبل حضورها إلى تركيا . كما وضح أن الروس لم يكن لديهم فى هذه اللحظة أكثر مما أعطيتهم . كما لاحظت أن هناك سيدة أخرى من عيون المخابرات الأمريكية كانت تراقب هذه الحلقة عن كثب لأنى علمت فى اليوم التالى أن الأوامر صدرت بنقل السيدة الأمريكية المستهترة من القنصلية العامة الأمريكية بأنقرة .

وثائق مكتب الاتصال الأمريكى بالحلف المركزى

فى يوم وأنا بمكتبى بأنقرة قرأت إعلانات الصحافة التركية عن بيع سيارة شيفروليه جديدة يملكها أمريكى ويشترط أن يكون المشترى من السلك السياسى (لأن البائع الأمريكى إذا باع عربته بالليرة التركية بمبلغ تركى كبير يمكن تحويل هذا المبلغ الضخم بالسعر الرسمى للدولار الأمريكى ويحصل على مبلغ مجز جداً لعربته قد يفوق ثمنها الأصلى وهى

جديدة بكثير) أحسست أن الصفقة بهذه الطريقة ستكون مجزية لى بشكل أو بآخر وبدأت العمل فاتصلت بالبائع الذى حضر وهو يقود السيارة بنفسه وخلفه زوجته تقود عربة أخرى ، وفهمت أنه على علاقة برئاسة الحلف المركزى .

أتممت الصفقة ووقعنا على العقود أملاً فى كسب صداقته وخرج لينزع اللوحة المعدنية من العربة وأثناء انهماكه بفك اللوحات المعدنية ترك مظروفاً ضخماً به أوراق على ظهر العربة . وانتابنى شعور بأنها أوراق هامة أشرت إلى مساعدى سعد وفا ليقوم بإخفائها داخل ملابسه وعند انصراف الأمريكى مع زوجته دخلنا المكتب بسرعة ووجدنا أن محتويات المظروف كلها مكاتبات سرية للغاية وهى مكاتبات متبادلة بين مكتب الاتصال الأمريكى بالحلف المركزى بتركيا وبين سكرتارية الحلف المركزى فى تركيا مما أكد أن البائع الأمريكى نفسه يعمل بمكتب الاتصال الأمريكى . وتصرفنا بسرعة فى محتويات المظروف وبدأنا فى تصوير الأوراق ولكن البائع الأمريكى عاد قبل الانتهاء من عملية التصوير وأنكرنا معرفة أى شىء عن المظروف ونصحناه بالبحث فى الطريق لعله تركه على ظهر عربة زوجته قبل أن يغادرنا وسقط منه أثناء الطريق .

وللمرة الثانية أخذنا نستكمل عملية التصوير ووضعت الأصل فى مظروف أودعته فى نفس الليلة مع بريد الحقيبة الدبلوماسية للسفارة ليرسل إلى رئاستى بالقاهرة . ومن الاطلاع الثانى على صورة الوثائق التى تم تصويرها ومن خطاب الشكر الذى وصلنى من القاهرة عن هذه الصفقة الموفقة علمت أن هذه الوثائق ذات نفع كبير جداً حيث كان بها معلومات سرية للغاية عن خفايا حلف بغداد وعن السيطرة الأمريكية على الدول المشتركة فى هذا الحلف رغم أنها كانت مراقباً فقط فى هذا الحلف . وبالوثائق

مخطط كامل لضمان استمرار دول الشرق الأوسط حديثه الاستقلال تحت السيطرة الاستعمارية بأسلوب جديد هو أسلوب الاستعمار الجديد Neo - Colonialism وقد جاء بهذه الوثائق تقرير خاص عن سوريا واستلامها للأسلحة السوفيتية أخيراً وتوصيات مكتب الاتصال الامريكى إزاء ذلك بتحريض دول الحلف المركزى لمواجهة هذا الخطر السورى بأسلوب إيجابى .

تحرش الحلف المركزى بسوريا

جاء بإحدى الوثائق التى حصلنا عليها بعد خطف مظروف ضابط الاتصال الأمريكى بالحلف المركزى تحريض واضح لدول الحلف المركزى للتحرش بسوريا كنتيجة لحصولها على صفقة أسلحة « شرقية » اعتقاداً من أمريكا بأن سوريا حقل ممهد لانتشار الشيوعية . كانت هذه المعلومات عامة وليس لدينا أى معلومات أخرى تبين شكل وماهية هذا التحرش . وعقب ذلك مباشرة حضر جنرال تركى أسمر اللون لدرجة أننى أعتقدت لأول وهلة أنه من أصل أفريقى وتعجبت حينها وجدته لا يتكلم إلا التركية ، وبعض كلمات عربية لأنه يحفظ بعض آيات القرآن الكريم .

هذا الزائر كان خال المترجم التركى الذى يعمل معى بالمكتب والذى حضر معى للمساعدة فى أعمال الترجمة حيث ان والده كان تركياً يعمل بالحكومة المصرية مترجماً أيضاً ووالدته تركية من أم سودانية وهذا هو شقيقها الجنرال الذى يقيم بتركيا ، وأثناء تقديم القهوة بحضور ابن شقيقته يلماز المترجم علمت أن خاله يشغل قيادة إحدى فرق الجيش فى الجبهة الشرقية التركية المتاخمة للحدود السورية وأن جميع وحداته فى حالة طوارىء وأنه بالكاد أمكنه الحصول على إجازة عدة أيام ليرى أسرته فى أنقرة ويعود بعدها

للجبهة . وعلمت أنه عند وصوله لمنزله من الإجازة علم أن يلماز قد قام فى الأيام السابقة وهو موجود بالجبهة بزيارة الأسرة وأعطاهم خطاباً مرسلاً له من شقيقته والدة يلماز لرد الزيارة وإعطائه خطاباً لوالدته .

وتدرج الحديث حتى علمت أن السلطات التركية قامت أخيراً بإرسال تعزيزات ضخمة لوحدات الجنرال على الجبهة الشرقية على شكل حشود وأن كل الوحدات هناك فى حالة طوارىء . جاء حديث هذا الجنرال الطيب مؤكداً أن هناك حشوداً تركية غير عادية على حدود سوريا وأرسلت تقريراً عاجلاً بذلك مشيراً إلى استكمال معلومات الوثيقة الأمريكية وكان هذا التقرير العاجل تأكيداً لمعلومات أخرى وصلت القاهرة من مصادر أخرى عن تزايد مثل هذه الحشود من جيش العراق على الحدود السورية العراقية . عقب ذلك قامت حملة سياسية إعلامية موجهة من مصر عن هذه الحشود بعد أن تأكدت الأخبار على أساس اعتقاد الغرب أن سوريا أصبحت أداة فى يد الاتحاد السوفيتى فى منطقة الشرق الأوسط .

وقد قامت روسيا بحملة سياسية دعائية فى نفس الوقت ، واتهمت تركيا بأنها تعمل على مساندة الولايات المتحدة فى التدخل فى شئون سوريا الداخلية . وأعلنت مصر بياناً يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٧ أعربت فيه عن وقوفها بجانب سوريا ضد أى اعتداء يقع عليها . وقامت مصر فى منتصف أكتوبر سنة ١٩٥٧ بتحريك بعض وحداتها العسكرية إلى سوريا عن طريق ميناء اللاذقية لتقف بجانب القوات السورية . وكان هذا التصرف من مصر بمثابة المشاركة مع سوريا فى أزمتها كما أنه قد حرك مختلف العناصر السياسية السورية وعلى رأسها ضباط الجيش السورى للتعجيل بالوحدة مع مصر .

السوفيت ووحدة مصر وسوريا

فى أول فبراير سنة ١٩٥٨ حضرت حفلاً كبيراً فى السفارة الإيرانية ،
وجودى فى حلقة من الحاضرين تجمع القائم بالأعمال السوفيتى (كان الـ
فى أجازة) ومستشار السفارة السورى والمستشار الصحفى العـ
وسكرتير من السفارة البريطانية ، اندفع مستشار السفارة الإيرانية ليند
للحلقة ، ويعلن أنه سمع لتوه أنباء إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ا
صدر من القاهرة وفى الحال تعانقت مع مستشار السفارة السورية وتبـ
التهانى . وأخذت التعليقات تتوالى من الحاضرين على هذا الخبر المثير .

وفجأة انفجر القائم بالأعمال السوفيتى مهاجماً هذه الوحدة ، وتنبـ
بكثير من المتاعب مع البلدين وأجبته بأن دولتى الوحدة لا يهمهما رأى
سواء بالتأييد أو الرفض وأننى كمصرى أعرف جيداً رأى الاتحاد السو
المعادى للقوميات ، ولكن هذا رأيهم ولنا أيضاً رأينا الخاص المخالف . و
هذا الرد المنفعل من القائم بالأعمال السوفيتى بشكل متسرع ليفصح
أن علاقة مصر وسوريا بالاتحاد السوفيتى سوف يطرأ عليها بعض الـ
خصوصا وأن التنظيمات الشيوعية فى سوريا كانت تحت ظل النظام
الوحدة تعتبر من أقوى التنظيمات الشيوعية فى العالم العربى وأن وحدة سـ
مع مصر سوف تضعف هذا التنظيم إن لم تكن ستقضى عليه وذلك
وجهة نظر الاتحاد السوفيتى .

وبالطبع أرسلت ملخصاً لهذا الحديث إلى القاهرة وفعلاً بعد ذلك بـ
وأثناء الوحدة مع سوريا ، انعكس عدم رضى الاتحاد السوفيتى كدولة
الوحدة مع مصر على الشيوعيين العرب بصفة عامة وعلى الشيوعيين فى سـ
بصفة خاصة وأصبح لهم موقف شبه عدائى من الوحدة مما جعل الرئـ

عبد الناصر يعاملهم بحزم أدى إلى فتور العلاقات مع الاتحاد السوفيتى لفترة ما .

استقبال لائق بأعضاء الحلف المركزى

قبل انعقاد اجتماعات إحدى دورات حلف بغداد فى تركيا كانت هناك استعدادات كبيرة حيث إن وزير خارجية أمريكا فوستر دالاس كان سيحضرها . وجاءنى قبل هذا الاجتماع أحد الشبان الأتراك المنتمين إلى إحدى الجمعيات الإسلامية التركية المتعاونة معنا ، وطلب المعاونة فى الحصول على مواد نسف وأجهزة زمنية ، وقال : إنه سوف يستخدمها ضد بعض منشآت دول حلف بغداد لأنه يعتبر هذا الحلف قائماً لمحاربة المسلمين . ودبرت له ما يطلبه . ويوم وصول وفود الدول الأعضاء إلى أنقرة وعلى رأسهم وزير خارجية أمريكا فوستر دالاس . وأثناء وجودى مساء بالمنزل مع بعض الضيوف السوريين سمعنا صوت انفجار شديد فى سماء أنقرة . وبعد ساعة أخرى سمعنا انفجاراً آخر بنفس الشدة وخرج الضيوف للشرفة وتعددت تخميناتهم عن ماهية هذه الانفجارات . وأثناء الليل حتى الصباح حدثت ثلاثة انفجارات أخرى بنفس الشدة .

صدرت الصحف التركية فى الصباح وبها وصف تفصيلى لهذه الانفجارات وأماكنها ، وقد دمّر أحدها وهو الأشد تأثيراً السفارة الأمريكية تدميراً كاملاً وعلى مقربة من مكان مبيت دالاس وآخر بجوار مكتب الاستعلامات الأمريكى الذى دمر معظم غرفه ومحتوياتها وثالث بجوار لوحة دعاية السفارة الإيرانية ورابع بمكتب الاستعلامات البريطانى وخامس داخل سور السفارة العراقية .

وكانت الأخبار مصحوبة بالصور التى تبين مدى الخسائر وكلها كانت

خسائر فى المنشآت فقط . بعد تلك الانفجارات اتخذت السلطات التركية ترتيبات أمن مشددة على مكان اجتماع الحلف وعلى منشآت وسفارات الدول أعضاء الحلف المركزى والدول الدافعة له . وعلقت الصحف التركية أيضاً أن الشبهات تحوم حول المنظمات الشيوعية السرية التركية (مع أن هذه المنظمات كانت بريئة من هذا العمل) وقامت السلطات التركية باعتقالات واسعة وعملية تفتيش على أوسع نطاق . وفشل اجتماع الحلف المركزى حيث عاد دالاس كما جاء وكانت هذه هى آخر حلقات هذا الحلف حيث إن انقلاباً قد حدث فى العراق بعد ذلك بفترة وجيزة .

محاولة خطف الملك طلال

أثناء عملى بتركيا صدر إعلان فى أول مارس سنة ١٩٥٨ عن قيام وحدة بين الدولتين العربيتين العراق والأردن ، والمرتبطتين بشكل أو بآخر بالحلف المركزى ، وهما ذات نظام ملكى .

كان هذا الإعلان فى ظاهره تحقيق وحدة عربية وفى باطنه يحمل معنى المناوأة للوحدة العربية بين سوريا ومصر ، ومع ذلك فقد اضطررنا إلى مباركة هذه الوحدة على أن أى اتحاد بين أى قطرين عربيين ما هو إلا وحدة فى أى صورة ، ولكن كان على مصر بالذات أن تكشف أهداف هذه الوحدة .

قادنى تفكيرى من هذا المنطلق لوضع خطة لاختطاف الملك طلال من معتقله بتركيا . على أن يعلن بعد ذلك على لسان هذا الملك الشرعى عدم موافقته على هذه الوحدة (الملك طلال هو والد الملك حسين ملك الأردن الذى ساعدته والدته الملكة زين وزوجة الملك طلال فى عزل زوجها الملك طلال بحجة مرضه العصبى وأودعته مستشفيات أمراض النساء فى استامبول كمعتقل دائم له) .

وكان الملك طلال داخل مستشفى الولادة موضوعاً تحت حراسة أحد رجال الياوران الأردنى الضابط صبحى طوقان وهو فلسطينى الأصل . أبلغت رئاستى ووافقت على خطتى وتعاونت مع الملحق العسكرى زكريا العادلى لتنفيذها . أرسل الملحق العسكرى أحد رجاله لمقابلة صبحى طوقان على أنه صحفى مصرى وكان صبحى طوقان حاد الذكاء ، وبسرعة غير متوقعة تجاوب معنا وأثناء حديثه مع مندوبنا أفصح له عن كامل استعداده للمساهمة فى عملية إخراج الملك طلال من تركيا وتسليمه لنا بأية وسيلة نراها وفى أى مكان أو ميناء حيث إنه كثيراً ما يصحب الملك فى نزهات خارج المستشفى تحت مسئوليته هو خصوصاً بعد طول ملازمته إياه .

طلب صبحى طوقان الاجتماع مع المسئولين عن هذه العملية وفعلاً اجتمعنا معه ، واتفقنا على التفاصيل وأجلنا ميعاد التنفيذ بعض الوقت . وكان طلب صبحى طوقان الوحيد منا بعد نجاح هذه العملية هو أن يلجأ سياسياً إلى مصر . ولسوء الحظ فى هذا الوقت بالذات حضر الصحفى المصرى الأستاذ جميل عارف فحام حول المستشفى الموجود بها الملك طلال وأخذ كثيراً من الصور بآلة التقريب Telephota من خارج المستشفى كما أحدث بعض النشاط الصحفى المريب حول المستشفى ، ثم صدر عدد من مجلة المصور به ريبورتاج بصور تفصيلية عن حياة الملك طلال وحارسه والمحيطين به داخل المستشفى فى صور واضحة ، وكأن الصحفى والمصور كانا مقيمين معه داخل هذا المعتقل الصحى .

لم يكن للصحفى المصرى أى هدف إلا تذكير الرأى العام بمأساة الملك طلال التى طال عليها الزمن ، ولكن الملكة زين المدبرة الأولى لاعتقال الملك طلال انزعجت مما جاء بالمصور وتوقعت وجود مؤامرة . وأرادت التحقيق مع الحارس صبحى طوقان بعد الاشتباه فى أن له يداً فى وصول الصحفى

المصرى لزوجها داخل المستشفى . كنت فى أنقرة وطلبنى صبحى طوفان عن طريق القنصل المصرى فى استامبول حيث إنه تم استدعاؤه للأردن وأنه لا يرغب فى تنفيذ هذا الأمر ويخشى أن تستعدى الملكة زين الأمن التركى لاعتقاله وترحيله إلى الأردن لمحاكمته .

سافرت إلى صبحى طوقان فى استامبول وقابلته بمبنى القنصلية المصرية وأفهمنى أن الملكة زين حضرت بنفسها منذ ساعة وأرسلت فى طلبه وأنه رتب هروب أسرته فى عربة جارتهم الصديقة التركية وحضر هو بعربته الخاصة لاجئاً إلى القنصلية المصرية فى انتظارى . تصرفت بسرعة وكان معى مساعدى سعد وفا . جعلت صبحى طوقان يتصل بزوجته وشقيقته ويأمرها بالسفر بعربة الجارة الصديقة التركية إلى الحدود التركية اليونانية وقمت أنا بعربتى ومعى صبحى طوقان وقاد عربة صبحى طوقان سعد وفا وتوجهنا إلى أدرنة على الحدود التركية اليونانية حيث تم اللقاء مع أسرة صبحى طوقان وكان معهم جميع أوراق السفر وتم خروج صبحى طوقان من تركيا عن طريق اليونان واتفقنا على أن نتقابل فى مكان معين فى أثينا وفى ميعاد معين وعدت إلى استامبول وقبل بدء العودة وجدت الأمن العام التركى منتشراً فى الطرقات فى أدرنة وخارجها حتى نقطة الحدود . ولكن سبق السيف العزل فقد خرج الطير من القفص . وسافرت فعلاً بعد يومين إلى اليونان وقابلت صبحى طوقان وزودته بما يلزم من النقود وجميع ترتيبات السفر بعربته وأسرته إلى القاهرة ودخل لاجئاً سياسياً فى مصر وأقام طول حياته بعد ذلك فى مدينة الإسكندرية وفشلت خطتنا فى مساعدة الملك الشرعى للأردن .

سفارة العراق تعترف بالثورة

فى يوم ثورة عبد الكريم قاسم على النظام الملكى العراقى وعلى نورى السعيد ، كنت أعلم تماماً أن سفير العراق فى تركيا من رجال نورى السعيد

وكذلك كل طاقم السفارة العراقية ومن المتحمسين تماماً لحلف بغداد .
عندما أعلنت إذاعة بغداد نجاح الثورة قام الأمن التركى بعمل نطاق حراسة مشددة حول مبنى السفارة ، ومنع الدخول والخروج إليها ومنها ذهبت بنفسى بعد غروب نفس اليوم لأعرف الأخبار من السفارة ورغم تمتعى بالمزايا الدبلوماسية فقد منعت من الدخول . وفى أثناء عودتى لمكتبى فكرت فى لعبة أقوم بها لصالح ثورة العراق . فقد لاحظت عدم صدور أى بيان من السفارة بالتأييد وصممت على إيجاد وسيلة لاحراج السفارة وبخاصة السفير العراقى ودفعه إلى إعلان التأييد رغماً عنه وحتى بدون موافقته .

ولعلمى أن المستشار الصحفى العراقى نشدت بك يتقن اللغة التركية . جعلت المترجم يلهاز يطلب رئيس تحرير إحدى الصحف التركية الشهيرة تليفونيا ويكلمه على أنه نشدت بك المستشار الصحفى العراقى ويبلغه أن السفير العراقى سيعقد مؤتمراً صحفياً صباح اليوم التالى ليعلن تأييده لثورة العراق . انتهت المكالمة عند هذا الحد ، وحاولنا الاتصال ببعض رؤساء تحرير باقى الصحف التركية ووجدنا الخطوط مقطوعة تماماً ويبدو أن الخبر انتشر بغاية السرعة فى الوسط الصحفى التركى الذى كان متعطشاً لأى جديد حول أخبار ثورة العراق حليف تركيا فى الحلف المركزى ، وتسرب الخبر إلى الأمن التركى وقام بقطع الاتصالات التليفونية لجميع دور الصحف التركية ووكالات الأنباء ولكن الخبر كان قد تسرب إلى إحدى وكالات الأنباء الأجنبية ، التى أبرقت به وبعد ساعتين من بدء العملية استمعنا إلى صدى هذا الخبر فى إذاعة بغداد بأن السفارة العراقية بأنقرة تؤيد الثورة العراقية .

فى صباح اليوم التالى ، وصلتنى أخبار تجمعات كثيرة من مندوبى الصحافة المحلية والأجنبية ووكالات الأنباء حول مبنى السفارة العراقية ،

وخارج نطاق حراسة الأمن المركزى التركى انتظاراً للمؤتمر الصحفى الذى لن ينعقد . وأرسلت تقريراً بكل ذلك إلى القاهرة ليبلغ إلى سفير الثورة العراقية بالقاهرة السيد فائق السمرائى حتى تقف حكومته على حقيقة موقف السفير العراقى فى أنقرة .

الطريق إلى إسرائيل من تركيا

كان مطلوباً منى الحصول على صور تفصيلية لجميع أسلحة إسرائيل فى العرض العسكرى الذى يقام هناك فى أعياد الاستقلال ، ومن عدة زوايا وتطلب ذلك البحث عن مندوب تركى من الوسط الصحفى ، يتقن التصوير الصحفى . وعن طريق الجالية العربية المقيمة فى استانبول أمكننى تجنيد المصور الصحفى التركى « جويد بك » (الإسم الحركى) والذى سبق له زيارة إسرائيل بدعوة من وزارة الاستعلامات الإسرائيلية وكان صديقاً لأحد السوريين المقيمين فى استانبول .

تم الاتفاق معه على الرحلة . وبمناقشته فى الغرض من هذه الصور وهى الوقوف على الجديد فى التسليح الإسرائيلى . وجدت أنه على درجة عالية من كفاءة التصوير لمثل هذه المعدات حيث كان يعمل فى فترة ما مراسلاً عسكرياً فى كوريا مرافقاً للقوات التركية التى اشتركت مع الجيش الأمريكى فى هذه الحرب . وكلفته فى نفس المأمورية بتصوير دفاعات حيفا بعد اختباره لموقع مرتفع هناك يزوره بحجة السياحة . ويصور من هذا الموقع بانوراما كاملة لما حول حيفا ويحاول أن يسجل فى الذاكرة اماكن المواقع العسكريه والدفاعية سواء أرضية أو ضد الجو ليعيد تحديدها على هذه البانوراما بعد عودته . حضر « جويد بك » العرض العسكرى الإسرائيلى وحصل على صور دقيقة من جميع الزوايا لجميع الأسلحة الإسرائيلية المشتركة فى

العرض . كذلك امكنه بعد حضوره ، وبعد تحميض وطبع ما التقطه من صور عن مدينة حيفا من لصق وتوصيل صور متتابعة . على شكل بانوراما كاملة حدد عليها لنا جميع المواقع الدفاعية الإسرائيلية . وبعد ذلك كنا نكلف هذا المصور الصحفى بالذهاب إلى اسرائيل بصفة دورية سنوياً فى ميعاد العرض العسكرى الإسرائيلى ليحصل على صور لما يستجد من تطور أو إضافة للسلاح الإسرائيلى . وكان من أهم المندوبين لدينا وكنت أبالغ فى احتياطات تأمين اتصالاته بنا .

العملية الرباعية

وصلتنى تعليمات من القاهرة أن أقوم بالاتصال بمندوب أوربى يعمل فى إسرائيل كخبير فى تخصصه . وفى نفس الوقت له مؤسسة ناجحة هناك (نظراً لأن هذا المندوب لازال يعمل فى اسرائيل فى تخصصه الأصلى بنجاح فلن أفصح عن جنسيته الأصلية حفاظاً على أمنه فقد أطلقنا عليه اسماً كودياً gite) هذا المندوب سبق له العمل فى اجهزة المخابرات أثناء الحرب العالمية الثانية . تقابل المندوب مع أحد رؤساء مكاتبنا الخارجية فى الدولة الأوربية التى يعمل بها واتفق معه مبدئياً على العمل فى طبيعة تخصصه بعمله فى إسرائيل ليتاح له الوقوف على أسرار ومعلومات ذات قيمة عن فرع للإنتاج الإستراتيجى والحربى فى إسرائيل .

وقد أجل الاتفاق النهائى معه إلى أن يعاد الاتصال به فى اليونان فى فترة محدودة (من يوم وتاريخ كذا فى يوم كذا) فى المنزل الامن (Safe House) لنا هناك وليس فى أحد الفنادق أو فى أحد المحلات العامة .

وتم الإتفاق على أن الشخص الذى يتصل به من مصر حالاً يصل إلى Safe House يسأل عن الاسم (Mr. gite) ، وفى هذا المنزل وبمجرد

سماعهم هذا الاسم gite يتم ترتيب المقابلة باستدعائه تليفونيا
إقامته باثينا . كلفت بهذه المقابلة وقمت بالسفر أنا ومساعدى سع
أثينا ولما وصلنا إلى الـ Safe House.

وبعد مضى اقل من ساعة كان هناك شخص ما يطرق باب
يصحب معه سيدة متوسطة العمر قال مقدماً إياها لنا إنها زوجة
سيدة ذات ملامح جامدة عرفنا بنفسه إنه مستر gite جايت وا
لا حرج من الكلام أمام زوجته مسز جايت فى أى موضوع لأنها تش
كل أعماله . كانت المأمورية التى كلفت بها هى الاتفاق النهائى مع
جايت Gite عن وسيلة الاتصال معه ، وهى إيجاد ما يسمى علم ا
السرية الصندوق الميت Dead Letter Box حتى يمكننا إسقاط
وأسئلتنا المطلوب منه الإجابة عليها (يطلق عليها فى المخابرات احتيا
Requirements) وبالتالى تصلنا عن طريق هذا الصندوق الإج
احتياجاتنا ويقوم شخص غير معروف لنا وله بتلقى رسائلنا ورسائله و
لأى من الطرفين حسب العنوان . ثم بعد ذلك كان الاتفاق المادى مع
أولية على مبلغ ثابت ، يدفع له دورياً كل ثلاثة أشهر ويوضع فى حساب
بأحد بنوك سويسرا وكذلك كان لدى احتياج (أسئلة عن أسرار مر
الدولة المعادية ، مطلوب الرد عليها كمعلومات) عن معلومات عل
درجة عالية من الأهمية والسرية . وكان التكليف أيضاً ، الاتفاق ه
ثمن الرد على هذا الاحتياج الأول ، وتحدد له مبلغ لا يتعدى رقماً معيناً
دائماً يستشير زوجته . أتممت المأمورية بالاتفاق معه على وسيلة الت
معنا بإرسال تقارير على شكل خطابات شخصية مكتوب بين سط
الظاهرة المعلومات بالحبر السرى وذلك على صندوق بريد ميت etter
Box تابع لنا فى اليونان أيضاً وأن تكون الرسالة معنونة بإسم مستر جاي

Gite (ولـــدينـا شخص فى الـ Safe House مسئـول عن اسـتـلام مثـل هذه الخطابات أو التقارير ويقوم المسئول بالمنزل الأمنى بإرساله من اليونان داخل مظروف آخر خارجى إلى القاهرة رأساً بعنوان كان معى على صندوق بريد آخر ميت بالقاهرة كما أن رسائلنا إلى المندوب جايت تصل إليه منا بطريقة عكسية . أمـا الاسـم الكـودى المعـطى له فهـو اختصار لأول حرف من كل كلمة من الكلمات الأربعة التى تدل على البلاد التى يتم فيها الاتصال بيننا وبين المندوب Gite أى Egypte (E), Turkey (T), Israel (I), Greece (g).

وبعد ذلك اسـتمرت العـلاقة بين رئاسـة المخابرات بالقـاهرة وبين هذا المندوب الثمين مباشـرة من داخـل إسـرائيل وجاءت ردوده المتالية بنتائج مثمرة .

المصـــيدة

فى يوم ذهب أحد الشـبان الأتراك إلى مبنى السـفارة المصـرية فى طلب تأشـيرة دخول إلى مصـر ، وتقابل هناك مع يلماز المترجم الذى يعمل معى فى المكتب الصـحفى وكان على معرفة به من القـاهرة . كان هذا الشـاب التركى ضـابـطاً سـابقـاً بالجيش الـتركى وأصـيب فى يده نتيجـة انفجار قنبلة أثناء التدريب وبعد علاجه بالمستشفيات العسـكرية فى تركيا ، ذهب لاسـتكمال علاجه بالقـاهرة وتعرف هناك بوالد يلماز الذى كان يعمل بالترجمة فى رئاسـة مجلس الـوزراء المصـرى وتـوطـدت العـلاقة لطول مدة علاجه وكان يتلقى دروسـاً من والد يلماز كان هو الوحيد بالسـفارة الذى يتكلم التركية ، فقد قام بتسـهيل حصـول الشـاب التركى على تأشـيرة الدخول إلى مصـر . وكان قد أفهم يلماز أنـه ترك الخدمة بالجيش نتيجة الإصـابة وأنه يقوم ببعض الأعمال التجارية كما أفهمه أنه كان يشـغل مركز ضـابط مخابرات مع الجيش التركى

الذى كان يحارب فى كوريا . وتواعد مع يلماز على تبادل الزيارات . روى لى يلماز بعد عودته إلى المكتب هذه القصة ووجدتها فرصة للاستفادة من هذا الشاب وشجعت يلماز على مداومة الاتصال به .

وبعد عدة لقاءات بينهما وكان معظمها فى النوادى الليلية بأنقرة حيث كان هذا الشاب أعزباً . أبلغنى يلماز أن الشاب أبلغه أنه سبق له زيارة إسرائيل فى عملية تجارية وعرض بنفسه الخدمة من إسرائيل بعد عودته من إتمام العلاج بمصر . وفعلاً قام بالسفر إلى مصر للعلاج وعاد بعد شهر وجعلت يلماز يتفق معه على السفر إلى إسرائيل . وتم لقائى معه بعد تجهيز أوراق سفره ووجدته شاباً ذكياً جداً وفيه كل مؤهلات رجل المخابرات وأعطيته عدة أسئلة عن موضوعات واحتياجات كان مطلوب الرد عليها من إسرائيل وقام بمأموريته خير قيام وقد أعطيته اسماً كودياً (جودت بك) .

وأظهر جودت بك حماساً كبيراً فى التعاون معنا لحبه لمصر بعد تأثره من كرم المصريين وسماحتهم عندما اتصل بهم فى زياراته لمصر . وبعد مدة وصلنى من القاهرة عدة احتياجات للرد عليها من داخل إسرائيل ، وسافر جودت بك وعاد بعد ثلاثة أسابيع وقد نجح نجاحاً منقطع النظير فى الحصول على نسبة كبيرة من المعلومات المكلف الحصول عليها مما جعلنا نعتبره من أهم المندوبين . وسافر عدة مرات متفاوتة إلى إسرائيل بعد أن وطد صداقته مع شخصيات إسرائيلية ذات أهمية فى مجال هذا العمل . وكان دائماً يعود ظافراً بكثير من المعلومات السرية الهامة رداً على الاحتياجات التى كانت تعطى منا له . وفى إحدى سفرياته بعد ذلك وبعد أن تم تجهيزه للسفر مرة أخرى بحجة السياحة فى إسرائيل وكان من ضمن الاحتياجات المطلوبة هذه المرة الحصول على أطلس جيولوجى يباع فى إحدى المكتبات فى تل أبيب بشارع

كذا بالمبنى رقم كذا حيث يعرض هناك للبيع لمن يطلبه ، وبه معلومات تهمنا عن مناطق التعدين فى إسرائيل والمواد المعدنية الإسرائيلية الاستراتيجية . وبإحساس خفى شعرت أن هذا الاحتياج بهذا الترتيب غير منطقى ولكنى أعطيته له كما هو مع تحذيره فى تعامله مع هذه المكتبة المحددة بالاحتياج .

وبعد أسبوع تقريباً من سفره وكان صديقه المترجم يلهاز يراجع الصحف التركية التى نتعامل معها فى المكتب الصحفى أشار إلى خبر فى إحدى هذه الصحف يشير إلى قيام السلطات الإسرائيلية باعتقال الجاسوس التركى الذى يعمل لحساب المخابرات المصرية وذكروا اسمه . وأرسلت فى الحال فى طلب المندوب (فاوست) السابق سفره إلى إسرائيل وكلفته بتجهيز نفسه فى أسرع وقت للسفر إلى هناك ونصحته بالسفر على إحدى البواخر وأيضاً بحجة السياحة وأن يقوم بتمثيل دور السائح الأجنبى الشاب ويتجول فى أنحاء إسرائيل على فيسبا أو موتوسيكل يستأجره من هناك طول مدة إقامته السياحية وهى تسهيلات منتشرة فى إسرائيل ، ثم يتوجه إلى هذه المكتبة فى تل أبيب . ويطلب منهم خريطة سياحية عليها معالم الطريق بين تل أبيب وإيلات بحجة أنه ينوى زيارتها ، ولخصت له الموقف بمنتهى الصراحة ليكون على أشد درجات الحذر وأعطيته فكرة عن الأطلس الجيولوجى المشئوم حتى لا يطلبه إطلاقاً . أوصيته أيضاً بعدم حمل أى أوراق مكتوب فيها أى شىء يدعو للشك وأن يقوم بآلة تصويره بتصوير الأماكن السياحية بعيداً عن أى أهداف تثير الشك . وقام المندوب (فاوست) بهذه الرحلة وحمدت الله كثيراً عندما عاد بعد عشرة أيام تقريباً وكان يحمل معه تفاصيل قصة مثيرة أكدت شكوكى حول ظروف اعتقال المندوب (جودت بك) .

فقد قام بجولته السياحية كما خططت لها ، ولكنه من بدء رحلته على الباخرة الإيطالية تعرف على أحد البحارة الإيطاليين اليهود من طاقم الباخرة

ووطد علاقته به واحتفظ لنفسه بكابينة علي الباخرة طول مدة جولته السياحية لأنه سيعود بنفس الباخرة حيث حجز رحلة العودة عليها وفى نفس الوقت استأجر حجرة فى فندق بتل أبيب .

وفى آخر رحلته ، توجه إلى المكتبة . ووجد أنها كانت مكتباً تباع فيه بعض الخرائط السياحية فقط ، وفوجىء عند لقائه بأول عامل بهذا المكتب وسؤاله عن شراء خريطة سياحية باهتمام زائد به وتوجه إليه تلقائياً شخصان آخران وسألاه بانفعال ماذا يريد . ورد بثبات إنه فقط يريد شراء خريطة سياحية لطرق إسرائيل البرية حيث ينوى السفر بالفسبا الموجودة خارج المبنى إلى ميناء إيلات للسياحة . حضر بعد ذلك شخص آخر يبدو أنه مسئول كبير وأخذ يكرر عليه الأسئلة عن جنسيته وسبب زيارته لإسرائيل وأين يقيم ومعارفه فى تركيا وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة والغريبة . وأصر هو على أقواله .

تأكدوا من وجود الفسبا خارج المكتب وكذلك تأكدوا من إجاباته وأنه قام فعلاً بزيارة كثير من الأماكن والبلدان السياحية فى إسرائيل قبل حضوره إليهم مدعماً ذلك بما التقطه من صور فوتوغرافية وقاموا بتفتيشه وتفتيش جيوبه فلم يجدوا أى شىء يريب كما أنهم أرسلوا فى الاستفسار عن محل إقامته بالفندق وقاموا بتفتيش محتويات غرفته هناك تفتيشاً دقيقاً ، ولما لم يجدوا ما يدينه ، تركوه يغادر المكان وكان متأكداً أنهم سيراقبونه ، وتوجه مباشرة إلى فندقه وجمع حاجياته التى وجدها مبعثرة نتيجة التفتيش وتوجه من هناك مباشرة الى الباخرة الإيطالية التى حضر بها إلى إسرائيل ولم يغادرها حتى عادت به إلى استانبول .

فاجأنى عند هذا الحد من القصة المثيرة بأن أخرج لى من حقيبته مجلداً

كبيراً مكتوباً عليه نفس اسم الأطلس الجيولوجى المطلوب الحصول عليه من إسرائيل . ومن هذه المكتبة المزيفة بالذات . عقدت المفاجأة لسانى . فاستأنف كلامه فى هدوء عن كيفية حصوله عليه ، وقال : إنه بعد أن عاد إلى الباخرة ولجأ إلى كابينته فيها لحين الإبحار كان الغضب من تصرفات الإسرائيليين معه بالمكتبة قد أثاره وكان حافزاً له على الحصول على هذا الأطلس بالذات لأنى كنت قد أبلغته عنه وكلف صديقه البحار الإيطالى اليهودى بالذهاب إلى هناك ، وطلب هذا الأطلس بحجة أنه مكلف بشرائه لحساب أحد المهندسين الجيولوجيين الإيطاليين . وحذره من عدم ذكر أكثر من ذلك لهم . وفعلاً قابله رجال المكتبة المزيفة بشبه زفة ولكن بعد تأكدهم من ديانته اليهودية سمحوا له بشراء الأطلس .

وللقضية بقية

بعد حصولى على المعلومات من المندوب (فاوست) كتبت تقريراً مفصلا مرفقاً به الأطلس وسافرت إلى القاهرة . وعلمت من المخابرات العامة بعد السؤال أن هذا الاحتياج (احتياج الأطلس) طلبته المخابرات الحربية منهم . وطلب رئيس المخابرات العامة القيام بتحقيق شامل عن هذا الموضوع الخطير . كذلك أمر بعمل تحقيق فى المخابرات الحربية وتمخض التحقيق عن الحقيقة التالية إن العملية بأكملها كانت مصيدة مدبرة من المخابرات الإسرائيلية . كان أحد المندوبين الذى يعمل مع الملحق العسكرى المصرى فى باريس ويدعى أنه من عرب فلسطين وظهر بعد هذه القضية أنه إسرائيلى ، مزيف الأوراق والهوية وقد زقَّ (بمعنى أعطى المعلومات) معلومات إلى الملحق العسكرى المصرى فى باريس عن هذا الأطلس وأفهمه أن به معلومات عن المواد الاستراتيجية التعدينية فى إسرائيل

ومناطق استخراجها . وكان هذا المندوب فى بعض الأوقات يمد الملحق العسكرى المصرى ببعض المعلومات الحقيقية عن إسرائيل والتى ليست ذات قيمة مهمة أو عاجله ليثق فيه .

وقد قامت المخابرات الحربية بمناولة المخابرات العامة بهذا الاحتياج الغريب عن الأطلس ، ووصل لنا الاحتياج بهذه الصيغة التى تبدو بريئة فى مظهرها .

الـــرد

بعد الانتهاء من التحقيق تولانى شعور بالغيظ ، وصممت على ضرورة الانتقام واتفقت مع المسئول عن الخدمة السرية بالمخابرات العامة على خطة للرد على الفخ الإسرائيلى ، ورسمت الخطة معهم ، ونفذت كالآتى :

حيث انه بعد التحقيق ثبت أن مندوب الملحق العسكرى المصرى فى باريس المدعى « العروبة » ما هو إلا مندوب إسرائيلى ، فقد قررنا ورسمنا خطة لاصطياده هو الآخر بأسلوب يعادل أسلوب المخابرات الإسرائيلية الذكى ــ طلبت معلومات تفصيلية عنه(اسمه ومكان إقامته فى باريس ــ الأماكن التى يتردد عليها هناك ــ أماكن سهراته فى باريس . . . إلخ) .

كلفنا أحد مندوبينا الأكفاء الشاب (عصمت) بالسفر تحت هذا الاسم إلى باريس ، والتردد على الملهى الذى يقضى فيه المندوب الإسرائيلى سهراته (كان معروفاً هناك باسم عمر) وتظاهر عصمت بميله للشرب والنساء . وبعد عدة سهرات سقط عليه عمر المزيف (فرض نفسه عليه) بعد أن تأكد أنه عربى ومتخيلاً أن عصمت هذا يعتبر صيداً جديداً . وأخذ « عمر » المزيف يصرف بسخاء على ملذات عصمت عدة أيام مدعياً أنه

عربى مثله إلى أن طلب فى أحد الأمسيات من مندوبنا عصمت أن يعمل معه لحساب حلف الناتو حيث يمكنه الحصول منهم على مكافآت ومرتبات مجزية تكفيه للصرف على مثل هذه الليالى الحمراء ، فى نظير إعطائهم بعض المعلومات .

وكان عصمت قد أفهم المندوب الإسرائيلى (عمر) أنه طالب مصرى يقضى إجازته فى فرنسا ، وأن له شقيقاً ضابطاً يعمل برئاسة هيئة العمليات بالجيش المصرى وأعطاه اسمه (وهو اسم حقيقى لضابط مصرى فى هذا المركز ، وله شقيق طالب فعلاً ، واسمه عصمت ولكنه ليس مندوبنا وذلك حسب الخطة المرسومة بالقاهرة) وأن شقيقه هذا كثيراً ما يحمل معه إلى المنزل أوراقاً مهمة من عمله فى رئاسة الجيش يشتغل فيها ليلاً ــ وعرض عليه المندوب الإسرائيلى وسيلة سرية للاتصال وذلك عن طريق الكتابة بالحبر السرى بين سطور خطابات بريئة ــ ورتب عمر اجتماعهما مع أحد الأفراد الأجانب على أنه مندوب حلف الناتو ــ عاد عصمت إلى القاهرة بعد انقضاء إجازته (كما ادعى) وانتظر ورود خطابات المندوب الإسرائيلى عمر ووصله أول خطاب وطلب منه التعجيل بإرسال ما يسقط عليه من معلومات من أوراق شقيقه الضابط بالعمليات . وأرسلت فعلا عن طريق عصمت هذه المعلومات المصاغة بمعرفة مسئولين فى المخابرات الحربية والمخابرات العامة المصرية ، وبالاستعانة بنفس ضابط هذه العمليات . بعض هذه المعلومات حقيقى وبعضها حقيقى وغير هام مما جعل المندوب الإسرائيلى يطمئن للمندوب عصمت ويثق به ويثنى عليه فى الخطاب التالى واعتبره مندوباً جديداً وفى درجة عالية من الأهمية لإسرائيل (وكانت المخابرات الحربية تضحى ببعض المعلومات السرية الهامة ونرسلها عبر هذه الرسائل) .

ابتلع المندوب الإسرائيلى الطعم ، وبعد عدة رسائل بها وجبات شهية

من المعلومات المزقوقة من المخابرات المصرية ـ اقترح المندوب الإسرائيلى على عصمت أن يحاول تصوير هذه المستندات وإرسال صورها بدلاً من تلخيصها ونقلها وأبدى استعداده لإرسال أحد المدربين إلى مصر لتدريبه على مثل هذا النوع من تصوير المستندات تحت الظروف العادية من إضاءة وغيره . وكذلك وعد بإمداده بهذه الأجهزة التى سيشترى له بعضها من القاهرة وسوف يدله هذا المندوب فى القاهرة على عنوان خاص بالمخابرات الإسرائيلية فى القاهرة Dead letter Box يسلم فيه هذه الوثائق المصورة لترسل إليهم فى إسرائيل بطريقة مأمونة . حضر المندوب وفوجىء عصمت عندما استقبله فى مصر بأنه مندوب حلف الناتو المزيف وتم تسليم أجهزة التصوير إلى عصمت وتدريبه وتعريفه على العنوان الـ Dead letter Box وقد كان الصيد مزدوجاً ودسماً حيث إن المندوب الذى حضر على أنه مندوب حلف الناتو كان ثميناً للغاية حيث تبين من التحقيق معه أنه ضابط عمليات مخابرات إسرائيلى ، ويشغل مركز رئيس شبكة الجاسوسية الإسرائيلية بفرنسا ، وكان يعتبر الرئيس المباشر للمندوب المزيف عمر الإسرائيلى . كما تم اعتقال الشخصية التى خلف الصندوق الميت (Dead letter Box) فى القاهرة وكانت سيدة أجنبية تعمل فى إحدى المستشفيات بالقاهرة . كل ذلك كان انتقاماً لاعتقال مندوبنا جودت بك .

جودت بك فى سجون إسرائيل

حكم على جودت بك بخمس سنوات سجناً بالأشغال الشاقة بعد محاكمته على تهمة التجسس لأعداء إسرائيل ـ وكتب مذكراته بالسجن وأرسلها لنا بعد نشرها بإحدى الصحف التركية بعد الإفراج عنه ، وجاء بهذه المذكرات أنه كان نزيل نفس السجن الذى كان به إيخمان . وقد شملت

مذكرات جودت بك الأيام الأخيرة لإيجهان ، وحديثه معه فى السجن كما جاء بهذه المذكرات تفصيلات عن معاملة الإسرائيليين القاسية للمساجين والمعتقلين العرب الفلسطينيين فى إسرائيل أما بالنسبة لجودت بك فقد نطق القاضى الإسرائيلى بالحكم عليه بخمس سنوات سجن قابلة للزيادة حتى تصبح المعلومات التى حصل عليها لصالح مصر غير ذات موضوع .

وفعلاً عندما أعلنت المصادر العلمية الصحفية عن قدرة إسرائيل على صناعة القنبلة الذرية ، أفرجت إسرائيل عن جودت بك بعد قضاء ثلاث سنوات فقط . وبعد الإفراج عنه سافر له مندوب خاص من مصر وعوضناه بعض الشىء عما حدث له وكان قد خرج من السجن مريضاً ومشوهاً من التعذيب أثناء التحقيق معه . وأمر الرئيس عبد الناصر بعلاجه على نفقة مصر فى مستشفيات ألمانيا بعد أن تلقى منه خطاباً شخصياً عن مرضه ورغبته فى العلاج فى خارج بلاده ـ وبعد شفائه عاد إلى تركيا ورشح نفسه فى الانتخابات ونجح كعضو فى البرلمان التركى .

الرد السريع

كان من عادتى أن أزور المكتبات من وقت لآخر لاختيار بعض الكتب التى قد تفيدنى فى عملى .

ويوماً لفت نظرى كتاب أمريكى عنوانه Information Please 1960 واشتريته . ووجدته عند تصفحى له كتاباً دورياً أمريكياً يصدر كل سنة ويحتوى على أحدث المعلومات فى شتى الموضوعات والأحداث . والاختراعات والمشروعات الكبرى والتطورات فى العالم واحتفظت به فى مكتبتى بعد أن راجعت الفهرس .

وبعد فترة وصلني من القاهرة احتياج (طلب معلومات) عن خط أنابيب بترول حيفا إيلات في إسرائيل وهل تم إنشاؤه أو لازال تحت الإنشاء ، وسعة قطره ومساره وكفاءة تشغيله عند العمل إذا كان قد بديء العمل فيه وبمجرد أن انتهيت من قراءة الاحتياج ، تذكرت كتاب الـ -Inform ation Please 1960 وتصفحت الفهرست فوجدت أن الكتاب يحتوى فصلا كاملاً عن جميع خطوط أنابيب البترول في العالم ونقلت الرد على الاحتياج من الكتاب بالكامل وأرسلته في نفس اليوم إلى القاهرة ومعه نسخة هدية من الكتاب .

عــودة إلى المخابــرات

فى أوائل عام ١٩٥٨ شملنى الدور فى الترقى . وعدت إلى العمل بالمخابرات بالقاهرة فى وظيفة رئيسية وهى مجموعة الصحف والإذاعات (المصادر العلنية) . وكان عملها ببساطة شديدة هو الحصول من الأخبار المنشورة فى المصادر العلنية من صحف ومجلات وإذاعات وبعض الكتب السياسية والاقتصادية على المعلومات التى تجيب على احتياجات أو على ردود فعل لسياستنا الداخلية والخارجية أو حفظ هذه المعلومات لحين الحاجة إليها ، أو إصدارها فى شكل تقارير معلومات حسب أهميتها . ولاقتناعى الكامل بأهمية هذه المجموعة كمصدر من مصادر المعلومات شبه المؤكدة أو المؤكدة إذا ما أحسن تنظيمها وتشغيلها ، فقد عكفت على دراسة أقسام المجموعة المختلفة دراسة متأنية ووضعت تنظيما يطابق التنظيم الموضوع ولكن مع التحوير والتطوير الذى يحقق ما أقتنعت به .

وكان هذا التطوير يحتاج إلى مزيد من الأفراد الأكفاء وذوى المواصفات الخاصة وتعيين أو تشغيل مترجمين بعدد كبير فى اللغات (الإنجليزية ـ الفرنسية ـ الألمانية ـ العبرية ـ اللغة الأفريقية السواحلية) .

واشتركنا فى أهم الصحف العالمية ومن ضمنها الصحف الإسرائيلية ، وكانت تصل إلينا عن طريق دولة ثالثة . وكان هناك استماع كامل لمحطات إذاعة إسرائيل بالعبرية وبالانجليزية والعربية ومعظم

الإذاعـات للدول الكـبرى ـ علاوة على مجلات الاتحاد السـوفيتي ونشـراتها ومجلاتها الناطقة بالإنجليزية .

وعنـدمـا توليت رئـاسـة هذه المجمـوعة كان عدد المترجمين المعينين فيه لا يتعـدى عدد أصـابـع اليد . وضـعـت مشـروعـاً لتشـغيل المـترجمين ذوى المؤهلات العـالية كأسـاتذة الجامعات الذين تلقوا علومهم فى البـلاد الأجنبية ووضـعـت لهم مشـروعاً مرناً لتشغيلهم جزءاً من الوقت فى وقت فراغهم من عملهم وأصـبح جهاز الترجمة بعد مدة هو المرجع الرئيسى للدولة فى الترجمة ، وكثيراً ما قام كثير من السـادة المترجمين بمعاونة الدولة فى المحاكم عند نظر قضـايا الأجـانب وفى مقـابلات رئيس الجمهورية للأجانب أو بترجمة مراجع لجهات ومصـالح حكومية كانت تطلبها منا .

وهذه أمثلة ثلاثة من الأعمال الكثيرة التى حققتها هذه المجموعة فى علم المخابرات :

المثل الأول : عندما تأكد الرئيس عبد الناصـر من عدم تجاوب الروس مع العلاقات المصـرية خصـوصا بعد اعتقاله للشيوعيين فى سـوريا ومصـر وأنهم بدأوا فى أحاديث مسئوليهم وفى صـحافتهم فى الهجوم على عبد النـاصـر ونظام الحكم فى مصـر وكان قمتها هجوم خروتشوف فى منتصـف مارس سنة ١٩٥٩ على سياسة عبد الناصـر حيال العراق .

وكان ذلك كله يصـل للرئيس عن طريق الصحافة الغربية وأراد أن يضـع حدا لهذا الوضـع . وأن يتناول فى إحدى خطبه هذه العلاقة المتردية بسـبب الهجوم السـوفيتى الإعلامى عليه وعلى مصـر وطلب من المجموعة تجميع كل ما جاء على لسـان كبار المسئولين السـوفييت فى صـحافتهم من بدء هذا الخط

العدائى إلى وقت الخطبة وقامت المجموعة فى أقل من ٢٤ ساعة بتجميع هذه المقالات والكلمات والتصريحات العدائية من واقع الأرشيف وما تجمع من مجهده الوقت السوفيتية وغيرها من المصادر وجاء خطاب الرئيس فى دمشق يوم الأحد ٢٢ مارس حافلاً بالمعلومات ، طبقاً لما جمعته المجموعة وحمل عليهم محاولاً كشف حقيقة موقفهم فى كل المناسبات .

المثل الثانى: فى جميع الانقلابات التى حصلت فى جهات العالم وبخاصة فى سوريا والعراق وبعض الدول العربية كنا بمجرد أن يُعلن عن أسماء الشخصيات التى قامت بالانقلاب ، نسرع من واقع أرشيف الشخصيات لدينا فنحلل كل ما هو مدون عن هذه الشخصيات الجديدة ثم يتم تحليلها بالاستنتاج والحكم القاطع على لون هذا الانقلاب فى شكل نشرة سريعة توزع أولاً بأول .

المثل الثالث: تأكيد معلومات عن المفاعلات الذرية الإسرائيلية من واقع ترجمة فقرة جاءت بإحدى المجلات البولندية وكانت تصلنا عن طريق سفارتنا فى بولندا كان بها معلومات تنشر لأول مرة عن أبحاث إسرائيل الذرية وعن المفاعل الذرى الإسرائيلى .

إدارة محطات الإذاعة السرية

كان من ضمن اختصاصات مجموعة المصادر العلنية التى أتولاها إدارة محطات الإذاعة السرية ، وقبل أن أخوض فى تجربتى عندما صدرت لى الأوامر بتشغيل محطة سرية ضد العراق فى وقت ساءت فيه علاقات مصر مع رئيس العراق عبد الكريم قاسم عندما تمادى الشيوعيون العراقيون فى الهجوم على الرئيس عبد الناصر ، أذكر فى عجالة أصول واستخدام مثل هذه الإذاعات .

أشكال الإذاعات السرية

تنقسم الإذاعات السرية إلى الأنواع التالية :

(١) محطات متحركة (Mobile) تحمل أجهزة توليد القوة والبث الإذاعى فى عربات ، ويمكن إخفاء مثل هذه المحطات فى مناطق الثوار داخل الدولة (كمناطق الثوار الجزائريين مثلاً) وكالمحطة المتحركة التى طلبها من مصر الزعيم العراقى حازم الطبقشلى قائد القوات العراقية فى كركوك عندما كان يدبر انقلاباً ضد عبد الكريم قاسم ، وكالمحطة السرية التى أرسلتها مصر إلى القائد العراقى عبد الوهاب الشواف قائد لواء الموصل والتى ثبت عدم فاعليتها لأن إذاعاتها كانت غير مسموعة إلا لمسافات قصيرة لا تتعدى حدود الموصل .

(٢) محطة إذاعة متحركة (حقيقية) يمكن تشغيلها من خارج حدود الدولة حتى تنجح حركة الثوار فى المناطق البعيدة عن العاصمة ، ثم يتم تحريكها إلى داخل الحدود للإذاعة حتى يتم استيلاء الثوار على الحكم وذلك كمحطة الإذاعة المصرية التى أرسلت من سوريا لتكون بالقرب من الموصل بعد أن فشلت المحطة الأولى التى أرسلت للشواف فى مراحل الثورة الأولى لعدم قدرتها على الإرسال لمسافات طويلة .

(٣) محطة ثانية قوية جداً داخل الدولة نفسها تعادل فى قوتها قوة محطات الإذاعة الكبيرة ، ولكن لها استديوهات منفصلة تنشأ داخل مبانى أجهزة المخابرات نفسها . كمحطة ألمانيا الحرة التى كانت تذيع من انجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية ، ومحطة إذاعة اليابان الحرة التى كانت

تذيع من الولايات المتحدة الأمريكية ضد اليابان ومحطة إذاعة اليابان الشهيرة التى كانت تذيع باللهجة الأمريكية على أنها داخل الولايات المتحدة وكان كبير المذيعين يطلق عليها « زهرة اليابان » . ومحطة الإذاعة السرية الألمانية التى كانت تذيع ضد الحلفاء تحت إشراف وزير الدعاية جوبليز .

التجربة المصرية

بعد نجاح ثورة العراق كان يمثل الجناح القومى نائب الرئيس عبد السلام عارف وبعد الثورة بأيام قابل الرئيس عبد الناصر فى دمشق وكان التفاهم بينهما بأسرع ما يمكن خصوصاً عندما جاء الحديث عن الوحدة وكان هذا هو الوضع الطبيعى لثورة العراق ـ وتصرف عبد السلام عارف مع الثورة وزعيمها عبد الكريم قاسم على هذا الاساس . (الدعوة للوحدة مع مصر) ولكن هذا الوضع لم يرض عبد الكريم قاسم الذى كان يريد أن ينفرد بالعراق ، ولما اشتد ساعد القوميين المدعمين بعبد السلام عارف ضربهم عبد الكريم قاسم بالشيوعيين وكان قمة ذلك عزل عبد السلام عارف ، ونقله إلى وزارة الخارجية ثم اعتقاله ، والحكم عليه بالإعدام الذى خفف إلى السجن .

وبطبيعة الحال ، أيد الاتحاد السوفيتى سياسة عبد الكريم المستعينة بالشيوعيين العراقيين ، لضرب القومية العربية والوحدة إذ كان للاتحاد السوفيتى موقف علنى ضد الوحدة العربية والقومية العربية . وهى المجال الرئيسى لسياسة عبد الناصر العربية والدولية . وعندما أخذ عبد الناصر بضرب الشيوعيين فى كل من سوريا ومصر لتأييدهما أعمال الشيوعيين الفوضوية فى العراق ، هاجم الإتحاد السوفيتى مصر وعبد الناصر علناً

ورد عبد الناصر على هذا الهجوم ولكن بأسلوب محسوب ومحدد لحاجته للروس الذين كانوا قد بدأوا فى تحويل مشروع السد والمشروعات الصناعية الأخرى فى مصر وتحويل التسليح المصرى إلى السلاح الروسى .

إزاء كل ذلك ، كانت هناك محاولات من القوميين داخل العراق وجيش العراق للإطاحة بعبد الكريم قاسم . وقامت مصر بالاتصال بهم ومعاونتهم وكانت قيمة هذه التدبيرات تتم بين عبد الناصر والعناصر القومية فى جيش العراق مما استلزم مساعدات الجمهورية العربية لهم بالسلاح وجهاز لتعبئة الرأى العام فى الجيش العراقى والشعب العراقى والقوميين العرب وجاءت تعبئة الرأى العام على شكل محطات إذاعة سرية متحركة إحداها تم تسليمها للشواف فى الموصل والتى فشلت لقصر مداها ، ووضع تحت تصرفهم محطة إذاعية سرية متحركة أخرى قوية وضعت فى منطقة الغوطة بالقرب من دمشق وأخذت تبث إذاعتها أثناء ثورة الشواف بالموصل على أنها هى نفسها محطة إرسال الموصل التى ضربها عبد الكريم قاسم فى أول الثورة وبعد فشل الثورة عادت إذاعة بغداد إلى شتائمها وهجومها على عبد الناصر وعلى سياسة الجمهورية العربية المتحدة . وكانت فى نفس الوقت أجهزة إعلام الاتحاد السوفيتى تشترك معها فى نفس الخط .

وفى نفس الوقت اشتركت فى الحملة الهجومية إنجلترا ذات النفوذ القديم فى عراق ما قبل الثورة . كما اشتركت الأردن فى نفس الحملة الإعلامية الهجومية على الجمهورية العربية المتحدة بالإضافة إلى أجهزة إعلام لبنان كل هذا المهرجان الإعلامى السوفييتى العراقى الأردنى اللبنانى جعل عبد الناصر فكر بأسلوب عملى للتصدى لهذا المهرجان الإعلامى ولجأ إلى أسلوب لإعلام السرى لتلافى الحرج خصوصاً روسيا وذلك بتشغيل محطة سرية

قوية جداً من القاهرة تحت إشراف المخابرات العامة ليبث من خلالها هجومه على الإذاعات المعادية دون تحفظ بالإضافة إلى ماتبثه محطات القاهرة وصوت العرب الرسميتين من إذاعات محسوبة .

- محطة إذاعة صوت الأمة العربية السرية

هذه المحطة كانت تحت إشرافى فى مجموعة المصادر العلنية (مجموعة الصحف والإذاعة بالمخابرات العامة) وهى محطة قوية جداً مخفاة فى مكان حصين بالقاهرة ولها استوديوهات كاملة فى مكان تابع للمخابرات العامة . وهذه المحطة كانت قد استعانت بها مصر بعد أن ضربت هوائيات إذاعة القاهرة فى أبى زعبل أثناء العدوان الثلاثى سنة ٥٦ وتسبب فى إسكات إذاعات القاهرة كلية ــ فقامت هذه المحطة فى الحال بالعمل محل إذاعة القاهرة ونجحت نجاحاً منقطع النظير إلى أن أعادت محطات إذاعة القاهرة إصلاح الهوائيات .

وقد كلفت بعد فشل ثورة الموصل بتشغيل محطة الإذاعة السرية ، وبجانب الخطوط العامة لسياسة هذه المحطة وأهدافها والخط الإعلامى الذى أعطى لى والذى يجب أن تلتزم به الإذاعة ، فقد عكفت فى قسم الشئون العربية فى مجموعتى مع الضابط المشرف على هذا القسم على الاطلاع على جميع ظروف موقفنا السياسى من ثورة العراق منذ نجاحها إلى أن انتهت بالموقف العدائى لعبد الكريم قاسم وانعكاس هذا الموقف على سياسة الإتحاد السوفيتى مع العالم العربى عامة والجمهورية العربية خاصة وموقف دول حلف بغداد ولبنان والأردن ونشاط بريطانيا فى العراق .

بعد هذا الاطلاع الدقيق أمكننى التوسع فى توضيح الخطوط العامة التى أمدتنى بها رئاسة الجمهورية لألتزم بها .

بعد ذلك أطلق لى حرية التصرف فى العمل فبدأت فى اختيار الاسم الملائم وأطلقت عليها اسم « صوت الأمة العربية » وبحيث أضفت إلى الإطار العام مهاجمة الاستعمار والتدخلات الأجنبية فى جميع دول وإمارات وأراضى الأمة العربية سواء المناطق المستقلة أو المناطق التى لم تتحرر بعد . ثم أنشأت قسم دعاية فى المجموعة يجمع آخر أنباء دول وأراضى الأمة العربية من واقع نشرات الصحف والإذاعة اليومية ويصدر تقريراً يرسله إلى المحطة .

وقد قمت بالتعاون مع مكتب اللاجئين العرب برئاسة الجمهورية باختيار عدد كاف من اللاجئين الذين يصلحون ليذيعوا بلهجات بلادهم الأصلية ويكونوا على مستوى ثقافى يسمح لهم بالحكم على ما يصلح ليذاع ، وكيف يصاغ ، وخصصت للعراق بالذات طاقماً مميزاً بالمعرفة بشئون العراق . وخصصت لكل دولة عربية مذيعين من نفس الدولة وذلك للتمويه على موقع المحطة والجهة التى تذيع منها وأذكر من هؤلاء اللاجئين المرحوم الراوى من العراق وناصر السعيد اللاجىء السعودى ومجموعة من رابطة أبناء الجنوب وكثيرون غيرهم .

واستمر تشغيل هذه المحطة إلى أن سقط عبد الكريم قاسم فى العراق .

رحلـة إلى سـوريا

كان فى إذاعة إسرائيل الناطقة بالعربية أيام وحدة سـوريا ومصـر برنامج إذاعى يطلق عليه « مضـافة أبو محمود » تقليداً للبرنامج المصـرى « ابو زكى » النـاطق بالعـبرية . وجـاء فى أحـد تقارير الرأى العـام التى تصـلنى أن فى اتجاهات الرأى العـام السـورى وبخاصـة بين البدو فى الريف السـورى منه كثيراً من التبرم من الوحدة بسـبب سياسة مصـر هناك وأن كثيراً من السـوريين يسـتمعون إلى البرنامج الإذاعى الإسـرائيلى « مضـافة أبو محمود » .

اسـتمعت بنفسى إلى هذا البرنامج لمدة ثلاثة أيام ، وهو عبارة عن ديالوج يتم بين جيران وضـيوف وأصـدقاء الشـخصية الخيـالية أبو محمود يجتمعون معه يومياً للسـمـر فى مضـيفتـه (حجـرة جلوس الضـيوف) . وتجـرى أحاديث ومنـاقشـات تتنـاول الأخبار المحلية المحيطة بالمضـيفة . وآخر أخبار سـوريا وعـلاقتهـا بجيرانها واخبار عن أخطاء المصـريين الذين يعملون بسـوريا ، ويبالغ فى إثارتها ، وذلك كله فى أسـلوب بدوى مصـاغ ببراعة فائقة فيه قليل من الحقائـق ولكن مغلف بأكاذيب وتعليقـات مسـمومة (دعاية رمادية) .

إزاء ما جاء بهذا التقرير وبعد سـماعى لهذا البرنامج عدة أيام . وتقديرى لمدى خطورتـه ، فقد ذهبت بنفسى فى رحلة اسـتطلاعية إلى سـوريا وهناك قابلنى منـدوب من المخابرات العـامة ، ولحسـن حظى كان الصـديق زميل

الكفاح فى عمليات القتال ضياء حسنين وهو شخصية محبوبة هناك فى جميع الأوساط السورية .

تجولت معه فى الريف وبين منازل وجماعة البدو ، وبعض منازل أصدقائه السوريين فى العاصمة . وكان الصديق ضياء حسنين هو الذى يستدرج من نزورهم فى الحديث عن هذا البرنامج ، وكانت النتيجة إجماع آراء كل من قابلتهم عن اهتمامهم بالاستماع إلى هذا البرنامج الذى يختلف عن لهجة السباب الخارجة عن الأخلاق والذوق العربى وضربوا مثلاً بذلك بهجوم إذاعات القاهرة ، على الملك حسين ملك الأردن ، وهو عربى قبل كل شىء بتسميته « حسين ابن زين » وهذا مخالف لأخلاق وسلوك وطباع العرب ، وخاصة البدو أو ممن هم من أصل عربى وجعلتهم مثل هذه الصغائر ينصرفون عن إذاعات مصر إلى البرنامج الإسرائيلى الخالى من الشتائم والسب .

وقمت بتحليل هذه الآراء مع الصديق ضياء الدين حسنين ، وعرض على أن نزور جمعاً من أصدقائه السوريين ذوى الميول الوحدوية الذين يثقون فيه وكلهم من الشخصيات البارزة من الساسيين لأقف بنفسى على مدى تبرمهم من الوحدة .

وبعد حديث طويل قام هو بإدارته علمت منهم فى النهاية أنهم ينتظرون أحداثاً خطيرة وشيكة الحدوث ضد الوحدة مع مصر .

عدت إلى القاهرة ووضعت تقريراً عن توقع أحداث فى سوريا ضد الوحدة . وفى نفس الوقت وضعت تقريراً آخر عن الرأى العام السورى وبرنامج إسرائيلى « مضافة أبو محمود » . وطلبت مقابلة المسئول عن إذاعة صوت العرب ولخصت له نتيجة هذه الزيارة .

وفى نفس الوقت تمت تقوية الشوشرة على إذاعة إسرائيل وبخاصة برنامج « مضافة أبو محمود » . وقامت إذاعة صوت العرب بعمل برنامج مماثل له كبديل للمستمع العربى .

وبعد مدة وجيزة حدث الانفصال .

رحلة إلى غرب أفريقيا

أثناء عملى بمجموعة المصادر العلنية قمت برحلة إلى غرب أفريقيا وزرت أربعاً من دولها واحدة كانت مستقلة من مدة طويلة وهى ليبيريا ، ولكن كانت تسيطر على حكومتها شركة دانلوب الأمريكية لصناعة المطاط حيث أن ليبيريا من أغنى بلاد العالم فى خام المطاط الطبيعى ، وزرت ثلاث دول مستقلة حديثاً هى غينيا وغانا والكمرون . والملحوظة العامة التى لفتت نظرى عن هذه الدول الأفريقية حديثة الاستقلال أن بها إمكانات كبيرة للتواجد العربى برؤوس أمواله البتروليه للاستثمار بصفة عامة هناك ولتواجد مصرى بطاقاته العلمية والبشرية بصفة خاصة .

كان يمكن تزاوج رأس المال العربى مع الخبرة المصرية للمساهمة فى التنمية الصناعية لمشاريع استثمارية تعود على الأطراف الثلاثة (الدول الأفريقية والرأسمال العربى ومصر) بالخير ، على الأقل فى مجال المنتجات الاستهلاكية والمثل الصارخ على هذا الخلل الاقتصادى كان واضحاً بشكل بارز فى ليبريا Liberia حيث أن المحال التجارية هناك تجمع السلع من مواد تموين إلى مفروشات واثاث والضرورى لجميع مطالب الحياة نجد أن معظم خاماته من أفريقيا ولكنه مصنع فى أمريكا ويعاد بأغلى الأسعار إلى المستهلكين هناك وكان المثل على ذلك وجود كراسى الجلوس هناك كلها مصنوعة فى أمريكا من خشب المامبو المنتج والمستزرع فى غرب أفريقيا وليبيريا نفسها .

كانت شركة النصر المصرية للاستيراد والتصدير والتى كانت تعمل فى غينيا مثلاً ممتازاً لهذا النجاح ولو أنها اعتمدت فقط على الاستثمار المصرى .

فى طريق العودة من هذه الرحلة قمت بزيارة تونس والمغرب . وفى المغرب تصادف ميعاد زيارتى لها أن يكون عقب زيارة المرحوم الملك محمد الخامس لمصر ، وعودته على طائرة حربية مصرية يرافقه وفد مصرى صحفى من رؤساء تحرير الصحف وكبار الكتاب المصريين بدعوة من الملك . تقابلت فى الفندق مع هذا الوفد وكنت أعرف بعض اعضائه ودعيت معهم إلى حفل عشاء فى قصر الملك . أثناء الحفل جلس معنا رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية ، وهو صحفى وأخذ يدعو الصحفيين المصريين لزيارة إحدى قواعد جيش جبهة التحرير الجزائرية فى قاعدة له بالمغرب على الحدود الجزائرية . شعرت بعدم حماس معظم الصحفيين المصريين اللهم إلا المرحوم الأستاذ اسماعيل الحبروك رئيس تحرير جريدة الجمهورية فشجعته ، وعرضت ذهابى معه .

لم يضيع رئيس مكتب جهة التحرير الجزائرية الوقت . وأبلغنا أن الرحلة ستبدأ بعد نهاية حفل العشاء مباشرة . وبعد الحفل مر بنا مندوب الجزائر ونحن بعربته على الفندق حيث أخذ كل منا ماخف حمله من حاجيات المبيت لمدة يومين وتوجهنا فى عربة مدنية قوية إلى القاعدة الجزائريه فى داخل أراضى المغرب . وأختلطنا هناك مع شباب الجزائر أثناء تدريباتهم ووقف المرحوم اسماعيل الحبروك خطيباً واشتركت أنا معهم فى ضرب النار وجمعتنا بهم موائد الطعام فى مواعيد المعسكر وأخذنا صوراً معهم وانتظرنا إلى المساء ، وأخذنا عربة إلى ما قبل الحدود المغربية الجزائرية وعلى تل فى العراء وجدنا هناك أحد افراد قوات المقاومة الجزائرية . حضر باتقان يبدو أنه تم باللاسلكى من داخل

الحـدود ليقـودنـا كدليـل فى تسـللنا إلى داخل الجزائر . وعلى الحدود جعلنا نزحف ـ خلال نفق محفور تحت سـور الاسـلاك الشـائكة وعلمت فيها بعد أن مثل هذا النفق يجهز مسـبقاً عند ما تكون هناك عملية إدخال لقوات الخارج . ويضــطر بعد التسـلل لإخفائه عن العدو الفرنسى .

كان يرافقنـا عدد كبير لا يقل عن عشرين فردا ممن تم تدريبهم . وفى الداخل وجدنا مندوباً آخر كان يختبىء فى الليل خلف تل وينتظر وصـولنا . قادنا الفدائيون خلال دروب الصـحراء مشياً على الأقدام لمدة سـاعة ونصـف وفجـأة وجدنا أنوار قرية صـغيرة . دخلنا القرية الجزائرية فى حماية الفدائيين والمرافقين من أبطال تحرير الجزائر . فى الصـباح تناولنا مع عدد من كبار أهل القرية الإفطار . وأمضـينا وقتاً طيباً بينهم أطلعونا على أسـباب اسـتقلال هذه المنـطقة عن السـيطرة الفرنسية . وعلمنا منهم أن جميع التلال المحيطة بهذه القرية تنتشـر فيها فقط حراسـة حصـينة من جيش التحرير . وكثيراً ما قدمت حملات من الجيش الفرنسى لاحـتلال هذه القرية ، وفشـلت جميعها بعد تكبد الفرنسيين الخسـائر الجسـيمة .

مكثنا إلى وقت الليل فى هذه القرية الصـامدة الباسـلة . وعدنا من نفس الطريق وبنفس الأسـلوب فى أثناء الليل وانتهت الرحلة داخل الجزائر ولكنى مكثت فى القاعدة الخارجية حسـب طلبهم بعد أن علموا منى سـابق خبرتى فى حرب العصـابات فى القنال وكانت لقاءات مثمرة تناولنا فيها تبادل الخبرات واسـتمـرت لمدة أسـبوع تعـايشت فيه مع هؤلاء المكـافحـين وقـام المرحوم اســماعيل الحبروك عند عودته إلى القـاهرة بعمل ريبورتاج بالصـور فى جريدة الجمهورية عن هذه الرحلة الفريدة .

مأمـورية فى مقـر الأمم المتحـدة جينيـف

فى أواخـر عام ١٩٥٨ كلفنى السـيد صــلاح نصـر بمصـاحبـة وزير

البحث العلمي كعضو فى وفد مصر للعلوم والتكنولوجيا فى جنيف (مستشار سياسي للوفد المصرى) . أعطانى نسخة دعوة وطبيعة المؤتمر وكان عنوانها « التطبيق العملى للعلم والتكنولوجيا » لصالح الدول النامية .

كان هذا المؤتمر أول مؤتمر يعقده المجلس الاقتصادى والاجتماعى بهيئة الأمم ECOSOC لهذا الموضوع . هذا المؤتمر كانت ستشترك فيه إسرائيل بوفد كبير وكذلك معظم دول العالم الثالث (الدول النامية) . وقمت بتحضير دراسة عن النشاط العلمى الإسرائيلى من واقع المصادر العلنية المجمعة فى أرشيف مجموعتى من الصحافة الإسرائيلية واستعنت بأفراد من وزارة البحث العلمي ثم قمت بتوزيع هذه الدراسة قبل السفر على جميع أعضاء الوفد وكان الوفد يضم نخبة كبيرة من علماء مصر بحيث كانوا يغطون معظم الفروع العلمية .

وتكونت لجان فرعية حضرت معظمها وكانت الدول الأعضاء فى المؤتمر قد تقدمت بمشاريعها العلمية ومعظم الدول الصناعية الكبرى والسابق استعمارها لمعظم دول العالم الثالث . تقدمت مصر أيضاً بكثير من الأبحاث لصالح هذه الدول فى شتى الفروع . وما كان يهمنى أنا بالفعل هو أبحاث إسرائيل وهى متاحة لمن يطلبها من إدارة المؤتمر بهيئة الأمم ، وذهبت إلى هذه الإدارة وحصلت على جميع أبحاث إسرائيل المقدمة للمؤتمر وكذلك بعض أبحاث الدول الصناعية الكبرى . ومما لفت نظرى وجود طاقم كبير من الروس ومعهم صناديق ضخمة يجمعون فيها نسخاً من جميع أوراق المؤتمر ليرسلوها إلى بلادهم .

هذه الظاهرة جعلتنى أهتم بجمع أبحاث إسرائيل وجمع أوراقها التى تقدمها يومياً إلى المؤتمر حتى يمكننى عند العودة إلى مصر بواسط جهاز الترجمة

مجموعتى « بالمخابرات » ترجمتها واصدارها فى كتاب خاص بجميع أبحاث إسرائيل التى قدمتها للمؤتمر وكانت كلها منصبه على الاستخدام العلمى بتطبيق التكنولوجيا فى جميع الأفرع وبخاصة فى الصناعة لدرجة أنهم قدموا بحثاً كاملاً عن استخدام الطاقة الشمسية بانتاج مولد صغير للكهرباء من الطاقة الشمسية كان موزعاً فى إسرائيل فى المناطق النائية وبثمن زهيد . بعد أن قدمت هذا الكشف لرئيس الوفد المصرى كان تعليقى أن اسرائيل من واقع أوراقها التى قدمتها للمؤتمر كانت مهتمة جداً خصوصاً فى مجال الصناعة ، والتقط هذا التعليق عن صناعة إسرائيل رئيس الوفد صلاح هدايت وركز أعمال الوفد يومها على استخدام العلوم والتكنولوجيا فى التنمية الصناعية . لاحظنا أثناء هذه المناقشة المثمرة أن كشف الأسبقية المجهز من معظم الدول العظمى لم يجىء به أى شىء عن الصناعة إما تجنبا أو تجاهلاً .

كما لفت نظر أعضاء الوفد المصرى نتيجة للمناقشات أن جميع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية موجود لها وكالة مخصصة فى هيئة الأمم إلا وكالة عن الصناعة (Specialized agencies) ويومها قام وفد مصر ليلاً بتحضير دراسة ومشروع اقتراح بإنشاء وكالة للصناعة بالمجلس الاقتصادى والاجتماعى حتى يمكنها القيام بدورها لصالح الدول النامية .

واتخذ المؤتمر قراراً بالنظر فى تشكيل وكالة للصناعة مستقبلاً حسب ما تسمح به ميزانية هيئة الأمم .

برىء فى قفص الاتهام

فى أخر أيام عملى بمجموعة المصادر العلنية بالمخابرات العامة ، وانتدابى للعمل بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى اتصل بى تليفونياً

بمكتبى أحد الشبان الذين عملت معهم فى أعمال المقاومة بالقنال أيام العدوان الثلاثى وكان يقوم متطوعاً بقيادة مجموعة من الشباب الوطنيين ولاعجابى بهذا الشاب ومعرفتى السابقة به ، فقد رشحته بعد العدوان للعمل بالمخابرات العامة . ونسيت الموضوع كله إلى هذا التاريخ . أفادنى تليفونياً بأنه بناء على ترشيحى له عام ١٩٥٦ تم تعيينه بمكافأة مجزية للعمل بالمخابرات فى الخدمة السرية وأثبت كفاءته فى العمل . كما حصل أثناء عمله بالخدمة السرية فى الخارج على الشهادات التى تؤهلة للعمل كضابط مخابرات .

وبدأت المخابرات العامة فى اتخاذ اجراءات التعيين وكان فى إجازاته أو مأمورياته فى القاهرة يدخل ويخرج لمبنى المخابرات بتصريح . وفجأة عندما حضر أخر مرة . سحبوا منه تصريح الدخول وبلغ بأنه قد استبعد من العمل فى المخابرات . حضر لمقابلتى وأبلغنى أنه عندما رشحته المخابرات للعمل استقال من عمله الذى كان يحقق له دخلاً مرتفعاً فى إحدى الشركات ولكن المخابرات العامة جعلته يستقيل من عمله الأصلى وعينته فى وظيفة متواضعة بمرتب متواضع فى هيئة تنمية الصادرات كغطاء لعمله السرى الخارجى .

وبعد أن استغنت أخيراً عنه وبدون أسباب عاد إلى هيئة تنمية الصادرات بمرتب لا يكاد يكفيه ، وهو لا يمكنه العودة للعمل بالشركة الأصليه بالمرتب المجزى حيث رفضوا إعادته بعد هذه السنين الطويلة .

اتصلت بمدير مكتب رئيس المخابرات العامة فأرسل لى ملفه . وبالاطلاع على الملف وجدت أن المخابرات العامة كانت جادة فى إجراءات تعيينه والتى تقتضى التحرى عنه من المباحث العامة ووجدت فى تقرير التحرى أن هذا الشاب يقطن فى شقة بعمارة فى مدينة المقطم وقد ثبت أن

زوجته أثناء عمل زوجها فى الخارج مدة طويلة كان يتردد على منزلها أحد أثرياء العرب بعربته ويصعد إلى شقتها ، ويقضى معها أوقات طويلة ، وقد يقطن معها لعدة أيام . وهذا هو سبب استبعاده فجأة من العمل بالمخابرات وأصبت بصدمة . لأن الشاب كان فى منتهى الرجولة والأخلاق وفى نفس الوقت لم استطع مصارحته بهذه المعلومات .

اتصلت به وأفهمته أننى سأبحث بنفسى له عن عمل . ولحسن الحظ انتقلت بعد أيام للعمل منتدباً فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى . ورشحته للعمل بمكافأة معى فى نفس الأمانة لأنى كنت أقدره ومعجباً به وكلت المكافأة التى اقترحتها مجزية جداً .

استمر يعمل معى منذ التحاقى بهذا العمل وكان فى منتهى الكفاءة والأمانة والذكاء فى جميع تصرفاته .

وبينما كنت استعد للعودة ، إلى عملى الأصلى بالمخابرات العامة سألنى المرحوم المهندس سمير حلمى وكان وقتئذ رئيساً لكبرى شركات نقل الركاب عما إذا كان هناك موظف كفء ليعمل معه مديراً لمكتبه . فأشرت عليه بالموظف المذكور لشعورى بصلاحيته الفائقة ووطنيته الخالصة حيث أنه تطوع فى حرب فلسطين ١٩٤٨ مع قوات البطل احمد عبد العزيز كما شارك فى أعمال المقاومة ١٩٥١ .

وأثناء إتمام اجراءات التعيين أمكنه الاطلاع على ملفه المحفوظ فى الأمانة ووجد فيه التحريات المحرجة القديمة . وحضر لى بعد عدة أيام ومعه ملفه ومعه رد على خطاب تمكن من أن يرسله للتحرى من المرور عن صاحب رقم العربة ذات الأرقام الأجنبية (الكويتيه) والتى قيل إن الرجل العربى كان يحضر بها إلى منزل زوجته . وجاء رد إدارة مرور القاهرة بمفاجأة غير متوقعة

لى ان هذه العربة تخص مواطناً مصرياً وذكرت اسمه ، ثم قدم لى الموظف فى نفس الوقت إعلاماً شرعياً رسمياً بأن هذا الشخص الذى قيل عنه إنه عربى تردد على زوجته هو شقيق زوجته المذكورة فى الإعلام الشرعى وأنه يعمل بالبلاد العربية بالكويت ويحضر فى إجازته للإقامة مع شقيقته فى منزله .

صعقت لهذه المعلومات التى صححت وضع الشاب الأمين وشعرت بكثير من الرهبة والخوف لخطورة المعلومات المضلله التى يقوم بالحصول عليها جهاز المباحث العامة والتى قد تتسبب فى الضرر البالغ لأشخاص أبرياء . وقد ثبت بعد ذلك أن المخبر الذى كان مكلفاً بالتحرى عنه لجأ لى أحد المكوجية فقال له المكوجى الجار هذه المعلومات الخاطئة والخطيرة والتى استنتجها من ظواهر الأمور .

.. وبدأت العمل فى الاتحاد الاشتراكى

فوجئت وأنا بمكتبى بالمخابرات العامة مساء أحد الأيام بتليفون من الزميل المرحوم كمال رفعت يبلغنى أنه قد صدر قرار جمهورى يذاع فى نفس اللحظة من محطة القاهرة بتكوين الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى العربى ، وجاء فى هذا التشكيل اختيارى عضواً بالأمانة العامة ضمن أسماء آخرين . استمعت إلى نشرة الأخبار . وأخذت أفكر فى هذه المفاجأة لأننى فى قرارة نفسى لم أكن مقتنعاً بأسلوب هذه التشكيلات السياسية . منذ هيئة التحرير والاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى الذى كان قائماً من مدة كبيرة قبل إعلان التشكيل الجديد للأمانة العامة .

وفى نفس الليلة ، اتصل بى تليفونياً الزميل عبد المجيد شديد وكان يعمل مع السيد حسين الشافعى بالاتحاد الاشتراكى وأبلغنى بموعد تحدد للقائى فى صباح اليوم التالى مع السيد حسين الشافعى المسئول عن الاتحاد الاشتراكى . وذهبت إلى مقر الاتحاد الاشتراكى بقصر عابدين للمقابلة . وقابلت السيد حسين الشافعى ولم أكن قد تعرفت به من قبل . وأخذ يشرح لى كل شىء عن الاتحاد الاشتراكى منذ تكوينه وأخذت أبحث عن ثغرة أنقذ منها لإعلان قرارى بالاعتذار عندما بدأ يتكلم عن نظام العمل . قطعت الحديث وقلت له إننى قرأت جيداً وبإتقان كل شىء عن هذا التنظيم ونظام العمل ، والميثاق . وللأسف فإن الممارسة العملية بعد عملية الانتخاب التى

أفرزت المؤتمر القومى كانت تقضى بإجراء انتخاب حر لباقى المستويات ولكنها لم تتم ولذلك خمدت حركة العمل السياسى داخل الاتحاد مثلما حدث فى هيئة التحرير أو الاتحاد القومى واننى بصراحة تامة وقبل أن أمارس أى عمل فى هذا الاتحاد أسجل أننى غير مقتنع بهذا الاسلوب لأن رئاساته وأماناته جاءت بالتعيين وبهذا لا يخرج فى نشاطه عن التنظيمين السابقين هيئة التحرير والاتحاد القومى وانها جميعاً لا تخرج عن تنظيم القمصان الزرق للوفد أو تنظيم القمصان السوداء لمصر الفتاه قبل الثورة . كنت انتظر غضباً أو عنفاً فى الرد وكنت انتظر أن تنتهى المقابلة ويبلغ الرئيس عبد الناصر لاستبعادى من عضوية الأمانة العامة وبالعكس تماماً وجدته يبتسم لى تقديراً وحناناً ومودة وقال لى إن كلامى هذا هو نفس كلام الرئيس قبل أن يصدر القرار بتشكيل الأمانة العامة وأنه مضطر لتكوين الأمانه العامة بالتعيين فى هذه الفترة للبدء فى تنشيط الاتحاد الاشتراكى ثم عندما يصل نشاط الاتحاد الاشتراكى إلى مرحلة أفضل ستجرى الانتخابات أو تعاد الانتخابات من القاعدة إلى القمة ثانية وأفادنى انه حرصاً على جدية تنشيط الاتحاد الاشتراكى سيبدأ الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه مع الأمانه باستمرار وبدءًا من اليوم التالى بمقر الحكومة المركزية بمصر الجديدة .

خرجت من عند حسين الشافعى وأنا مقتنع لدرجة لا بأس بها ، والحياة تجارب خصوصاً بعد أن راجعت أسماء التشكيل وكانوا بالاضافة إلى المهندس احمد عبده الشرباصى والدكتور نور الدين طراف وكل من الأساتذة أنور سلامة وخالد محيى الدين وحسين ذو الفقار صبرى وكمال رفعت وعبد المجيد شديد وطلعت خيرى وشعراوى جمعة والدكتور إبراهيم سعد الدين .

تم اجتماع الرئيس جمال عبد الناصر مع أعضاء الأمانة ، وأخذ يشرح

فكرته بضرورة إعادة الحياة للاتحاد الاشتراكى لأن المرحلة التى تمر بها مصر تدعو إلى ضرورة الاعتماد على تنظيم سياسى قوى يتم فيه التحالف الحقيقى بين قوى الشعب العاملة . وحسب وجهة نظره كان يعتقد أن التشكيل يأخذ صورة أمانة للعمال ، يتولاها الأستاذ انور سلامة بصفته رئيس اتحاد عام نقابات عمال مصر بالانتخاب ، وأمانة للفلاحين (وقد تم اختيار الاستاذ عبد الحميد غازى لها فى الاجتماع التالى) وأمانة للرأسمالية الوطنية ويتولاها المهندس سيد مرعى . وأمانة للمهنيين يتولاها الدكتور نور الدين طراف ثم أمانات معاونه للدعوة والفكر يتولاها كمال رفعت وأمانة للشئون الخارجية يتولاها حسين ذو الفقار صبرى ، وأمانة للشئون الصحفية يتولاها خالد محيى الدين ، وأمانة للشباب ، يتولاها طلعت خيرى ، وأمانة المعهد الاشتراكى ، يتولاها الدكتور ابراهيم سعد الدين وأمانة التنظيم ، يتولاها شعراوى جمعة وأمانة لشئون الأعضاء وأتولاها أنا وأمانة للشئون الإدارية يتولاها عبد المجيد شديد ، وعباس رضوان لأمانات محافظات الوجه القبلى ، وكمال الحناوى لأمانات محافظات الوجه البحرى .

وفى الاجتماع التالى انضم للأمانة الدكتور أحمد خليفة . وتوالت اجتماعات الرئيس عبد الناصر مع الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى حتى بدأ النشاط يدب فى جميع مستوياته وعين عبد الناصر اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى من نواب الرئيس ورئيس الحكومة ورئيس مجلس الشعب وبدون انتخابات ، ثم صار تعيين جميع لجان المحافظات وليس كما ينص قانون الاتحاد الاشتراكى (على أن تجىء بالانتخابات) . بدأت الأمانات تقوم بأعمالها بشكل جدى وظهر الرأى المعارض . وكثيراً ما كان هناك نقد للسلطة التنفيذية ولتنظيم الاتحاد الاشتراكى نفسه لكن هذه الحيوية وصلت إلى

مستوى وتجمدت فيه . لما أفسح المجال للنقد الذى كان قمته ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل فى مقاله الأسبوعى بصراحة ، ووجه نقداً لاذعاً شديداً للاتحاد الاشتراكى وكان النقد فعلاً فى محله وإن بدا أنه كان يقصد به شخص على صبرى فى ذلك الوقت ، وكانت معلوماتى المؤكدة فى ذلك الوقت انه لا يوجد أى صحفى حتى لو كان هيكل نفسه يجرؤ على نقد جهاز يشرف عليه مباشرة جمال عبد الناصر وبهذا العنف دون أن تكون بتلميح منه شخصياً ولو أن هيكل كان يوهم الجميع بخلاف ذلك .

لجنة تصفية الاقطاع ومقتل المرحوم صلاح حسين

أثناء عملى بأمانة شئون الاعضاء بالاتحاد الاشتراكى العربى كانت تصلنا شكاوى ضد أعضاء لجان الاتحاد الاشتراكى . وتحقق فيها المباحث العامة فضلاً عن ندب أحد المساعدين بالأمانة لإجراء هذا التحقق وذلك قبل اتخاذ أى قرار تنظيمى ضد المشكو فى حقه .

وصلتنا عدة شكاوى ضد صلاح حسين وكلها تتهمه بالتحرش بكبار الملاك فى قريته كمشيش بعضها يقول إنه شيوعى والآخر يقول إنه من الأخوان المسلمين . وقام أحد المساعدين بالأمانة بالذهاب إلى كمشيش وسؤال جميع الأطراف ، وعرض على تقريره وجاء فيه إن الأقوال متضاربة هناك بين مؤيدى صلاح حسين وأن نشاطه لا يتعدى الخطب فى المساجد إو اجتماعات الاتحاد الاشتراكى يهاجم أعمال عائلة الفقى ومخالفتهم لقانون الإصلاح الزراعى وجاء عكس ذلك تماماً فى أقوال ملاك الأراضى ولكن صلاح حسين نفسه أشار إلى المحقق أن الفيصل فى الأمر هو الرجوع إلى تقرير قامت بإعداده الرقابة الإدارية بناء على شكاوى صلاح حسين إلى الاتحاد الاشتراكى ورئيس المجهورية .

وجاءنى تقرير الرقابة الادارية بصفة رسمية وكان هو الحد الفاصل بين الآراء المختلفة وجاء فى التقرير أن صلاح حسين منذ سنة ١٩٥٧ وهو دائم إرسال التقارير ضد أسرة الفقى فى كمشيش وأنه أثار هذا الموضوع فى أحد مؤتمرات الاتحاد الاشتراكى فى محافظة المنوفية وبعد التحقيق ثبت أن أسرة الفقى فعلاً متهربة من حوالى ٣١٥ فداناً زيادة عما يسمح به قانون الاصلاح الزراعى وشرح التقرير أسلوب التهرب واستخدام أسرة الفقى للرشاوى للمسئولين فى الإصلاح الزراعى والشهر العقارى وغيرها وأشار أيضاً إلى لجنة كانت مشكلة بعد سنة ١٩٦١ من مجلس الدولة وقضايا الحكومة أثبتت النتيجة التى تتفق مع ما يقوله صلاح حسين وهو تهرب أسرة الفقى من قانون الأصلاح الزراعى .

وبمراجعتى لملف صلاح حسين حتى ذلك التاريخ وجدت به كثيراً من الخطابات والتقارير التى كان يرسلها إلى رئاسة الجمهورية والاتحاد الاشتراكى ، يفضح فيها تآمر الاقطاع مع أهداف الاستعمار والتهرب من القوانين وأساليبهم فى استغلال الفلاحين .ووجدت فى ملف صلاح حسين أيضاً خطاباً من المباحث العامة رداً على طلب تحريات منا أن صلاح حسين شيوعى وفى خطاب آخر أنه من جماعة الإخوان (تضارب فى معلومات أجهزة الأمن ؛ إزاء ما جاء فى تقرير الرقابة الإدارية من حقائق وكان متضمناً رأى جهتى تحقيق أخرى بأن جميع ما جاء بتقارير وتبليغات وشكاوى صلاح حسين حقيقى أعجبت بهذا الشاب وأرسلت فى طلبه وجدته شاباً يمتلىء حماسة ووطنية وسبق له التطوع فى حرب فلسطين . واستمر بعد ذلك فى إرسال خطابات وتقارير ، وكانت كلها تتوقع معركة جديدة مع الاستعمار وأن الرجعية فى مصر تتعاون مع الاستعمار فى أهدافه . وفى مساء أحد أيام أبريل سنة ١٩٦٦ وأنا بمكتبى وصلتنى برقية من أهالى وفلاحى قرية كمشيش

يبلغون عن قتل المرحوم صلاح حسين واتهموا عائلة الفقى بالتآمر ، وطالبوا بالتدخل لتأخذ العدالة مجراها نحو القاتل .

طلبت ملف صلاح حسين ووجدت خطاباً قبل أيام قليلة كان أرسله لى وجاء به أنه يتوقع متاعب من الاقطاع وكأنه يحس بمصيره وخطاباً آخر (لرئيس الجمهورية قبل قتله بشهر تقريباً . بحذر من الاقطاع وأنه يتعاون مع الاستعمار وقد أخذ فى المدة الأخيرة يتحرك بحرية فى البلاد .

قمت ومعى بعض المساعدين والصحفى جلال كشك ، وكان موجودا بالمكتب وأراد أن يرافقنا وذهبنا إلى كمشيش ثم إلى مقر محافظة المنوفية . قابلنا فى كمشيش أرملة المرحوم صلاح حسين وكانت النيابة تتولى التحقيق وذهبت الى المحافظة وقابلت هناك السيد إبراهيم بغدادى المحافظ والسيد مصطفى بلوانى مدير الأمن بالمحافظة وأجمعا على خطورة الحادث وأنه قد ألقى القبض على المتهم والنيابة تجرى التحقيق ولكن القضية فى تقريرهما أبعد من أن تكون قضية قتل ولكنها قضية سياسية موجهة إلى الدولة . ضد قوانينها وبالذات قانون الإصلاح الزراعى .

وصلت قبل الفجر إلى مكتبى . وشرعت فى كتابة تقرير سياسى عن الحادث وقبل أن أختتمه اطلعت على ملف الإقطاع بالأمانة فوجدت أن أمانة شئون الأعضاء قامت بتحقيق ١٢ مخالفة لقانون الإصلاح الزراعى فى قرى مختلفة متفرقة فى أنحاء الجمهورية ولحدوثها فى فترة زمنية قصيرة ، اعتبرتها ظاهرة خطيرة ، كان قمتها مقتل صلاح حسين بتدبير من الاقطاعيين المخالفين لقانون الإصلاح الزراعى فى بلدة كمشيش .

كتبت تقريراً فيه كل نتائج الحادث وظروفه السياسية والجنائية وسلم إلى الرئيس عبد الناصر فى نفس اليوم فى الإسكندرية حيث كان هناك مع ضيفه الرئيس تيتو .

وعقب هذا ، أصدر الرئيس عبد الناصر قراراً بتشكيل لجنة تصفية الإقطاع .

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ تكونت لجنة التظلمات من لجنة تصفية الإقطاع وثبت من تحقيقات هذه اللجنة أن نسبة كبيرة من القضايا التى قدمت إلى لجنة تصفية الإقطاع وصدر قرار اللجنه فيها كانت تمثل خطورة على المجتمع وتحدياً حقيقياً لقانون الإصلاح الزراعى .

وبنفس القدر من نقص الحقيقة أثبتت لجنة التظلمات أن بعض أجهزة لجنة تصفية الإقطاع تجاوزت أصول المعاملة الإنسانية الكريمة . مع بعض أفراد الأسر بصورة قبيحة ثم قدم المتهم صلاح الفقى والخفراء الذين ارتكبوا الجريمة للمحاكمة أمام محكمة عسكرية برئاسة المستشار الاستاذ الصادق المهدى .

• وطلبتنى المحكمة للإدلاء بشهادتى : وهذا هو نص الشهادة .

مضمون شهادة محمد عبد الفتاح أبو الفضل

عضو الأمانة العامة وأمين شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكى العربى هيئة المحكمة العسكرية المكلفة بنظر قضية اغتيال المواطن المرحوم صلاح حسين فى قرية كمشيش ـ برئاسة السيد المستشار الأستاذ الصادق المهدى .

مضمون الشهادة

شهادتى اليوم وفى هذه القضية شهادة سياسية فقط ، وليس لى أى شأن فى قضية القتل . فأمامكم متهم بالقتل فى قفص الاتهام ، وكان هناك مقتول فى قرية كمشيش ولديكم تحقيق الإدارة وتحقيق النيابة . وليس لى أى

دخل بكل ذلك . شهادتى اليوم تنصب فى إثبات أن هذا المتهم وأسرته .
هل كانوا يخالفون القانون . قانون الإصلاح الزراعى من عدمه ؟ وهل التصدى لمخالفة القانون بالأسلوب القانونى بتبليغ السلطات وتنويرها يبيح للقاتل أن يقتل ؟ شهادتى اليوم بصفتى ممثلاً للتنظيم السياسى الذى لجأ إليه المقتول ليبلغه ويثبت له تهرب أسرة الفقى من القوانين ، وتحايلها عليها ، وأى قوانين ؟ قوانين الإصلاح الزراعى . المرحوم صلاح حسين تصدى للقاتل وأسرته دفاعاً عن قانون الاصلاح الزراعى وكان نصيبه القتل .

أما الجريمة الأخرى وهى التعدى على قانون الاصلاح الزراعى فإنى أدعم أقوال المرحوم صلاح حسين بشهادتى هذه وبالوثائق لأثبت أن المرحوم لاح حسين لم يكن متجنياً أو مفتعلاً صراعه ضد أسرة الفقى ـ لذلك ى فى شهادتى بأن أقدم مستند إدانة لكم . هو تقرير الرقابة الادارية لمتضمن تحقيق لجنة قضائية من مجلس الدولة وقضايا الحكومة سنة ١٩٦١ تثبت أن صلاح الفقى وأسرته قاموا بتهريب ٣١٥ فداناً عما يستحقونه بما يسمح به قانون الإصلاح الزراعى منذ تنفيذه سنة ١٩٥٧ المقتول المرحوم صلاح حسين رمز لنضال الفلاحين ضد أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة المستغلين والمتحايلين وإذا ثبت لكم من التقرير والمستند الرسمى المقدم لهيئة المحكمة هذا التحايل والتهرب تنتهى بذلك شهادتى عند الجانب السياسى ى هذه القضية . أما جناية القتل فهى جناية لها شهودها ولست أنا منهم .

ثــــم جــــاءت النكســـة

اتسمت الفترة الممتدة بين عدوان سنة ١٩٥٦ وهزيمة سنة ١٩٦٧ بميزات كثيرة وعديدة . كتب عنها الكثير ، وكذلك اتسمت نفس الفترة بنكسات عديدة كتب عنها الكثير أيضاً إلا أن النكسة الحقيقية كانت فى البعد الشاسع بين الأهداف القومية الحاسمة التى تبنتها قيادة مصر وبين المفروض أن يقدم من العمل الجاد المنظم من أجل تحقيق تلك الأهداف . فإسرائيل والاستعمار كانا الخطر الحقيقى على مستقبل أمتنا وقد فرض علينا مواجهتهما ، وكذلك تحرير فلسطين كان هدفاً قومياً تبنته الثورة كشرط أساسى لتحقيق رخاء واستقرار العالم العربى . ولتحقيق الهدف كان لابد من العمل الجاد المنظم فى ظل سيادة الحرية والعدل ، فسبيلنا الوحيد لتحقيق النصر هو تفوق المجتمع العربى على مجتمع المستعمرين فى فلسطين المحتلة .

وشتان الفارق بين العمل الجاد المنظم الذى واجهنا به القاعدة البريطانية فى قناة السويس لتحقيق معاهدة الجلاء فى سنة ١٩٥٤ . وكذلك العمل الجاد المنظم الذى واجهنا به احتلال بور سعيد عام ١٩٥٦ وبين الإهمال والفوضى التى واجهنا بها إسرائيل عام ١٩٦٧ .

فتحت ظل نفس القيادات العسكرية التى تسببت فى الهزيمة العسكرية عام ١٩٥٦ كررت إسرائيل نفس الضربة وبنفس الأسلوب فلم يتعلموا شيئاً من دروس الماضى القريب . وفى الأيام الأولى لهذه الهزيمة القاسية التى

راح ضحيتها شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية وهضبة الجولان ومعها ثقة الأمة العربية فى قدرتها على مواجهة إسرائيل وتحقيق الاستقلال ظهرت معادن بعض المصريين الذين رفضوا الاستسلام للهزيمة ووقفوا ومعهم الشعب وقاوموا ليثبتوا أن أصحاب الهمم والعزائم هم فقط الذين يمكنهم حماية بلادهم وشعوبهم أما أصحاب المصالح الذين يتمسكون بالسلطة والصولجان ليقهروا بها شعوبهم فإنهم يتضاءلون امام الخطر .

فى مساء ٢١ مايو سنة ١٩٦٧ حضرت أنا ومن معى مؤتمراً شعبياً كبيراً بالعريش وكان المحافظ قد جمع فيه عدداً كبيراً من عرب وأهالى سيناء ورؤساء قبائلها بملابسهم العربية التقليدية ، وكنت آخر المتحدثين ولما جاء دور الشاعر محمود حسن إسماعيل ألقى قصيدة طويلة استهلها بالقول وهو يشير بيده فى حماس فى وجوه الحاضرين وكان طبعاً يقصد مخاطبة الاسرائليين .

« مشردون أبداً تائهون أبداً
مشردون أبداً تائهون أبداً »

ووجدت نفسى لا شعورياً أنزلق نحو التشاؤم لأنى تصورت هذا الشعب الذى يجلس أمامنا ويستمع فى صمت ، هو نفس الشعب (شعب العريش وسيناء) الذى ذاق مرارة التية والتشرد فى حربين سابقتين لنا مع العدو الإسرائيلى سنة ١٩٤٨ ، سنة ١٩٥٦ كان هذا الشعب دائماً هو الضحية .

وفى عام ٢٢ مايو سنة ١٩٦٧ فى طريق عودتنا من السويس توقفنا عند القنطرة شرق لعبور قافلة بواخر عبر القنال فى نفس وقت وصولنا . أثناء

الانتظار الطويل حضر رئيس مدينة القنطرة شرق وأكد لنا أخبار وصول قطع مختلفة من السلاح البحرى المصرى وقوات عسكرية إلى شرم الشيخ وخليج العقبة لتحل محل قوات الطوارىء الدولية التى انسحبت منها ، وأن أوثانت سيصل إلى القاهرة يوم ٢٤/٥/٦٧ ليقابل الرئيس عبد الناصر بخصوص الموقف المتأزم .

ألح رئيس المدينة علينا أن نذهب معه إلى محطة سكة حديد القنطرة شرق لإلقاء خطب وكلمات مشجعة فى قوات الاحتياط المنتظرة فى المحطة — فى طريقها إلى الجبهة فى سيناء . فوجئت فى المحطة بحالة من الفوضى لقوات الاحتياط يعجز الإنسان عن وصفها ، والمفروض أنها على وشك الاشتراك فى القتال فى الجبهة . كان الكل فى ملابس مدنية ومعظمهم بجلابيبهم الريفية ويحملون بنادقهم وليس هناك أى زى عسكرى ، جمعوا من قراهم على عجل ودون أى ترتيبات إدارية ، وتسلموا اسلحتهم فقط وهم بجلابيبهم المدنية وشحنوا فى السكة الحديد كالدواب دون أى تجهيز أو ترتيب إدارى من مأكل أو مشرب أو راحة . كانوا يتدافعون لشراء طعامهم من الباعة الجائلين بالمحطة فى فوضى شاملة لا يتعدى مظهرهم خفر الريف إن لم يكونوا أقل مستوى من ذلك . حشد هائل من الشباب والرجال الضائعين نتيجة إهمال واستهتار سلطات القوات المسلحة بآدميتهم وإنسانيتهم . انعكس الشعور بالضياع على كرجل عسكرى ومقاتل سابق وسألت نفسى « هل هذه هى حالة قواتنا التى سنواجه بها جنود عدوتنا اسرائيل ؟ وفى المقابل — هل عدوتنا اسرائيل عندما أعلنت التعبئة عاملت شبابها بهذا الأسلوب غير الأدمى ؟ » .

اعتذرت عن إلقاء أى كلمات وغادرت المحطة حزيناً متشائماً من هذه المأساة الإنسانية كل ذلك جعلنى عندما عدت إلى مكتبى بالقاهرة أبادر

بكتابة مقال فى نشرة الاشتراكى ظهر فى العدد ٦٢ بتاريخ ١٩٦٧/٥/٢٧ عن المواجهة المنتظرة مع إسرائيل جاء فيه « أن المواجهة بيننا وبين اسرائيل هى تحد حضارى أى صدام كامل بين مجتمعين وليس مجرد جيش ، أى إن الجندى العربى يجب أن يتفوق على الجندى الإسرائيلى . وكذلك الحال مع الطالب العربى والعامل العربى والموظف العربى ، والقيم والسلوك والأخلاق لأن المجتمع الأقوى فى جميع جوانبه هو الذى سينتصر ، ولأن المواطن القوى الواعى بأهداف المعركة وأبعادها شرط ضرورى للنصر الشامل » .

كان الحماس الشعبى فى جميع أنحاء مصر فى القمة وانعقدت الاجتماعات والمؤتمرات التلقائية فى مختلف التجمعات الشعبية المصرية واعربت عن استعدادها للتطوع والجهاد بالأموال والمجهود والأنفس متجاوبة مع القرار السياسى ، وللأسف لم يجد هذا العطاء الشعبى أى استجابة من أى جهة حكومية بدليل أنه عندما زارنى بمكتبى بالاتحاد الاشتراكى وفد من الطلبة المصريين بالجامعة الأمريكية ووضعوا أنفسهم بحماس كبير تحت تصرف الدولة أخذت اتصل وأبحث عن أى جهة حكومية مسئولة يمكن أن تلبى مثل هذا التطوع الشعبى فلم أجد وبعد حيرة وجدتنى مضطراً أن أصرفهم بوعد أن أتصل بهم عندما تحتاج البلاد اليهم .

وفى صباح يوم ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ عقد أول اجتماع للمجلس الأعلى للمقاومة الشعبية بجميع أعضائه برئاسة السيد زكريا محيى الدين وحضر الاجتماع كبار قادة الجيش وبعد توزيع الواجبات ، أسند إلى قيادة تنظيم المقاومة الشعبية فى منطقة القتال . ولما سألت عن الترتيبات المتاحة لأجل تجنيد وتدريب وتنظيم وإمداد من سأقودهم من شعب القنال تبين لى أن الحرس الوطنى سيوضع تحت تصرفى فى وقت اللزوم وسيكون جاهزاً لأى عمليات دون الحاجة إلى تشكيل مقاومة شعبية كما حدث فى ٥٦ . وجاء دور

قائد الحرس الوطنى الضابط يوسف حسن محمد وسبق لى الخدمة معه فى الجيش وقال : إنه استكمالاً لتقوية قواته فإنه فى حاجة إلى تشكيل ثلاثة لواءات جديدة .

سألت رئيس الاجتماع عن الزمن الكافى لتشكيل هذه اللواءات الثلاثة فأجاب بأنه يمكن تشكيلها فى قت من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع . أثارنى هذا الرد غير المنطقى وانفعلت قائلاً « إن ثلاثة لواءات معناها عددياً لا يقل عن ثمانية آلاف جندى وإن أى قائد عسكرى لو أعطى هذا العدد من قطع الشطرنج لفشل فى رصها وتشكيلها فى مثل هذه المدة ناهيك عن التشكيل والتدريب والإعاشة » . وتسليح لهذا العدد الهائل من الرجال وقبل نهاية الاجتماع طلبنى السيد زكريا محيى الدين لمقابلته فى مكتبه . وسألته وأنا فى غاية القلق عما إذا لم تكن القيادة السياسية فى الدولة وعلى أعلى مستوى قد اجتمعت وناقشت تقرير موقف عن حالة الحرب المنتظرة للوقوف على مدى قدرة مصر على الصمود والمواجهة إزاء أى عدوان محتمل قد تشارك أو تساهم فيه أى من الدول الكبرى مع إسرائيل ، على الأقل من ناحية التموين والوقود وخلاف ذلك من الاحتياجات الاستراتيجية الهامة .

كان الرد أن الرئيس عبد الناصر اكتفى بوعد أخذه من المشير عامر بأن الجيش المصرى إذا دخل المعركة مع إسرائيل فسوف ينتصر على طول الخط . واستفسرت عن ضرورة الاعتماد على تسليح الشعب واشراكه فى المقاومة خصوصاً فى منطقة القنال فقال لى إنه فى الوقت الحاضر فإن الحرس الوطنى فيه الكفاية فى هذه المناطق .

العدوان

فى صباح ٥ يونيو ، وقبل توجهى لمكتبى بالاتحاد الاشتراكى على كورنيش

النيل سمعت من منزلى وعلى بعد أصوات قنابل مكتومة ، ثم أصوات ضرب المدفعية المضادة للطائرات وبكثافة . وتأكدت من بداية العدوان وأسرعت إلى مكتبى . واستمعت وأنا بالمكتب إلى إذاعة القاهرة التى أفادت بأن اسرائيل قامت بالإغارة على مطارات مصر وتقوم بضربها جميعاً وتوالت الأخبار بعد ذلك بذكر عدد الطائرات الإسرائيلية التى يسقطها دفاعنا الجوى . توجهت إلى مكتب الأمين العام السيد على صبرى ووجدت بمكتبه بعض الزملاء أعضاء الأمانة والكل صامتون ، يستمعون إلى الإذاعات .

وكانت إذاعة إسرائيل تذيع أنها دمرت عدداً كبيراً من طائراتنا وهى على أرض المطارات كما حدث تماماً فى عدوان سنة ١٩٥٦ . كعضو فى المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية توجهت فوراً إلى مكتب السيد زكريا محيى الدين فى القيادة المشتركة بمصر الجديدة ، وكان فى غاية الانهاك ودائم الاتصال تليفونياً بمساعدى المشير عبد الحكيم عامر بقيادة الجيش وظهر من اتصالاته التليفونية أنه هو الذى كان يتولى القيادة العسكرية . لأنه كان يصدر الأوامر ويومىء بإجراءات عسكرية وما إلى ذلك . ثم التفت إلى وفى مرارة علمت منه أن قواتنا المسلحة فى أسوأ حال من ناحية الطيران فقد تم تدمير معظم الطائرات علاوة على تخريب المطارات والحجرات وحتى المطارات المدنية وأن هناك بعض الأمل الضعيف فى وصول طائرات من الجزائر ويوغوسلافيا ولكنها سوف لا تكون ذات فعالية إلا بعد مدة من وصولها . وأن الجيش إذا اشتبك فسيكون بغير غطاء جوى . ولم يفاتحنى أو أفاتحه فى عملية المقاومة الشعبية لأنه حتى هذه اللحظة لم يكن لها أى وجود أو ترتيب . وبعد ظهر هذا اليوم علمت بوجود جميع زملائى أعضاء الأمانة العامة بمكتب الزميل عباس رضوان ووجدتهم جميعاً لا يعملون أى شىء سوى الاستماع إلى الإذاعات .

واستمعت إلى قرار مجلس الأمن بإيقاف القتال وبعودة قوات كلا الطرفين المتحاربين إلى خطوط ما قبل ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ولم توافق مصر على إيقاف القتال .

وفى فجر ٦ يونيو كان هناك إنذار بغارة على القاهرة ، توجهت بعدها مباشرة فى الصباح المبكر إلى مبنى المخابرات العامة . وقابلت رئيس المخابرات العامة . وأشار على بالمشاركة فى اجتماع مع رؤساء هيئات المخابرات لوضع تقدير موقف بناء على آخر المعلومات عن قواتنا وقوات العدو والمؤتمرات الخارجية . وأثناء وجودى فى هذا الاجتماع اتصل بى زكريا محيى الدين بصفته رئيس المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية وطلبنى لمقابلته فى الحال لأمور تخص المقاومة الشعبية . وفى مكتبه وجدت كلاً من كمال رفعت وإسماعيل فريد ولطفى واكد وطلب منا التوجه فى أقرب فرصة إلى منطقة القنال ليتولى كل منا قيادة المقاومة الشعبية فى إحدى مدن القنال الأربعة السويس والاسماعيلية والقنطرة وبور سعيد . وأوصانا عند وصولنا إلى مدينة الاسماعيلية أن نذهب إلى قيادة الجيش هناك التى قد يمكنها مدنا بما تطلبه من معدات وأسلحة وذخائر للمقاومة وبعد خروجنا من مكتبه اختار كل منا المدينة التى سيذهب إليها .

وكان إسماعيل فريد للسويس وكمال رفعت للاسماعيلية ولطفى واكد للقنطرة وأنا لبور سعيد . اجتمعنا بعد الظهر وبعد تجهيز أنفسنا للسفر إلى الإسماعيلية فى مكتب عباس رضوان بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى ، وكان هناك كثير من الزملاء منهم أمين الشباب الدكتور حسين كامل بهاء الدين وأشرت عليه بكل الصدق وحسن النيه بالمشاركة فى المقاومة بمنظمة الشباب التى يشرف عليها حيث إننا فى سبيل الذهاب إلى منطقة

القنال وطلبت منه ، إما الذهاب معنا لتولى قيادة شباب المنظمة هناك ، أو إمدادنا بقادة وأعضاء وأفراد منظمات الشباب سواء من أنحاء الجمهورية بعامة أو من منطقة القنال بصفة خاصة ، لأن هذا الوقت كان هو وقتهم . لم أحظ منه بأية إجابة ، وتظاهر بالانشغال وترك المكان وحتى لم أحظ منه بأى تعليق ويحتمل أنه كان محرجاً لعدم صدور أوامر له بذلك .

على الطريق إلى منطقة القنال

توجهنا نحن الأربعة فى عربة واحدة يقودها كمال رفعت إلى الإسماعيلية بعد العصر بقليل ، ووصلنا نقطة مرور العباسة فى منتصف الطريق فيما قبل الغروب . هناك لفت نظرنا وجود فلول من جنود الجيش بملابس الميدان ومعهم أسلحتهم الخفيفة فى اتجاه القاهرة ، وليس فى اتجاه الجبهة وسيراً على الأقدام ، وبشكل غير منظم ، وفى غاية الإجهاد . توجهت إليهم مترجلاً وسألتهم عن معداتهم ورؤسائهم وعلمت منهم أنهم من وحدات الجيش المصرى المختلفة بسيناء والعريش وأنهم حضروا منسحبين . من الجبهة دون نظام .

عدت إلى زملائى بالعربة وأخذنا نحصى عدد الساعات التى مرت من وقت بدء العدوان صباح يوم ٥ يونيو إلى هذا الوقت وكان الخامسة مساء يوم ٦ يونيو حوالى ٣٣ ساعة ثم حصرنا المسافة بين العريش إلى موقعنا فى نقطة العباسية وكان حوالى ٤٨٠ كم وعلى أساس أن العسكرى المشاة يقطع مسافة ٣ كم فى الساعة وبحسبة بسيطة وجدنا أن هؤلاء الجنود المنسحبين سيراً على الأقدام بحساب المسافة وسرعة العسكرى المشاه أنهم بدأوا انسحابهم من يوم ٣ أو ٤ يونيو أى قبل بداية العدوان بيوم على الأقل .

ولم يكن أمامنا أى تفسير لقدرتهم الخارقة حتى أمكنهم الوصول فى هذا

الزمن القصير إلا أنهم كانوا ينسحبون مستعينين بشتى انواع وسائل الركوب المنسحبة هى الأخرى على الطريق وانتهى بهم الحال إلى السير على الأقدام وقت أن التقينا بهم .

استأنفنا السير وتولانا جميعاً فجأة حالة صمت كلها مرارة وكآبة وتشاؤم من الموقف عامة بعد هذا الاستنتاج ، وانفجر الزميل إسماعيل فريد محاولاً التخفيف عنا وقال علام الوجوم والصمت والكآبة وليس أمامنا إلا التصميم على المقاومة حتى الشهادة لأنه سبقنا زملاء لنا من ضباط الجيش منذ سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ واستشهدوا وشبعوا موتاً ونحن لازلنا ننعم بالحياة . وليس أمامنا الآن إلا التفكير فى مشاركة الشعب فى مناطقنا بروح التفاؤل والتصميم على الجهاد حتى الشهادة .

وكان لكلمته وقع طيب حيث ابتسمنا وأخذنا نتجاذب الحديث حول الموقف والمستقبل حتى وصلنا إلى قيادة الجيش فى الإسماعيلية .

وفى غرفة القيادة بالاسماعيلية كان القائد اللواء الموجود صديقاً للزميل إسماعيل فريد وكان مجتمعاً وقت دخولنا مع جميع قادة قوات سيناء ومنهم دفعتى اللواء عبد المنعم خليل . اعتذر لنا القائد ، وطلب منا أن نمكث معهم فى غرفة القيادة حتى يفرغ من إصدار أمر العمليات الذى استدعى القادة من أجلة .

بدأ يقرأ أمر عمليات الانسحاب وأخذ القادة يدونون الملحوظات حسب واجباتهم الملقاة على كل منهم ، وطال الوقت حوالى ساعة . ومن استماعى ومتابعتى لأمر عمليات الانسحاب الكامل دخل فى روعى أن الجيش المصرى بسيناء لازال سليم التشكيل والتكوين وقادراً على إجراء عملية الانسحاب بأمان وهذا يتناقص مع ما رأيناه على الطريق من فلول الجيش

المصـرى التى انسـحبت من الجبهة فى العريش قبل إصـدار هذا الأمر بأربع وعشـرين سـاعة على الأقل وبغير نظام ، وشـاهدناهم بأعيننا قبل سـاعتين عنـد نقـطة مرور العباسة . . وقبـل نهاية أمـر العمليات سـأل القائد قادة الـوحدات بجملة تقليدية « أى أسئلة ؟؟ » ولم يوجه أى من قادة الوحدات بسـيناء أى سـؤال وقبل أن ينصـرف القادة توجهت إلى صـديقى وزميلى اللواء عبـد المنعم خليل ، وقبـل أن يغـادر غرفـة القائد . وسـألته عن حقيقة أمر العمليات الذى سـمعناه معهم لتونا يلقيه قائد القوات ؟ وهل كل هذه القوات التى ستنسحب والتى ذكـرهـا موجودة فعلاً تحت السـيطرة والقيادة وسـليمة ولم تتحـول بعـد إلى فلول كالتى شـاهـدناها عند نقطة مرور العباسه، قبل حضـورنا بسـاعة ونصـف . ضـحك اللواء عبد المنعم فى مرارة وقال : إن كل ما سمعناه معهم هو تمثيل فى تمثيل ، وإن سـتار مسـرحية الجيش المصـرى قد اسـدلت منذ بدء العدوان صـباح ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ . قال أيضـاً إن الجيش المصـرى فى هذه اللحظة فى حالة بالغة من الفوضى ، وعدم السـيطرة وقام فعلاً بالانسـحاب تلقائياً وقبل صـدور هذه الأوامر الرسـمية وليس هناك أى مظهر للتماسـك غير هؤلاء القـادة المتلقين لهذه الأوامر المزيفة

وسـألتـه لم يوجه أحد منهم أسـئلة للقائد يسـتوضح فيها حقيقة الأوضـاع كما يعلمها كل منكم ورد القائد عبد المنعم خليل فى أسـف « إنه أثناء فترة القهر الـطويلة لضـباط الجيش بين عامى ٥٦ ، ٦٧ تعودوا على السـكوت وعدم توجيه الأسـئلة التى قد تكـون محرجـة للقيادة . وأضـاف فى مرارة إن كل ما استمعنـا إليه فى أمر العمليات عن توفير الوقاية الجوية والأرضـية للقوات المنسحبـة غير متوفر فى هذه اللحظة فى القوات المسلحة ، وانه يتوقع مذبحة جوية على القوات المنسـحبة فى الصـباح ، خصـوصاً فى مناطق عبور القنال وعلى طول طريق الانسـحاب المفتوحة .

انصرف قادة وحدات سيناء من غرفة العمليات ولم نجد ما نقوله لهذا القائد سوى أننا تمنينا له التوفيق الذى لا نتوقعه اطلاقاً . أفهمناه مأموريتنا وأننا نرجىء طلباتنا من المعدات والأسلحة للمقاومة إلى ما بعد إتمام عملية الانسحاب . ونصحنا هو بعدم التوجه فى هذه الليلة إلى مدن القنال الأخرى وأن نبيت فى الإسماعيلية حتى الصباح حيث ان الطرق ستكون مشغولة تماماً بالقوات المنسحبة والتى ستكون معرضة لضرب الطيران الإسرائيلى .

وعند خروجى من غرفة القائد وجدت عدداً كبيراً من الشباب الذين يعملون معى فى الاتحاد الاشتراكى وبعض الأصدقاء ينتظروننى وقد لحقوا بى من القاهرة ووضعوا أنفسهم كمتطوعين فى المقاومة الشعبية وتحت تصرفى منهم مسعد جلال وعواد حسن ووكيل النيابة مصطفى سليم والمهندس عاطف زيد والصحفى جلال كشك وغيرهم ممن تربطنى بهم علاقات عمل وكفاح من مدد طويلة .

وفى الصباح المبكر يوم ٧ يونيو سنة ١٩٦٧ توجهت مع زملائى وأصدقائى المتطوعين فى اتجاه بور سعيد ووصلنا بصعوبة كبيرة إلى القنطرة حيث كانت الطائرات المعادية تغير بقسوة على القوات المنسحبة والمكدسة على الطريق .

وفى القنطرة علمنا من ضباط القوات المسلحة المنسحبة عند المعدية وكانوا فى غاية السخط على القيادة العامة للجيش علمنا أن أوامر القيادة بعد أن كانت بالانسحاب الكامل من سيناء فى مساء اليوم السابق وبعد عبور معظمها إلى البر الغربى عادت الأوامر وصدرت لهم مرة أخرى صباح اليوم (٦٧/٦/٧) بالعودة مرة أخرى إلى سيناء لاحتلال مواقع تحددت لهم هناك .

أحـدث ذلـك أرتبـاكـاً شـديداً فى التحركات مما تسـبب عنه مضـاعفة الخسـاتر من طيران العدو . ودعت الزميل لطفى واكد قائد المقاومة فى القنطرة وأنا أرثى لحاله . حيث ان القنطرة غرب ليس بها قوات حرس وطنى إطلاقاً وأنه سوف لا يجد بالقنطرة عدداً كافياً من الشباب أو الرجال للمقاومة . بل كانت شبه خالية حتى من السكان والأهالى .

وفى بور سعيد توجهت رأسـاً إلى المحـافـظة وكان المحافظ الزميل فريد طولان وهنـاك التقيت بقائد الحرس الوطنى فى بور سعيد العقيد جمال السيد ابراهيم وقد سـبق أن خدمت معه بالكتيبة التاسـعة بالجيش .

عجبت حيث وجدت العقيد جمال السيد فى روح معنوية عالية خصـوصاً عندما توجهت معه إلى معسـكر الحرس الوطنى . وهناك علمت سـر ارتفاع روحه المعنوية حيث وجدت لفيفاً من الشـباب البور سـعيدى وعدداً كبيراً جداً من الطلبة تركوا معاهدهم ودراستهم للمسـاهمة فى الكفاح كذلك وجدت كثيراً من الـرجال والشـيوخ وكبار الموظفين ورؤسـاء المصـالح متطوعين فى الحرس الوطنى منهمكين فى أعمالهم وتدريبهم فى همة وروح معنوية مرتفعة وقد أنسـاهم دورهم الوطنى قسـوة الهزيمة وفى عيونهم تصميم على الجهاد حتى أخر رمق . كذلـك من المشـاهـد التى قوت من عزيمتى وجـود عدد كبير من الشـباب اليونـانى المقيم فى بور سعيد والـذين أصـروا على المشـاركة فى الجهاد وكانوا يلتفون حول قائدهم جمال السـيد فى فخر واعتزاز بمدينتهم الباسـلة بور-سعيد .

وبعد مقابلة كل هؤلاء بالإضـافة إلى عدد كبير جـ ممن سـبق وأشـتركوا معى فى الكفاح المسـلح أثناء العدوان الثلاثى سنة ٥٦؛ انتقلت المعنويات المـرتفعـة لى أنا شـخصياً وشـعرت بسـكينة غريبة ، وارتفعت معنوياتى إلى

القمة وأنا بين هذه القلوب العامرة بالوطنية والتصميم وانعكست هذه الثقة فى نفسى وفيمن كانوا معى من الزملاء المتطوعين المرافقين لى . وفى الحال انتخبت مع العقيد جمال السيد عدداً من شباب الحرس الوطنى البور سعيدى للعمليات الخاصة وتولى تنظيمهم والتخطيط لهم المهندس عاطف زيد .

ومساء يوم ١٩٦٧/٦/٧ اذاعت صوت أمريكا أن اسرائيل قد تمكنت من الاستيلاء على بلدة رمانة بسيناء وهى قرية صغيرة بها بعض آبار مياه على بعد ٣٢ كيلو متر فقط من القنطرة وبور فؤاد وبذلك اصبحت بور فؤاد (البر الشرقى لبور سعيد) والقنطرة شرق مهددتين تهديداً مباشراً .

وفى يوم ٧٦/٦/٨ ، كان أهم واجب أمامى هو الدفاع عن بور فؤاد (البر الشرقى لبور سعيد) بعد أن تأكد خبر استيلاء إسرائيل على رمانة . ذهبت مع قائد الحرس الوطنى والمهندس عاطف زيد قائد الوحدات الخاصة وقمنا بجولة استكشافيه حول وداخل بور فؤاد وفى الترسانة البحرية هناك . ثم مداخل بور فؤاد من البر ومن بحيرة البردويل (امتداد شاطئها مع شواطىء سيناء) ثم قمنا باستكشاف الطريق الموازى للقنال وهو مدخل بور فؤاد من القنطرة شرق .

وكان توقعنا فى حالة أي نية للعدو لاحتلال مدينة بور فؤاد أن يكون طريق شاطىء القنال من القنطرة هو طريق التقدم الوحيد المحتمل حيث أن طريق الساحل عن طريق بحيرة البردويل مقطوع بمجرى مائى عميق بين البحر الأبيض وبحيرة البردويل ويصعب لأى قوات ميكانيكية أو مشاة للعدو عبور هذا القطع المائى الا بمعدات عبور ثقيلة واستبعدنا إلى حد ما قيام اسرائيل بالتقدم نحو بور فؤاد على هذا الطريق الساحلى ، وركزنا خطة دفاعنا الأساسية عند موقع يعتبر عنق زجاجة على طريق القنطرة بور فؤاد على امتداد القنال ،

وفى موقع أمام نقطة رأس العش تقريباً (على البر الغربى) . انتخبنا موقعاً دفاعياً فى هذه المنطقة المقابلة لرأس العش ، وكان يحد هذا الموقع القناة غرباً وأرض رخوة شرقاً وكانت الأرض الرخوة فى مسافة شاسعة وملقى فيها كثير من المواسير والقضبان الحديدية ، ومبعثرة فيها بأعداد كبيرة . وأضاف المهندس عاطف زيد إلى خطة الدفاع خطة فنية بكهربة هذه المواسير والقضبان المعدنية بعد توصيلها بالأسلاك الكهربائية من مولد كهربائى ضخم وجدناه بالترسانة البحرية التابعة لهيئة قنال السويس فى بور فؤاد وعمل ترتيب تشغيله وقت الحاجة إذا ما تمكن العدو من الاستيلاء على الموقع الدفاعى الأمامى من عنق الزجاجة أمام رأس العش وبذلك تصبح الأرض الرخوه بما فيها من مواسير وقضبان مكهربة مانعاً يصعب على العدو اجتيازه قبل أن يصطدم بخط دفاع خلفى على مداخل مدينة بور فؤاد .

وقد تم احتلال الموقع الأمامى المقابل لرأس العش بعدد من أفراد الحرس الوطنى حوالى خمسين فرداً بأسلحتهم الخفيفة والمضادة للدبابات وقام باحتلال الموقع الخلفى المانع الكهربائى ١٥٠ فرداً من الحرس الوطنى ولم يكن فى هذا الوقت أى قوات من الجيش فى بورفؤاد سوى قاعدة للصواريخ المضادة للطائرات وعليها حراسة من جنودها .

مهزلة السلاح والذخيرة

أثناء انهاكى فى عملية الدفاع عن بور فؤاد وصلتنى إشارة لإيفاد مندوب لاستلام أسلحة وذخائر للمقاومة الشعبية من مخازن الجيش بالاسماعيلية وأن الجيش سيوفر العربات لنقلها . ذهب المندوب وعاد ومعه كمية من الأسلحة بدون ذخيرتها . ، وتكرر الطلب فى اليوم التالى وذهب المندوب وعاد ومعه ذخيرة لا تتناسب مع عيار الأسلحة التى تسلمناها .

وتكرر ذهاب المندوب فى اليوم التالى وأرسلوا لنا أسلحة مختلفة فى العيار عن الأسلحة التى تسلمناها . وكذلك مخالفة لعيار الذخيرة . ودخلنا فى حلقة مفرغة من الفوضى التى انعكست فى جميع المجالات وتأخر بذلك تشكيل قوات مقاومة جديدة من شعب بور سعيد لنكون قادرين على الدفاع عن بور سعيد وبور فؤاد بشكل جدى بالاعتماد الكامل على الشعب وليس على عدد من رجال الحرس الوطنى . كما أن شعب بور سعيد كان يتدفق على معسكرات الحرس الوطنى يطلب المشاركة فى الدفاع ليحارب بجانب قوات الحرس الوطنى .

فى نفس اليوم وافقت مصر على اقتراح مجلس الأمن بإيقاف القتال .

وفى مساء نفس اليوم (١٩٧٦/٦/٨) كنت مع المحافظ فى منزله ، واتصل به السيد زكريا محيى الدين وكلفه بإخلاء بور فؤاد من جميع السكان ، وكذلك من القوات المسلحة الموجودة هناك وسأل عنى وكلمته وكرر على عملية إخلاء بور فؤاد بالكامل وحتى من قوات المقاومة وعارضت فكرة إخلاء قوات المقاومة . وشرحت له سلامة موقفنا الدفاعى وأن قوات الحرس الوطنى الموجودة كفيلة بمقاومة أى هجوم عليها من الأعداء وأن الثبات فى بور فؤاد بقوات الحرس الوطنى أشرف لنا من هذا الانسحاب خصوصاً وأن معدات الترسانة البحرية فى بور فؤاد تقدر بمئات الملايين من الجنيهات وفى النهاية وافقنى على بقاء قوات المقاومة الشعبية فى بور فؤاد .

تركت المحافظ يذهب إلى مكتبه ليشرف على ترتيبات إخلاء مدينة بور فؤاد قبل الغروب . وتوجهت بنفسى إلى بور فؤاد مع بعض الزملاء المتطوعين ، وكان معى الصحفى جلال كشك . عندما وصلت إلى بور فؤاد .

كانت أخبار إخلاء المدينة قد وصلت إلى الأهالى هناك وأن الأها
يتجمعون عند المعدية الوحيدة حيث كانت هناك معدية أخرى جديدة صالح
للعمل ولكن بدون عمالها . وعملت على إحضارهم بالاتصال بالمحافظة
وقام عدد كبير من أصحاب اللنشات الراسية بالميناء بتشغيل لنشاته
للمساهمة فى عملية الإخلاء . ومع مرور الوقت تكاثرت حشود الأهالى
وتجمعت بدون نظام وبأعداد كبيرة حول المعدية واللنشات . وتصرفنا بأسر
ما يمكن لوضع نظام للإخلاء حتى لا تحدث حوادث نتيجة التكاثر والزحام
وكان هناك أحد ضباط البوليس ومعه مدفعه الرشاش وميكرفون وأخذ ؤ
التعاون معنا فى تنظيم عملية اخلاء الأهالى . وفجأة سمعنا صوت انفجا
شديد بالقرب من موقع المعدية وأخذ الأهالى يصرخون خوفاً ، ظناً منهم أ
العدو الاسرائيلى قد وصل إلى بور فؤاد ويقوم بالاعتداء على المدينة .

وتسبب هذا الفزع فى إسراع باقى الأهالى الذين كانوا لازالوا بمنازلهم ؤ
الخروج والجرى فى الشوارع فى حالة فزع شديد وقت الغروب . وكان منظره
جديراً بالشفقة الأطفال والأمهات يولولن والأباء ينادون على أطفالهم الشاردين
والأبناء الصغار يصرخون من الخوف ، ومهما أوتيت من مقدرة على الوصف
والتعبير فإنه لا يمكن التعبير الصادق عن مدى قسوة حالة الهجرة الفجائية
للسكان فى ظروف الخوف والفزع كما شاهدتها فى تلك اللحظة الحرجة . وكان
الرجال ينوؤون بحمل ما أمكنهم حمله من أمتعة ومقتنيات ضرورية لأسرهم
وبعض النساء يحملن طيورهن الحية والطيور هى الأخرى تشارك الأهالى فى
الفزع والصباح ولم يطل الوقت لفترة الفزع نتيجة الانفجار حتى حضر أحد
رجال الحرس الوطنى وأبلغنا أن هذا الانفجار كان نتيجة تدمير رجال قاعدة
الصواريخ لمعداتهم قبل انسحابهم كما صدرت إليهم الأوامر بذلك . ومن
خلال الميكروفون أخذنا ننادى على المهجرين من الأهالى بالتزام الهدوء حيث

ان الانفجـــار لم يكن لوجـود الجيش الإسرائيلى بل من فعـل رجـال قاعـدة الصـواريخ المصـرية . وعــاد الهــدوء إلى عملية الإخـلاء وأخـذت تنتـظم خصـوصاً بعد أن تم تشـغيل المعدية الثانية وكان الاخلاء يتم حسب أسبقية النساء أولاً بأطفالهن ثم كبار السن من الرجال وآخر من أخلى كان رجال القوات المسلحة ورجال قاعدة الصواريخ .

ومما عجل بعملية الإخلاء عبر القنال العدد الكبير من اللنشات الخاصة التى تطوع أصحابها بتشغيلها للمشاركة فى هذا العمل الإنسـانى . عدت مع آخر فوج من المنسحبين مع الزملاء الذين رافقوه فى هذا العمل وتركنا وراءنا مدينة بور فؤاد موحشة ساكنة خالية من الحياة ولكن كانت هناك قوات المقاومة الشعبية من رجال الحرس الوطنى تملأ الفراغ وتقوم بواجبها الوطنى فى الدفاع عن منطقة غالية من أرض الوطن هى بور فؤاد .

تهديد بور سـعيد من البحر

بعد إتمام عملية إخلاء الأهالى من مدينة بور فؤاد ، وبمجرد وصولى إلى البر الغربى فى بور سعيد علمت أن بعض الطائرات المجهولة قد قامت بإغراق سفينـة التجسس الأمريكية ليبرتى بالقرب من شواطىء إسرائيل ، وقد رفع ذلـك من روحنـا المعنـوية ، وتـوجهت إلى رئـاستى الخلفية فى مبنى الاتحاد الاشتراكى وكان هناك أمين الاتحاد الاشتراكى فى بور سعيد الأستاذ محمد رشدى .

اتصل بى المحافظ من مكتبه ، وأبلغنى أن رادار غرفة عمليات مدفعية السواحل فى بور سعيد التقط ما يفيد أن هناك تحركات لقطع بحرية متقدمة من البحر الأبيض فى اتجاه بور سعيد ، وأنها على بعد حوالى ٤٠ كم وكان التخمين

أن الأسطول الأمريكي هو الذى يتحرك . وكان الوقت قبل منتصف الليل بقليل . وبعد أن علمت القيادة السياسية بالقاهرة بهذا الخطر القريب أمرته بالتعاون مع مدير البنك الأهلى هناك ، لترحيل رصيد العملة الصعبة فوراً إلى القاهرة وترك العملة المصرية كما هى . ثم قال أنه سوف يلحق بى فى مبنى الاتحاد الاشتراكى لينضم إلينا حتى يزول هذا الخطر .

حضر المحافظ وكان دائم الاتصال بغرفة العمليات . وبعد منتصف الليل بقليل بلغنا أن التحركات البحرية المعادية أصبحت على بعد ٣٠ كم . وكنت قد اتصلت بقائد الحرس الوطنى قبل ذلك لتوزيع الباقى من قواته على طول الشاطىء بأسلحتهم الصغيرة وبعض أسلحة خفيفة مضادة للدبابات لمواجهة هذا الخطر المرتقب . وقمت بالمرور عليهم ووجدت حشداً كبيراً من الأهالى قام القائد جمال السيد إبراهيم بتسليحهم بالبنادق بدون ذخيرة مكتفين بالسناكى وجميعهم منتشرون . وقبل الفجر علمنا أن التحركات البحرية وصلت إلى مسافة ١٥ كم . وتوترت أعصابنا ولكن الحمد لله توقفت التحركات عند هذه المسافة .

وعندما بدأ بزوغ الصباح كانت الأخبار لا تزال تفيد بتوقف التحركات على نفس البعد . عندئذ شعرت بكثير من الراحة خصوصاً وأن هذه القطع البحرية توقفت لمدة لا تقل عن ساعة دون تقدم . وكان ذلك دليلاً على أنها عدلت عن الاعتداء على بور سعيد . وبعد ظهور ضوء الشمس بلغنا أن التحركات البحرية المعادية أخذت تبتعد عن شواطىء بور سعيد فزال التهديد والخطر . وكان المحافظ يبلغ القاهرة عن هذه التحركات أولاً بأول .

وكان استنتاجنا أن القيام بمثل هذه التحركات بهذا الأسلوب من التقدم ثم التوقف ثم الابتعاد . يدل على أن القوات الأمريكية بعد ضرب سفينتها

ليبرتى لم تكن متأكدة من هوية الطائرات التى اعتدت عليها وكانت تظنها مصرية وأرادت الانتقام من ضرب هذه السفينة بتقدم أسطولها فى اتجاه بور سعيد أو الشواطىء المصرية لضربها ولكن بعد فترة تأكدت أن الطائرات إسرائيلية ولذلك تراجعت .

بعد أن اطمأنت خواطرنا عند زوال هذا التهديد البحرى الأمريكى انصرف المحافظ ليعود إلى مكتبه ، وبدأت أنا بالمرور على قوات الحرس الوطنى والمتطوعين فى مواقعهم التى احتلوها أثناء الليل الطويل الشاق . ووقفت معهم أشكرهم على هذا الموقف الوطنى بتحملهم مسئولية الدفاع عن أرضهم ومدنيتهم وكان من بينهم كثيرون من كبار السن من رؤساء المصالح الحكومية والموظفين يحملون أسلحتهم فى رجولة ومع كل منهم كمية من الذخيرة المسلمة له يحملها داخل منديل لعدم وجود مهمات عسكرية كافية لحمل وحفظ هذه الذخيرة وكل منهم يربط هذا المنديل فى سلاحه زيادة فى الحرص . منظر يهز المشاعر حيث لم يتقاعس عن الدفاع عن بور سعيد أى مصرى حتى كبار السن غير مبالين بمشقة العملية وقسوة رطوبة الجو ليلاً وهم يبيتون فى العراء .

الدفاع عن بور سعيد

منذ وصولى إلى بور سعيد كانت خطة الدفاع عنها تعتمد فقط على قوات الحرس الوطنى القليلة العدد ، وبعد أن توجه حوالى ٢٠٠ فرد منها للدفاع عن بور فؤاد أصبح الباقى لا يكفى إطلاقاً للدفاع عن بور سعيد فشرعت فى إعداد وتجهيز عدد كبير من الأهالى للاشتراك بصفة رئيسية فى المقاومة الشعبية كما حدث فى عام ١٩٥٦ . وأرسلت عدة مرات فى طلب السلاح والذخيرة ولكن فى البداية وصلنا السلاح بدون ذخيرة . ثم حصلنا على

ذخيرة لا تطابق عيار السلاح وتكرار ذلك أخرنا كثيراً فى تسليح الأهالى ومع ذلك وضعت خطة للدفاع عن بور سعيد من واقع تجربتى أثناء عدوان سنة ١٩٥٦ ولم تنفذ هذه الخطة إلا بعد مدة طويلة عندما انتظم وصول السلاح والذخيرة اللازمين .

وقد كانت الخطة بسيطة ولكنها محكمة وتحقق تأمين الشعب أثناء المقاومة فقد ركزنا على حفر مواقع دفاعاتنا فى المناطق السابق النزول فيها عام ١٩٥٦ بواسطة رجال المظلات وقوارب الإنزال وكانت تنحصر فى مناطق المناخ والجميل والجبانات والرسوة ووابور المياه وبطول الشريط الساحلى ومدخل الميناء . وقام الأهالى متطوعين بجهودهم الذاتية وبأدواتهم بحفر خنادق وخنادق مواصلات بين المدافعين تربطهم بأطراف المدينة على أن تستخدم كملاجىء ، من الغارات الجوية وضرب الاسطول ، لجميع أهالى المدينة ، وذلك لتفادى هدم المنازل عليهم . كما وفرنا تجهيز نقط مراقبة مجهزة بتليفونات فى جميع الأماكن السابق ذكرها لمراقبة أى نزول أو غزو والتبليغ عنه أولاً بأول بأجهزة تليفونية وأجهزة لاسلكى خفيفة الحمل (وكانت نقط المراقبة حول المدينة عبارة عن خنادق محفورة بطول قامة الرجل مستخدمين بعض المواسير الضخمة ومغطاة من أعلا بغطاء يسهل سحبه ورفعه كما كان متبع فى المقاومة الشعبية فى فيتنام) وذلك حتى لا نفاجأ بإنزال أو هبوط للعدو فى أى منطقة دون الاستعداد لها بالمقاومة وبذلك أصبح حول بور سعيد حزام دفاعى شعبى متكامل يمكنه أن يحدث أكثر الخسائر لأى عدو يفكر فى الغزو .

وفى يوم الجمعة ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ أعلن فى الأذاعة منذ الصباح ولعدة مرات أن الرئيس جمال عبد الناصر سيلقى خطاباً فى السابعة والنصف مساء على الشعب وطول هذا اليوم كنت منهمكاً فى إعداد خطة الدفاع عن بور سعيد

نفسـها . وكنت فى منزل المحافظ وقت إلقاء خطاب عبد الناصر أتناول غذائى وجـاء فيه تنحيه عن رئـاسة الجمهورية وقرار تعيين زكريا محيى الدين رئيسـاً للجمهورية . توجهت لمكتب المحافظ وكان قد سبقنى إلى هناك بعد الخطاب مباشـرة ووجدت جموعاً غفيرة من شعب بور سعيد حول مبنى المحافظة تهتف فى انفعـال وعصـبية مطالبة باسـتمرار عبد الناصر فى موقعه وكنت فى مكتب مجاور لمكتب المحافظ مع جمع من موظفى المحافظة وقيادات الاتحاد الاشـتراكى وكان من بين الحاضـرين من هم ضـد فكرة المطالبة باسـتمرار عبد الناصر فى موقعـه ويؤيدون فكـرة تنحيه وهـو الفدائى غريب محمد حضـرى (الشهير بغريب تومى) وهو من زملاء الكفاح بالاسـماعيلية وقال بانفعال إنه مادامت إسـرائيل عدوتنـا هى التى تدبـر وتـرغب فى التخلص من عبد الناصر فإننا كشـعب له مقوماته وكرامته علينا أن نتمسـك بعبد الناصر حتى ولو لم يكن حباً فيه ولكن كرهاً فى اسرائيل .

وبعـد العـاشـرة مسـاء أخـذ المـذيع يكـرر أنه سـيذيع بياناً من زكريا محيى الدين ثم فجأة أذاع بياناً من جمال عبد الناصـر ألقاه المذيع جاء فيه أن جمال عبـد النـاصر إزاء مشـاعـر الشـعب ومجلس الأمـة المطالبة بعودته فإنه سـيذهب صـباح اليوم التالى إلى مجلس الأمة لمناقشـة موضـوع تنحيته .

التعـزيـز

منـذ يوم ٦٧/٦/١٢ بدأت عملية إمـدادنـا بالسـلاح والذخيرة تنتظم ووصـلتنا شـحنات كثيرة منها وبدأنا فتح مراكز تدريب شـعبية على السـلاح قبل توزيعه على الأهالى . ووصـلت قوة من المتطوعين المدربين من رجال الرقابة الإدارية بقيادة محمـد عبـد المجيد محيى الـدين ومعه عدد كبير من الضـباط السـابقين بالجيش منهم عبد القادر عبد العظيم ووجيه الدجوى . ثم وصـلت

قوة من صف وجنود الكلية الحربية يقودهم الضابط جميل القليوبى ، وانضمت للاشتراك فى الدفاع عن بور فؤاد مع قوات الحرس الوطنى هناك وصلت وحدات من الجيش معظمها من المدفعية وقوات الصاعقة ومعها عدد من الدبابات ، واستمر العبء الأكبر على عاتق المقاومة الشعبية للدفاع عن بور سعيد .

إخلاء الضباط والجنود والجرحى من داخل سيناء

منذ إيقاف القتال فى سيناء توالى وصول أفراد من رجال القوات المسلحة من سيناء إلى بور سعيد ذاتياً عبر ساحل البحر الأبيض وكان يتم التقاطهم دون أى تنظيم بواسطة لنشات شركة الرباط ببور سعيد وفى يوم ٦٧/٦/١٢ حضر الزميل سلامة عثمان ومعه ثلاثة أطباء هم محمود فهمى وعثمان صبرى وفاروق الخولى متطوعين فانضموا إلى المقاومة الشعبية وقام الثلاثة بالذهاب إلى سيناء عبر بحيرة البردويل وعادوا ووضعوا خطة كاملة لتنظيم هذه العملية وعاونهم فى ذلك بمجهود يشكر عليه كل من كمال أبو ذكرى الذى يملك قرية الصيادين ببحيرة البردويل ووضع جميع لنشاته وقوارب الصيد فى خدمة العملية وكذلك الشيخ عبد العزيز أبو مرزوقة عمدة بير العبد وشيخ قبيلة البياضية والشيخ عطية مرسى صباح وكلهم من سيناء . ثم تعاون معهم ضابط الصاعقة رفعت وزميله عبد الحميد .

وقام هذا التنظيم بإخلاء آلاف من الضباط والجنود الشاردين فى سيناء وعدة مئات من الجرحى . وفى مرحلة متقدمة أقام الجيش مركز إيواء فى بور سعيد ونظم عملية إخلائهم من بور سعيد إلى القاهرة . وفى بور سعيد قابلت أحد الضباط الذين حضروا شاردين من سيناء ولما سألته عن السبب فى عدم التحامهم مع الجيش الاسرائيلى وكان من الواجب بعد أن

فقدنا السيطرة الجوية أن يقوم الجيش المصرى بالالتحام مع الجيش الاسرائيلى بحيث يصعب على الطيران الإسرائيلى فى هذه الحالة أن يتدخل وكان هذا هو الأمر الطبيعى للخروج من مأزق السيطرة الجوية الإسرائيلية . وجاء رده ليعكس شعور وحالة ضباط الجيش تجاه قيادتهم وقال : «لم يكن لدينا كضباط الدافع لبذل أى مجهود لأننا لو انتصرنا كنا سننتصر لأجل أن يصل شمس بدران فتى القيادة المدلل ليكون رئيس جمهورية . وأضاف أن كل من كان وقد أوقعه الحظ السيء من كبار قادة الجيش أو الضباط ليواجه شمس بدران بأى معارضه أو خلاف فى الرأى كان مصيره التعذيب والاضطهاد والإذلال بما هو فوق طاقة البشر . فهل كنت تريدنا أن ننتصر لأجل أن يصل الانتهازيون إلى أعلى المراكز؟ » .

وبعد أن انصرف هذا الضابط علق الدكتور محمود فهمى الذى كان حاضراً هذه المناقشة بأن « هذه هى الخيانة الكامنة فى أوضح صورها » .

وظهر بعد ذلك أن ما توقعه الضابط كان صحيحاً حيث علم بعد ذلك أن شمس بدران كان فعلاً بعد الهزيمة من أول المرشحين لرئاسة الجمهورية وحتى قبل أن يتم التفكير فى زكريا محيى الدين .

وفى أحد الأيام قام فريق من سيدات الهلال الأحمر ببور سعيد بزيارة لقوات الدفاع عن بور فؤاد لتوزيع بعض الهدايا ودعونى لمرافقتهن . اصطف جنود الجيش من قوة الكلية الحربية بقيادة ضابطهم جميل القيلوبى ، وبعض أفراد من الحرس الوطنى . وكانت منازل وشوارع بور فؤاد خالية تماما ويسود المدينة كآبة موحشة كالمقابر وليس هناك أى مظهر للحياة سوى هؤلاء الجنود . وقامت السيدات بتوزيع الهدايا والحلوى على الجنود . ثم وقفت سيدة فاضلة كبيرة السن وأخذت تتحدث إلى الجنود وتقول لهم انها وزميلاتها أمهات

للجنود أولادهن الذين يدافعون عنهن وأنهن يدعون لهم من أعماق قلوبهن ويشددن من أزرهم ويفخرن بهم فكان لكلماتها وقع مؤثر عظيم فتأثر أحد الجنود الواقفين وأخذ يبكى بانفعال شديد حتى انهار وسقط مغشياً عليه وتأثر زملاؤه وأخذت دموع بعضهم تسيل متأثرين بكلمة هذه الأم الحنون .

تركت كلمة هذه السيدة الفاضلة أثراً كبيراً فى نفوس الحاضرين وبخاصة الجنود ورجال المقاومة . وصاح أحد الجنود بالهتاف « تحيا مصر ، تحيا مصر » فأعلن بهذا النداء أن الهزيمة العسكرية المريرة ليست سوى بداية للصمود والمواجهة .

وفى يوم الخميس ٢٢ يونيو دعانى القائد العسكرى لمنطقة بورسعيد اللواء المقدم كقائد للمقاومة الشعبية للقاء المارشال زخاروف رئيس هيئة أركانحرب القوات السوفيتية بعد مروره مع قادة الجيش المصرى الجدد على وحدات الجيش المصرى والمقاومة الشعبية فى بورسعيد وبورفؤاد .

وأثناء انتظار ميعاد الغذاء ونحن جالسون دارت مناقشة بينى وبين الفريق محمد فوزى وزير الحربية ، وكنت أتساءل عن مدى خطورة استطلاع الأقمار الصناعية على خطوطنا الدفاعية لأنى كنت قبلها قد لاحظت ليلاً مرور هذه الأقمار الصناعية فوق سماء المنطقة ولفت نظرى إليها أحد أفراد المقاومة أثناء مرورى عليهم فى مواقعهم . وكان رد الفريق فوزى أنه لاخطورة إطلاقاً من هذه الأقمار لأنه نظراً لارتفاعها الشاهق فإن أجهزتها لا يمكنها أن تميز بين العربة الجيب وجهاز الرادار .

وأجبته بأن هذا مخالف للحقيقة لأن الطائرة الـ Us الأمريكية التى سبق أن تمكن السوفيت من إسقاطها سليمة ، بعد فحص أجهزة التصوير التى

كانت بها وجد أن أجهزتها قادرة على تصـوير رأس المسـمار الشيشـة من ارتفاع ١٢ ألف قدم وتصـوير مانشـيت الجريدة على ارتفاع ٢٢ ألف قدم وقد نشـر كل ذلك فى أحد أعداد مجلة لايف الأمريكية الذى تصـادف لى الاطلاع عليها ضـمن موضـوع شامـل عن التصـوير وذلك قبل العدوان .

فوجىء الحـاضرون بالمارشال زخاروف يخبط بيده على الطاولة بشـدة ويوجه الكـلام بالإنجليزية إلى الفريق فوزى الذى كان بجانبه ويشـير قائلاً « المقاومة الشـعبية على حق » ويكمل حديثه « لأننا فى الاتحاد السـوفيتى لدينا جداول زمنية بمواعيد مرور الأقمار الأمريكية وأثناء مرورها فى سـمائنا نغطى ونموه جميع دفاعاتنا » .

وكان بجانب زخاروف أحد المترجمين الروس قام بترجمة الحديث بينى وبين الفريق فوزى له . لا عيب فى ألا يتمكن أى قائد من الاطلاع بنفسـه على كل ما يجىء بالمجلات ولكن يجب أن يكون لديه مكاتب متخصصة ومخابرات تمده بكل ما يمس عمله . عموماً لم يكن هذا غريباً عليه أو على من حوله من قادة الجيش الجدد لأنهم جميعاً كانوا مسئولين بشـكل أو بآخر عن الهزيمة . فيهم من كانوا يشـغلون مراكز قيادية عليـا فى الجيش ولكن الذى تغير فقط بعد الهزيمة هو المشـير عامر وهيئة مكتبه ولم يحدث التغيير الجذرى فى الجيش ونفس الشىء حدث فى القيادات السياسية العليـا والتى كان يجب أن تهتز هى الأخرى .

هل حدث تغيير ؟

صـدر قرار تعيين عبد المحسـن أبو النور قائداً للمقاومة الشـعبية يوم ١٩٦٧/٦/٢١ بدلاً من زكـريا محيى الـدين الذى دخل التشـكيل الوزارى واستدعيت مع باقى قواد المقاومة بمدن القنال لطفى واكد وإسـماعيل فريد

لحضور مؤتمر بالقيادة العامة برئاسة محسن أبو النور لبحث موضوع تدعيم وتدريب المقاومة الشعبية فى منطقة القنال . غادرنا مناطقنا واتفقنا على اللقاء صباح يوم انعقاد المؤتمر والذهاب معاً وللأسف وصلنا متأخرين عن موعد بدء الاجتماع وكان المجتمعون قد فرغوا من مناقشة موضوع توفير عدد من المدربين من رجال الجيش لتدريب أفراد المقاومة فى مدن بور سعيد والقنطرة والسويس والإسماعيلية . وكان الاجتماع يضم جميع قادة أسلحة الجيش المصرى ورئيس هيئة العمليات اللواء أحمد اسماعيل على . وأشار عبد المحسن أبو النور على اللواء أحمد اسماعيل بإعادة مضمون ما تم بحثه والاتفاق عليه قبل حضورنا .

وأخذ اللواء أحمد اسماعيل يذكر مواد التدريب اللازمة لرجل المقاومة من تدريب على جميع أنواع الأسلحة الصغيرة والمدفع الرشاش الثقيل والخفيف وأسلحة المشاة المضادة للدبابات والقنابل اليدوية والتدريب العملى على ضرب النار على كل هذه الأسلحة ثم القتال فى المدن وذكر فى نهاية حديثه أنه جعل مدة التدريب على كل هذا البرنامج ثلاثة أسابيع وهنا وبدون استئذان للكلام وجدت نفسى انفجر بسخط على هذا الأسلوب المظهرى فى معالجة الموضوعات الجادة وبهذا الاستهتار والاستهانة حتى بعقلية الموجودين حيث إننا نعلم جيداً أن مصر تعتمد فى هذه المرحلة اعتماداً أساسياً فى الدفاع عن هذه المناطق على المقاومة الشعبية لانهماك الجيش فى إعادة تنظيم صفوفه ، وإعادة تسليحة لفترة تطول .

ولا يصح أن تتعامل القيادات مع المقاومة فى أهم أمورها وهو اعدادها للقتال الجدى بهذا الإسلوب المظهرى الذى دأبنا عليه حتى تسبب فى الهزيمة لأن مثل هذا البرنامج التدريبى المطلوب لا يكفيه بأى حال من الأحوال

الأسابيع الثلاثة وقد تكون كافية للتدريب على مادة واحدة وهى القتال فى المدن . قام السيد عبد المحسن أبو النور بتهدئه الجو واقترح أن تكون المدة خمسة أسابيع أو شهراً . وفى الحقيقة انى لم أكن أعلم أن المتكلم هو اللواء أحمد اسماعيل لأننى كنت بآخر طاولة الاجتماع على نفس الجانب وهو فى أولها ولكننى وجدته بعد الانصراف يتجه إلى ويحدثنى فى طيبة . ولكنها قد تكون غير مطلوبة فى مثل هذه الأمور ويأخذ على أننى أحرجته أمام المجتمعين خصوصاً قادة الجيش الموجودين كلهم تحت قيادته .

معركة رأس العش

بعد ظهر أحد الأيام كنت مع لطفى واكد فى القنطرة غرب فى مركز رئاسته فى غرفة بأعلى المبنى تكشف نافذتها البر الشرقى من القنال . وأبلغنا الحارس بأعلى المبنى أنه يرى قوات إسرائيلية متحركة فى البر الشرقى فى اتجاه الشمال . وشاهدنا من النافذة طابوراً إسرائيلياً عبارة عن ست دبابات فى المقدمة يتبعها عشر عربات مصفحة ثم عشرة لوارى محملة بالجنود متجهة إلى الشمال وهذا يعنى أن هناك احتمال تحضير لهجوم اسرائيلى على بور فؤاد . واتصلت تليفونياً بقائد الحرس الوطنى فى بورسعيد جمال السيد وأبلغته بتفاصيل ما شاهدته وأشرت عليه بتبليغ هذه التفاصيل إلى قيادة الجيش فى بورسعيد اللواء المقدم للاستعداد لمواجهة هذا الهجوم المنتظر وكلفته بتبليغ المهندس عاطف زيد المسئول عن العمليات الخاصة بالمقاومة بالاستعداد فى بور فؤاد لتجهيز عملية كهربة المانع الموجود أمام قوات المقاومة الخلفية على طريق تقدم القوات الإسرائيلية ، وبإرسال جميع قوات الحرس الوطنى الموجودة فى بورسعيد بالإضافة إلى متطوعى الرقابة الإدارية بقيادة محمد محيى الدين إلى بور فؤاد لتعزيز قوة الدفاع الشعبية هناك على أن يقوم بتوزيعها بنفسه

وأننى قادم فى الحال .

وأنا على الطريق إلى بور سعيد شاهدت الطابور الإسرائيلى على البر الشرقى يواصل سيره فى اتجاه بور فؤاد ببطء يتناسب مع سرعة الدبابات . وعند وصولى إلى بور سعيد علمت أن قيادة الجيش هناك أرسلت فصيلة من الصاعقة ومعها ست دبابات إلى الموقع الأمامى على طريق تقدم الطابور الإسرائيلى واحتلوا مواقع دفاعية على أجناب الطريق مع قوة الحرس الوطنى هناك . علمت أيضاً أن قائد الصاعقة استلم من قيادة المقاومة عدداً كافياً من أجهزة الاتصال اللاسلكى الخفيفة Walhy Talky كنا استلمناها من الجمرك وذلك لتستخدمها القوات المصرية فى المعركة المنتظرة .

ذهبت إلى بور فؤاد ومررت على قوات المقاومة الأمامية والخلفية ووجدت أن الإسرائيليين احتلوا مواقع فى مواجهة قواتنا استعداداً للهجوم ثم طمأننى المهندس عاطف زيد وكان يعاونه وكيل النيابة المتطوع مصطفى سحيم على المانع الكهربائى السابق تجهيزه وأن المانع سوف تسرى فيه الكهرباء من المولد الموجود بالترسانة عند إعطاء الإشارة إذا ما تمكنت القوات الإسرائيلية من الاستيلاء على الموقع الأمامى . وعند الغروب تقريباً وأنا فى بور فؤاد بدأت المدفعية المصرية من مواقعها فى بور سعيد توجه نيراناً شديدة ومكثفة على مواقع الجيش الإسرائيلى أمام بور فؤاد وأخذت المدفعية الإسرائيلية ترد هى الأخرى بضرب بور سعيد رداً على ضرب المدفعية المصرية .

وعدت مع مصطفى سحيم إلى رئاستى فى بور سعيد وعندى ثقة كبيرة من جميع تجهيزات المقاومة فى بور فؤاد . وأخذت أحد أجهزة اللاسلكى الخفيفة وقمت بفتحه على نفس تردد قائد الصاعقة فى بور فؤاد . وكانت كلها إشارات تدل على التأكد من حالة الاتصال فقط وواليت الاستماع إلى ما يذاع ولم يكن

فيه إفصاح عن أى خطة أو أوامر وكان ذلك ضرورياً لسرية خطة المعركة المقبلة . استمر تبادل ضرب المدفعية طوال الليل .

وقبل منتصف الليل طلبنى المحافظ وطلب منى تجهيز مندوب من عندى يذهب مع حملة من عربات سلاح المهندسين إلى مخازن مواد النسف الموجودة عند المقاومة ليسلمهم أى كمية يطلبونها لأن قيادة الجيش فى بور سعيد مصممة على نسف الترسانة البحرية فى بور فؤاد قبل أن يستولى عليها الجيش الإسرائيلى . وقبل أن يصل مندوب سلاح المهندسين اتصلت بغرفة عمليات الجيش وأبلغته أننى سأسلم له ما يريد من مواد النسف ولكنى اقنعته بأن الموقف فى بور فؤاد مطمئن وأن قواتنا هناك قادرة على إيقاف التقدم الإسرائيلى لأننى كنت معهم قبل الغروب . ولكن زيادة فى الحرص طلبت إليه أن يقوم بالتجهيز للنسف فقط وعدم البدء فيه إلا بعد التأكد من سقوط موقعنا الأمامى ، وأن لدى جهازاً لاسلكياً يمكن التأكد عن طريقه ولم يكن هناك فعلاً أى اتصال بين رئاسة القوات فى بور سعيد وبين قوات الجيش فى بور فؤاد .

وتم استلام سلاح المهندسين لمواد النسف وأرسلت أحد الأجهزة اللاسلكى إلى قيادة القوات وقبل أن تعبر عربات الجيش المحملة بمواد النسف وبعد منتصف الليل بقليل سمعنا صوت تبادل نيران معركة بور فؤاد بين قواتنا والقوات الإسرائيلية وبالاستماع إلى جهاز اللاسلكى علمت أن قواتنا المتمركزة على أجناب الطريق تمكنت من تدمير دبابتين إسرائيليتين أماميتين مما تسبب فى سد الطريق أمام تقدم باقى القوات الإسرائيلية وبعدها بقليل علمت عن طريق الجهاز أيضاً أن دبابتين إسرائيليتين فى مؤخرة القوات الإسرائيلية تم تدميرهما وأن قواتنا على الأجناب تمكنت من إحداث

خسائر كبيرة جداً فى القوات الإسرائيلية التى وقعت داخل مصيدة يستحيل عليها التقدم ولو شبراً آخر وأن قواتنا مسيطرة على الموقف تماماً .

تأكدت عندئذ من النصر فاتصلت بغرفة عمليات الجيش وهنأتهم على هذه النتيجة وطلبوا منى موافاتهم هناك . عند وصولى إلى غرفة العمليات وجدت زميلى فى الكلية الحربية اللواء عبد المنعم خليل حاضراً لتوه من بور فؤاد حيث كان يشرف على العملية من هناك . وأبلغنى أنه تولى هذه القيادة بعد الغروب فقط وكان حاضراً بالصدفة للمرور على قيادة بور سعيد وأثنى على كفاءة وتعاون المدفعية التى سهلت مأمورية المقاتلين كما أبلغنى أن معظم مصفحات وعربات الجيش الإسرائيلى قد تحطمت وأنهم قاموا بالانسحاب غير المنظم أثناء الليل . كذلك علمت أن مواد النسف لم تستخدم ولكن الجيش احتفظ بها فى الترسانة لاستخدامها عند اللزوم .

انتقل خبر هذا النصر إلى شعب بور سعيد منذ الفجر بعد أن بات ساهراً ومترقباً النتيجة على أصوات الاشتباكات . وفى الصباح خرجت المدينة عن بكرة أبيها تستقبل أخبار المعركة بفرحة تدمع العيون وكان موكباً شعبياً أعاد ثقة الشعب فى مقاتليه حتى أن السيدات قمن بغسل الدبابات التى اشتركت فى المعركة بالمياه زيادة فى التكريم وقدم الشعب وجبة الإفطار إلى إخوانه جنود وضباط الصاعقة . ومهما أوتيت من بلاغة لا يمكننى وصف هذا الاستقبال الشعبى الرائع وكان فيه أبلغ المعانى لتجاوب الشعب مع جيشه إذا ما أدى الأمانة فى الذود عن الوطن وأن النصر ليس ببعيد إذا صدقت النية والعزيمة والعمل .

انسحب الجيش الإسرائيلى من مشارف بور فؤاد ولم يفكر ثانية فى العودة مثل هذه المعركة . لأنه واجه جدية وفدائية ومقاومة من الجيش والشعب .

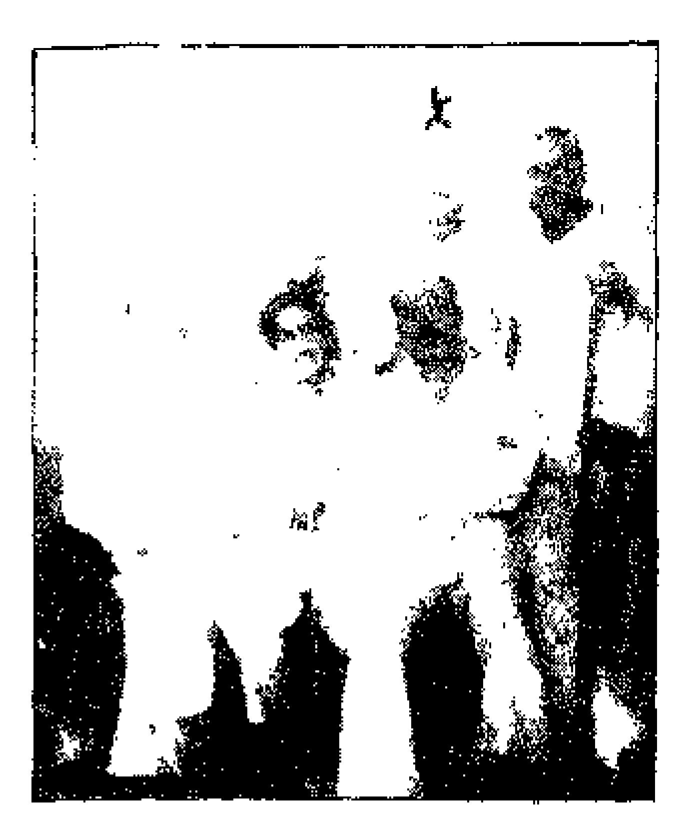
وقام الصحفى جلال كشك بكتابة مقال لجريدة الجمهورية عن أبعاد ونتائج هذه المعركة أنهاها بثلاث كلمات صادقة « وقفنا وقاتلنا فانتصرنا » ولكن الرقابة حذفت الكلمات الثلاث !

العودة للعمل بالاتحاد الاشتراكى

بعد معركة رأس العش عدت إلى القاهرة لعملى بالاتحاد الاشتراكى لفترة قصيرة حتى صدور بيان ٣٠ مارس والذى كان يراد به إعادة التنظيم والمراجعة الشاملة . وفعلاً تتابعت الأحداث السياسية الداخلية والخارجية مما جعلنى أقضى كثيراً من الوقت خلال الأحداث فى مراجعة النفس وتأمل الأسباب التى أوصلتنا إلى هذه الدرجة من الفشل والضياع .

وقد تكون فترة التأمل والمراجعة هذه مجال بحث أو دراسة أو مذكرات أخرى ، أسأل الله أن يهبنى العمر والمقدرة ، ومن واقع الوثائق التى لدى ، لعمل كتاب آخر عن تجربة فترة العمل السياسى فى الاتحاد الاشتراكى العربى .

عندمـــا تتكــلم الصــورة




مع الضباط الجرحى فى مستشفى الجمعية الخيرية



أثناء الخدمة بالسجن الحربى بعد حملة فلسطين



فى وحدتى بالعريش يوم إعلان ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢



مع الزميلين كمال الدين رفعت وسعد عفرة

YOU WILL DIE

SOON OR LATE

BY COMMANDOS... OR PLAGUE...

نمـوذج من المنشـورات التى كانت توزع داخل القاعدة البريطانية بالقناة .



تموذج آخر من المنشورات



مع المندوب اليونانى وسيلى سباثو بولوس خلال فترة
الكفاح المسلح بالقناة قبل اتفاقية الجلاء



أثناء فترة الكفاح المسلح فى القناة مع الزميل عمر لطفى

(استمارة رقم ٢ ب ش)

بطاقة شخصية

باسم

نمرة

صدرت بتاريخ ... سنة ١٩٥٠

توقيع صاحب البطاقة

— ٢ —

الجنسية ... جهة الميلاد

المهنة

معرفة القراءة والكتابة

الموطن الانتخابى ... محافظة

رقم القيد ... حرف

محل السكن

مركز ... مديرية
قسم ... محافظة

تغيير السكن الى مركز أو قسم آخر

محل السكن

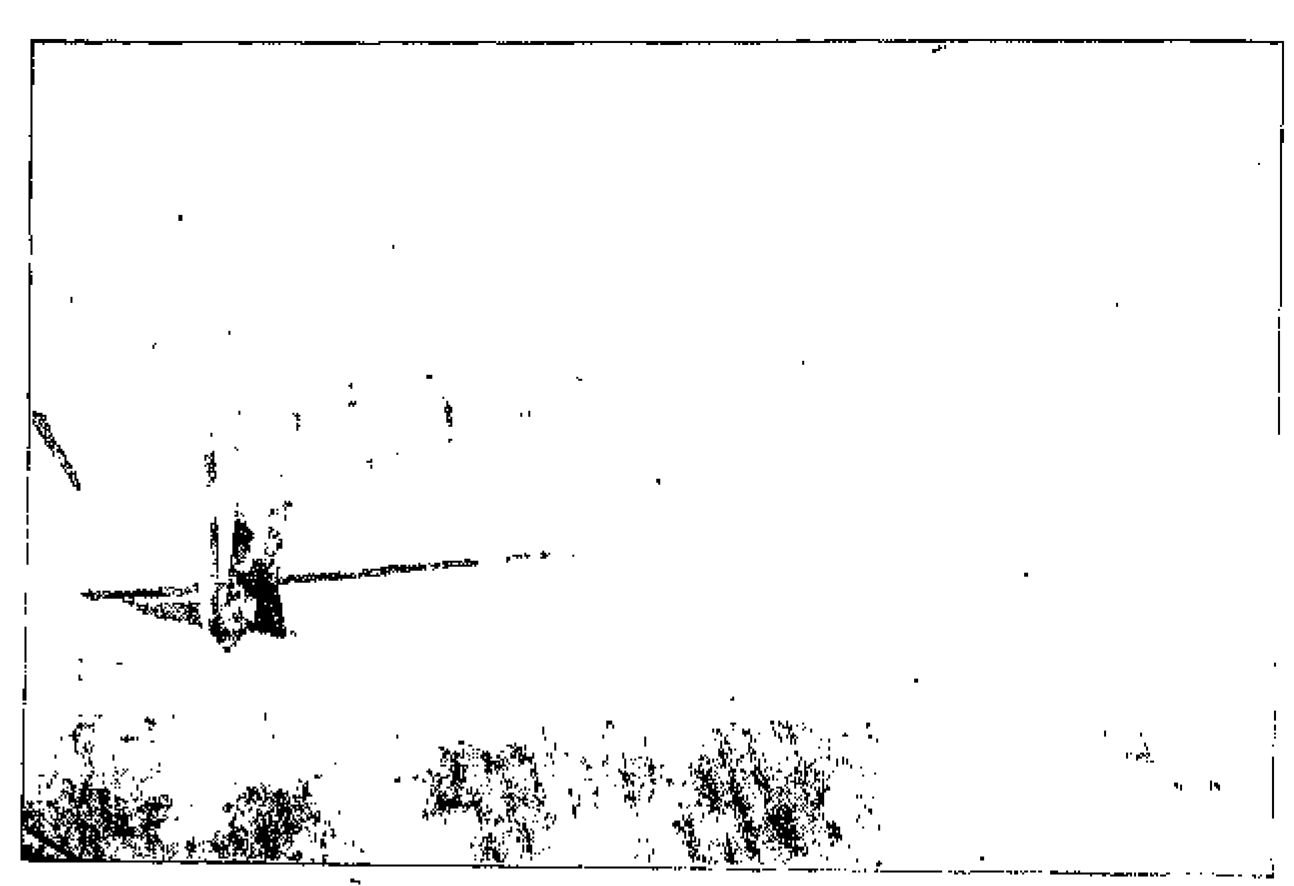
مركز ... مديرية
قسم ... محافظة

تاريخ ... سنة ١٩ توقيع الموظف المختص

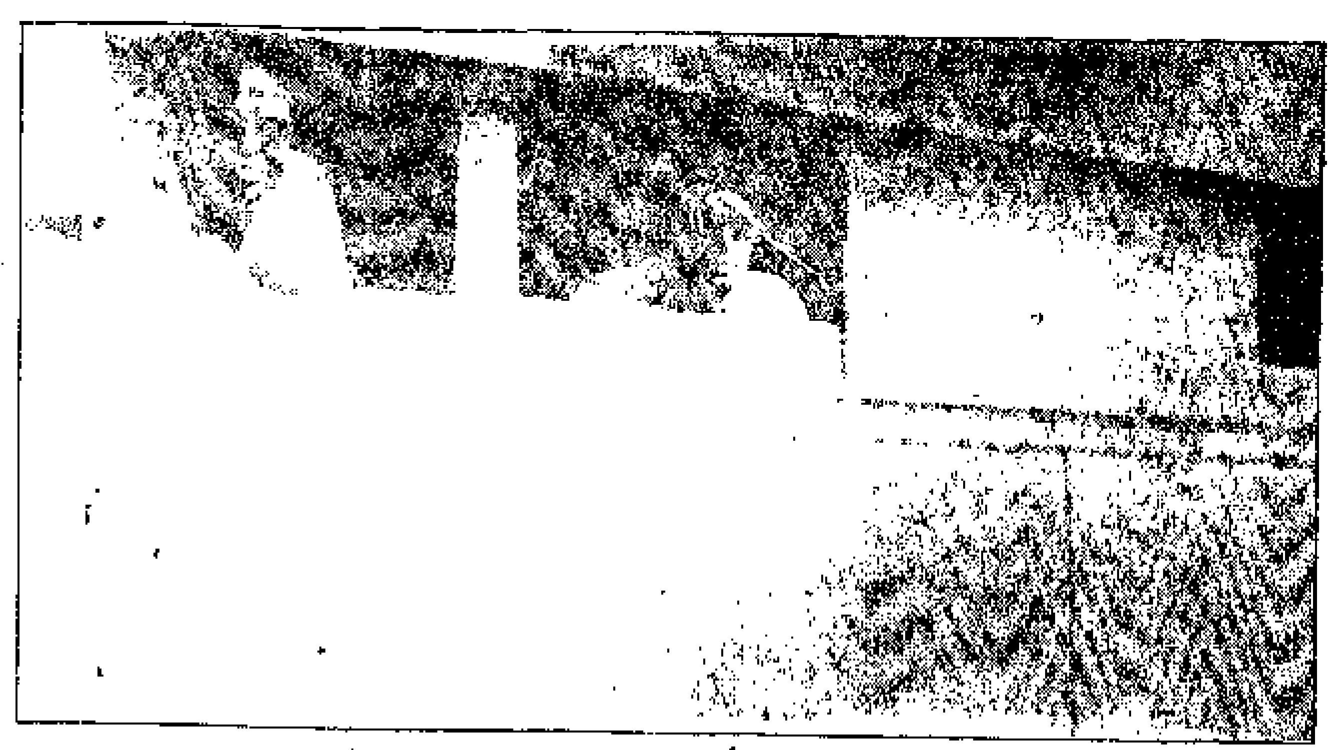
صورة لبطاقتى المزيفة بالشخصية الجديدة أثناء المقاومة السرية فى بور سعيد (العدوان الثلاثى)



صورتى وأنا فى زى
العجلاتى غريب
محمود غريب



المساعد عبد الفتاح فرج فى الطريق لزيارة آبا (معقل المهدية)



فى الطريق إلى رحلة الأبيض بالسودان مع الزميل عبد الفتاح فرج



الأستاذ صلاح محمد على مدير وكالة الأنباء العربية بالخرطوم ، والصورة فى « كوستى » خلال حادث اختناق عمال « الفلاته » .

مقبرة شهداء « الفلاته » فى كوستى يوم الحادث .



السيد عبد الرحمن المهدى



أتباع المهدى فى جزيرة آبا



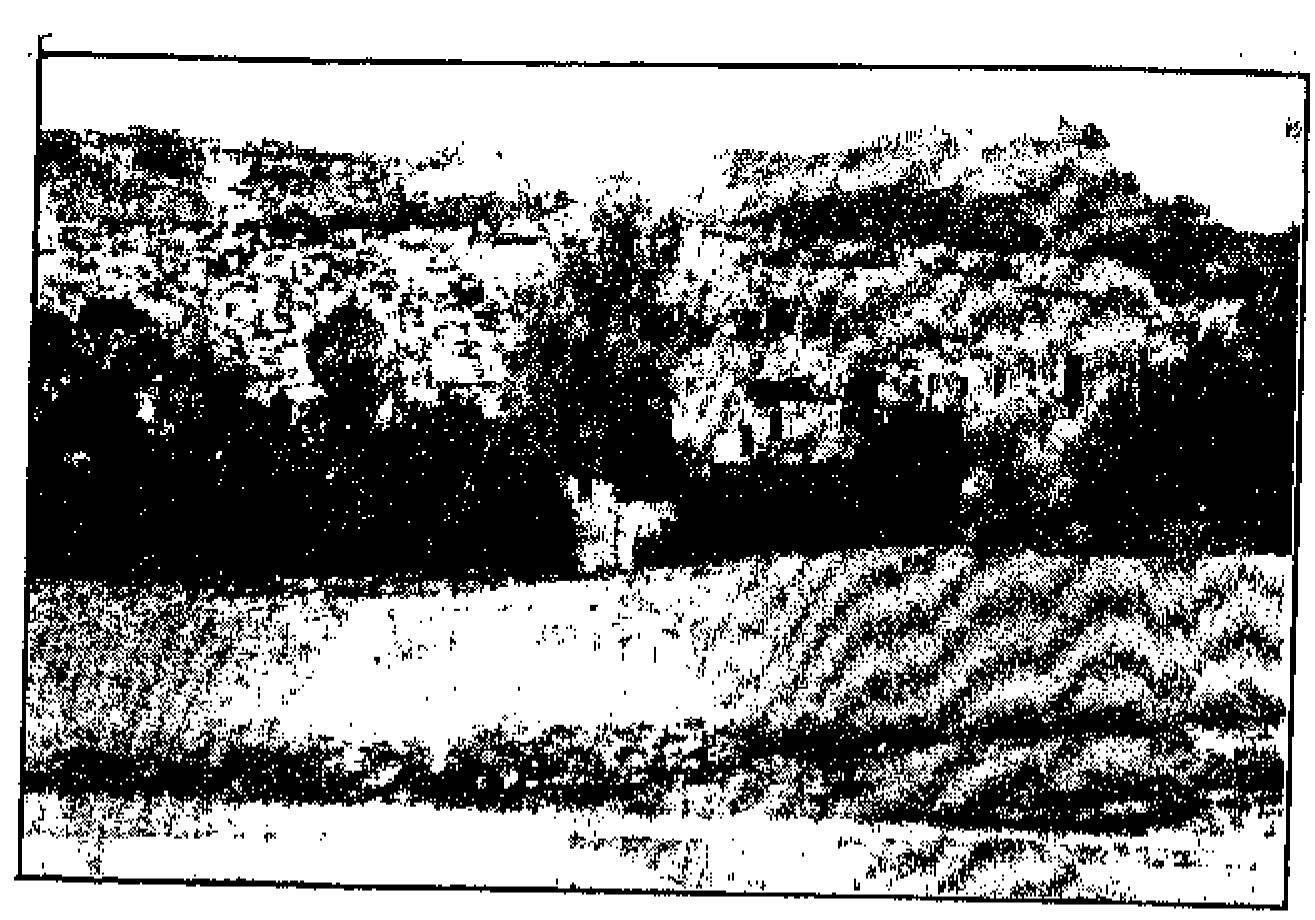
الملحق العسكرى زكريا العادلى إمام ، والسفير المصرى عثمان عبيد ، والمستشار السورى جهاد ضاحى والمؤلف بمناسبة تقديم أوراق اعتماد السفير المصرى .



المؤلف أثناء خدمته بالمخابرات العامة ومعه فى الصورة رئيس المخابرات العامة صلاح نصر ، وشعراوى جمعة الذى كان وقتها يعمل بالمخابرات العامة ، وزغلول كامل مدير مكتب صلاح نصر (المناسبة حفل خطوبة كريمة الرئيس جمال عبد الناصر)



فى مؤتمر العلوم والتكنولوجيا فى هيئة الأمم فى جنيف ويبدو فى الصورة رئيس وفد مصر الوزير صلاح هدايت والمؤلف (الرابع على يمين صلاح هدايت) .



القرية الجزائرية التى كان يسيطر عليها جيش التحرير



المؤلف مع الصحفى المصرى إسماعيل الحبروك فى القاعدة
الخارجية لجيش التحرير بالمغرب .



المؤلف مع أفراد جيش التحرير الجزائرى أثناء التدريب فى القاعدة الخارجية بالمغرب



جيش التحرير الجزائرى (جيش الداخل) .



فى الطريق إلى العريش قبيل عدوان ١٩٦٧



فترة المراجعة والتأمل بعد الهزيمة العسكرية حيث عدت
للعمل بالاتحاد الاشتراكى العربى .

محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

صدر من سلسلة
« كتاب الحرية »

العدد الأول :

هذا هو الإسلام (طبعتان) . . . . لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

العدد الثانى :

٧٢ شهراً مع عبد الناصر . . . . للأستاذ فتحى رضوان

العدد الثالث :

الطب والجنس (طبعتان) . . . . للأستاذ الدكتور مدحت عزيز شوقى

العدد الرابع :

الدولة والحكم فى الإسلام . . . . للأستاذ الدكتور حسين فوزى النجار

العدد الخامس :

أسرار السياسة المصرية فى ربع قرن . . . . للأستاذ عبد المغنى سعيد

العدد السادس :

مصر وقضايا الاغتيالات السياسية . . . . للأستاذ الدكتور محمود متولى

العدد السابع :

الطب النفسى . . . . للأستاذ الدكتور عادل صادق

العدد الثامن :

أزمة الشباب . . وهموم مصرية . . . . للأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

العدد التاسع :

المسيحية والإسلام على أرض مصر . . . . للأستاذ الدكتور وليم سليمان قلادة

العدد العاشر :

الإرهاب والعنف السياسى . . . . للواء دكتور أحمد جلال عز الدين



البنك الرئيسي للتنمية والائتمان الزراعي

بنوك التنمية والائتمان الزراعي بالمحافظات

أنشطتنا المختلفة

- النشاط الائتماني :

منح قروض للإئتمان الموسمى .

- النشاط الاستثماري :

يقدم قروض لكافة المشروعات الإستثمارية للتصنيع الزراعي والأمن الغذائى (ثروة حيوانية ثروة داجنة - ثروة سمكية - مناحل) .

- النشاط المصرفي :

القيام بجميع الأعمال المصرفية (حسابات جارية دفاتر توفير - ودائع إدخارية - سندات إدخارية - دفاتر توفير ذات جوائز) .

- النشاط التنموى :

يقدم قروض الميكنة الزراعية ويقوم بتمويل مشروعات القرية المنتجة والمزارع الصغير ويقوم بتمويل مشروعات اقامة مصانع العلف والألبان ومخازن التبريد والتجميد والثلج والثلاجات والمفرخات والمخابز ومصانع الطوب والصوب البلاستيكية. كما يقوم بتمويل طويل الأجل لإستصلاح الأراضى وإستزراعها .

المستحدث فى أنشطتنا :

= توافر قروض مقدمه من الهيئات الأجنبية والمنظمات الدولية لتمويل مشروعات الأمن الغذائى والتصنيع الزراعى ويقدم القروض بفائدة معتدلة وفترات سماح مناسبة وضمانات ميسرة بمختلف العملات الأجنبية.

= إنشاء الإدارة التجارية لتوفير مستلزمات التنمية الريفية والميكنة للإمداد للعملاء بأحدث مستلزمات الإنتاج المتطورة والأسمدة الحديثة الورقية والمخلبية .

= التوسع فى تنشيط شبكة التعامل مع البنوك الأجنبية والمراسلين .

= تطوير أعمال البنك بإستخدام تكنولوجيا الحاسب الآلى .

= التعامل مع الجمعيات التعاونية واستخدامها كمنافذ توزيع للبنوك .

مع تحيات

العلاقات العامة

رقم الإيداع ٣٢٣١ / ٨٦
الترقيم الدولى ٤ - ٠٤ - ١٤٥٥ - ٩٧٧



العدد القادم

من



مصر..
من يريدها بسوء؟

للأستاذ
محمد جبريل





- ولد بالقاهرة فى ٢٨ أبريل عام ١٩٢١ .
- تخرج ضابطاً بالجيش المصرى عام ١٩٤٢ ثم درس القانون فى أعقاب التخرج .
- شارك فى الدفاع عن مصر خلال الحرب العالمية الثانية ، واشترك فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .
- أسهم فى العصبيات والتنظيمات السرية للضباط الوطنيين منذ الأربعينات .
- انتقل للعمل فى جهاز المخابرات المصرية منذ بداية الثورة وترقى فى مناصبه إلى أن أصبح فى عام ١٩٦٦ نائباً لرئيس الجهاز .
- كلف بإدارة الصراع السرى ضد حلف بغداد والحلف المركزى وكذلك إدارة العمليات السرية ضد إسرائيل منذ منتصف عام ١٩٥٧
- عمل أميناً عاماً لأمانة الصحافة والنشر ومشرفاً على شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكى العربى .

.. وهذا الكتاب

يتضمن أخطر الأسرار عن الفترة التى تسبق ثورة ١٩٥٢ إلى ما بعد عدوان ١٩٦٧ من خلال العمل القيادى للمؤلف فى العديد من مؤسسات الدولة الهامة كالقوات المسلحة المصرية والمخابرات العامة والاتحاد الاشتراكى العربى وغيرها .

.. وهذه الدار

هى أول دار مستقلة للصحافة والطباعة والنشر فى مصر نشأت نتيجة جهد وعرق وإيمان مجموعة من المشتغلين بالفكر والكتابة .

- ☐ لتكون ساحة للحوار . . وملتقى للفكر المستنير والمتفاعل بين الآراء والاتجاهات المختلفة فى مصر والوطن العربى .
- ☐ ولتكون حلقة وصل بين التيارات الوطنية المختلفة . . والأجيال العاملة فى الحقل العام .
- ☐ ولتكون إطلالة على الغد تستشرف آفاقه وتبحث مشاكله . . وتسعى إلى فحص حلولها وهى من هذا المنطلق تتجاوز معارك الأمس ، وتخوض معارك الغد وتعتمد فى كل ذلك على الجيل الجديد من الشباب تتحدث إليه . . وتعمل من خلاله وبواسطته .

وفى كل ما يصدر عنها فإن « دار الحرية » تنفرد بالموضوعية فى التحليل . وبالتفكير العلمى وباحترام عقل القارئ وذلك بهدف دعم الحوار الفكرى . . وجذب كل الآراء والاتجاهات إلى دائرة الحوار .